

الحجّ في أحاديث الإمام الخميني — قدّس سره —

(١)

بسم الله الرحمن الرحيم
الى حجاج بيت الله الحرام كافه أيدهم الله تعالى.

بعد السلام ووافر التحيات.

اليوم، حيث نشيت برائن الاستعمار الخبيثه — بسبب تهاون و تساهل الشعوب الإسلامية — في أعماق الارض المترامية لأمة القرآن، لتنهب جميع الثروات الوطنية والخيرات الطائلة، ولتنشر الثقافة الاستعمارية المسمومة في أعماق قرى وقصبات العالم الإسلامي، ولتقضي على ثقافة القرآن، وتجنّد الشباب أفوهجاً في خدمة الأجانب والمستعمرين، وتطلع علينا كلّ يوم بنغمة جديدة وبأسماء خادعة تظلل بها شبابنا. في مثل هذه الظروف عليكم، يا أبناء الأمة الأعزاء المجتمعين لأداء مناسك الحجّ في أرض الوحي هذه، أن تستثمروا الفرصة وتفكّروا في الحلّ، وأن تتبادلوا وجهات النظر وتتفاهموا لحل مسائل المسلمين المستعصية.

واعلموا أنّ هذا الاجتماع الكبير الذي يعقد سنوياً، بأمر الله تعالى، في هذه الارض المقدسة، يفرض عليكم — أنتم المسلمين — أن تبذلوا الجهود على طريق الأهداف الإسلامية المقدسة، ومقاصد الشريعة المطهرة السامية، وعلى

طريق تقدم المسلمين وتعاليمهم واتحاد المجتمع الإسلامي وتلاحمه.

لتشترك أفكاركم وعزائمكم على طريق الاستقلال واقتلاع جذور سرطان الاستعمار.

استمعوا مشاكل الشعوب المسلمة من لسان أهل كل بلد، ولا تولوا جهداً في اتخاذ أي إجراء لحل مشاكلهم.

على اهالي كل بلد أن يشرحوا في هذا الاجتماع المقدس مشاكل شعبهم للمسلمين...

فكروا في أمر الفقراء والمساكين في العالم الإسلامي.

ابحثوا عن سبيل لتحرير أرض فلسطين الإسلامية من برائث الصهيونية العدو للدود للإسلام والإنسانية.

لا تغفلوا عن مساعدة الرجال المضحين الذين يناضلون على طريق تحرير فلسطين وعن التعاون معهم.

على العلماء المشاركين في هذا الاجتماع، من أي بلد كانوا، أن يصدروا — بعد تبادل وجهات النظر — بيانات صريحة واضحة لا يقاظ المسلمين، وأن يوزعوها في مهبط الوحي بين أبناء الأمة الإسلامية، ثم ينشروها في بلادهم بعد عودتهم.

وعلى العلماء أيضاً أن يطالبوا زعماء البلدان الإسلامية بوضع الإسلام نصب أعينهم، ويتجنبوا الاختلافات، ويبحثوا عن علاج للتخلص من مخالب الاستعمار.

ولو أن زعماء البلدان الإسلامية كفّوا عن الاختلافات الداخلية وتفهموا أهداف الاسلام السامية، واتجهوا نحوها، لما أصبحوا بهذه الحالة أسرى ذليلين بيد الاستعمار.

ان اختلافاتهم، هي التي خلقت مشكلة فلسطين، وتحول دون حلّها.

فلو أنّ سبعمائة مليون مسلم، بأرضهم الغنية المترامية الاطراف، يمتلكون وعياً سياسياً، وكانوا متّحدين منتظمين في صفّ واحد، لما أمكن للدول الاستعمارية الكبرى أن تنفذ الى بلادهم، فما بالك بحفنة من اليهود من عملاء الاستعمار... أنا أشدُّ على يد أبناء الأمة الإسلامية وأحرار العالم على طريق قطع جذور الاستعمار والمستعمرين، واستقلال البلدان الإسلامية وتخطيم قيود الأسر. وأسأل الله تعالى أن يدفع عنا شرّ الأنظمة المتجيرة وأذئاب الاستعمار القذرين، وأسأله أن يتقبل منكم أعمالكم ومناسككم .

الحج في حديث الإمام الخامنئي — حفظه الله —

(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين . والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد وآله الطيبين الطاهرين .

قال الله الحكيم :

{وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمناً واجنبنني وبني أن نعبد الأصنام . رب إنهم أضلّلن كثيراً ممن الناس فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم} .

أطل علينا موسم الحج، وملاّت نعمة التلبية المتصاعدة من قلوب المشتاقين؛ حرم الأمن الإلهي، وهرعت الشعوب الإسلامية من أرجاء المعمورة الى ميّعات الذكر والاستغفار والقيام والاتحاد، وتلاقى الأخوة المتباعدون... اتوجه الى الله العزيز الحكيم شاكراً خاضعاً، وأحمده حمداً عظيماً عظم صفاته الحسنى، وأثنى عليه سبحانه ثناءً واسعاً سعة بحار رحمته، أن وفق المسلمين المشتاقين مرةً أخرى لأداء هذه الفريضة، وأعلا — جلّ شأنه — بذلك راية العزة والعظمة على رؤوس المسلمين في بيته الآمن، واستضاف الحجاج الإيرانيين أيضاً على مائدة الرحمة والعظمة.

إنَّ الإنسانَ ليعجز عن وصف هذه النعمة الكبرى وقدرها وإن أُوتِيَ فصاحة اللسان وقوة البيان . ولعلَّ الله سبحانه ينير قلوبكم المضيفة المشتاقة فتتجلى فيها تلك الحقيقة المستغنية عن وسائط القول والكلام .

أيُّها الأخوة والأخوات من أي بلد كنتم وإلى أي شعب انتميم إنَّ ما يهمني أن أقوله لكم هو أنَّ الحجَّ نعمة إلهية منَّ بها الله سبحانه على الأجيال المسلمة . وشكر هذه النعمة ومعرفة قدرها يزيدُها، والكفران بها ونكران قدرها يسلبها من المسلمين وهو العذاب الإلهي الشديد: **{ولئن كفرتم إنَّ عذابي لشديد}**.

واعلموا أنَّ سلب نعمة الحجَّ ليس في عدم توجَّه المسلمين لأداء هذه الفريضة، بل في حرمان المسلمين من منافعها التي **ال تحصى، وزيادة هذه النعمة ليس في زيادة عدد الحجاج كلَّ عام، بل في استثمار منافعها : {ليشهدوا منافع لهم}**.

جدير بنا أن نفكر جيداً، هل العالم الإسلامي استطاع أن يستثمر منافع الحج؟ وما هي هذه المنافع أساساً؟
الحج الصحيح يستطيع أن يحدث تغييراً في المحتوى الداخلي لكلِّ فرد من أفراد المسلمين. يستطيع أن يغرس في نفوسهم روح التوحيد والارتباط بالله والاعتماد عليه ، وروح الفرض لكلِّ الأصنام الداخلية والخارجية في وجود الكائن البشري ، هذه الأصنام المتمثلة في الأهواء والشهوات الدنيئة والقوى الطاغية المسيطرة . الحجُّ يستطيع أن يرسِّخ الإحساس بالقدرة والاعتماد على النفس والفلاح والتضحية . ومثل هذا التحوُّل يستطيع أن يصنع من كلِّ إنسان موجدًا لا يعرف الفشل ولا يئنُّ أمام التهديد ولا يضعف أمام التطميع .
والحجَّ الصحيح يستطيع أن يصنع من الأشياء الممزقة لجسد الأمة الإسلامية كياناً واحداً فاعلاً مقتدراً، وأن يجعل هذه الأجزاء المتفرقة تتعارف

وتتبادل الحديث عن الآمال والآلام، والتطورات والاحتياجات المتقابلة، والتجارب المستحصلة .

ولو أنّ الحجّ وضع ضمن إطار برنامج يتوخّى هذه الأهداف والنتائج وتتضافر عليه جهود الحكومات والعلماء ، وأصحاب الرأي والكلمة في العالم الإسلاميّ، لعاد على الأمة الإسلامية بعباء ثرّ لا يمكن مقارنته بأيّ عطاء آخر في دنيا الإسلام . كما يمكن القول بكل ثقة : إنّ هذا التكليف الإلهي وحده ، لو استثمر استثماراً صحيحاً كما أرادته الشريعة الإسلامية ، لاستطاع بعد مدة غير طويلة أن يبلغ بالأمة الإسلامية ما يليق بها من عزّة ومنعة .

لأبّد من أن ندعن بمرارة الى أن الفاصلة كبيرة بين الشكل الحالي لأداء هذه الفريضة الإلهية والشكل المطلوب . الامام الراحل العظيم بذل جهوداً فعّالة في هذا السبيل، ووضع نصب أعين الأمة الإسلامية تصويراً واضحاً عن الحجّ الإبراهيمي، حجّ العظمة والعزّة ، حجّ الرفض والتحوّل . وكان طرح هذا التصرّوّل بحذ ذاته مبعث بركات وافرة في العالم الإسلاميّ . غير أنّ نشر هذه الفكرة وهذا المنهج العملي بين جميع الشعوب المسلمة بحاجة الى جهود مخصصة ينهض بها علماء الدين ، ووعي وتعاون يديه حكام كلّ البلدان الإسلامية ، وآمل أن تكون هذه المهمة الحساسة موضع اهتمامهم و عملهم.

الحجُّ عبادة و حركة و سياسة

تأليف : محمد حسين فضل الله

لعلّ من أبرز خصائص الإسلام في تشريعاته العبادية والحياتية ، هو هذا الشمول في النظرة الى الإنسان ، فيما يريد أن يحققه من غايات في تنمية شخصيته ، وفي مسيرة حياته انطلاقاً من الكفرة الواقعية التي لا تنظر إلى الإنسان الكائن على أنه ذو بُعد واحد ، ليتمكن لنا أن نعالج أوضاعه من جهة واحدة ، بل هو كائن ذو أبعاد تلتقي فيها الشخصية الفردية بالشخصية الاجتماعية من دون أن تسمح احدهما في خصائصها الذاتية بالانفصال عن الاخرى ، كما يمتزج في داخلها الجانب الروحي بالجانب المادي، فليس هناك عنصر مادي تختنق فيه النفس في داخل الأسوار المادية ، وليس هناك عنصر روحي تخلّق فيه النفس بعيداً بعيداً عن المادة ، في حالة تجريدية رائعة .. بل هي المادة النابضة بالروح أو الروح المنطلقة في حركة المادة .

وفي ضوء ذلك أكّد الإسلام على ممارسة الإنسان للحياة بشكل طبيعي

واعتبر الانحراف عن ذلك خروجاً عن التوازن والاستقامة في انطلاقة الإنسان المسلم في الحياة ، فقد جاء في بعض الكلمات المؤثرة ((ليس منا من ترك دينه لآخرته ومن ترك آخرته لدينه)) ، كما جاء في الحديث الشريف ، ((من لم يهتم بأمر المسلمين فليس بمسلم)) ، وقوله (صَلَّى الله عليه وآله وسلم) : ((لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ويكره له ما يكره لها)) .. مما يعني أن العزلة عن الحياة لا تمثل قيمة كبيرة من قيم الإسلام في الحياة ، كما أن الفردية المغرقة في ذاتيتها المختنقة داخل قضاياها الخاصة ، تمثل ضدّ القيمة في السلوك الإنساني في نظر الإسلام .

وربما كان من خصائص هذه النظرة الشمولية للإنسان ، أن الإسلام يريد لأية قضية من قضايا الإنسان ، ولأية ممارسة من ممارسة ، أن تتحرك في خط القضايا والممارسات الأخرى ، بحيث تكمل نقصاً فيه ، أو تسدّ فراغاً في وجوده .. فإذا تحرك الإسلام في خط التربية الفردية للحياة الإنسان ، فإنه يريد — من خلال ذلك — أن يختار له من الصفات الكريمة ما يرفع مستوى إنسانيته ، ويحقق له الشخصية الخيرة في الحلق الاجتماعي ، فلا قيمة للعالم مهما بلغت درجة صاحبه فيه ، إذا لم يرتفع بالإنسان إلى مستوى العطاء الذي يفتح فيه الإنسان من نفسه مدرسة للآخرين ويحقق للحياة من فكره خيرةً واسعة تمنحها فرصة التّمو والتّقدم والازدهار ، ولا قيمة للقوّة إذا لم تستطع أن تتحول إلى عنصر من عناصر القوّة التي تنقذ الآخرين من عوامل الضعف الإنساني.. وهكذا يجد الإسلام في الكمال الفردي الإنساني مفتاحاً للدخول إلى الكمال الإنساني الاجتماعي.. ويوحى بالفكرة التي تعطي للخصائص الأخلاقية قيمتها الكبيرة ، إذا استطاعت أن تحقق للإنسان ذاته في حركته في قلب المجتمع ، وترفض منح القيمة للذين يمارسون عملية النمو في العزلة البعيدة عن الحياة .

وقد أراد الإسلام أن يثير هذه النظرة الشمولية في تشريعه للعبادات.. فقد جاء الإسلام إلى الحياة ، والتقى بالنظرة الروحية التي تعتبر العبادة شأنًا من

شؤون السماء ولا علاقة لها بأرض فليس من المفروض للعبادة في قيمتها الروحية أن تحقق هدفاً كبيراً تتحرك — على أساسه — في شؤونها الاجتماعية وإقتصادية والافتصادية ، بل كلّ دورها ومهمتها ، أنّها ترتفع بالروح الإنسانية إلى الله في غيبوبة روحية خالصة ، يعيش فيه الإنسان روحانية الخشوع والخضوع والعبودية لخالقه ، فيحس معها بالسعادة والنشوة والامتداد في أجواء المطلق والقرب من الله.. وبذلك كانت الرهبانية مظهر السمو في الروح والإخلاص في العبادة لأنها تعزل الإنسان عن كل زخارف الحياة وشهواتها ومشاكلها وقضاياها الصغيرة ، وتربطه بالله ...

وبدأ الإسلام تغيير هذه النظرة إلى العبادة من خلال تغييره للنظرة إلى دور الإنسان في الحياة .. فإذا كان الإنسان خليفة الله في الأرض ، وإذا كانت الأرض هي الساحة التي يريد الله لعباده أن يحققوا فيها إنسانيتهم في خطّ السمو الذي ترسمه لهم رسالاته ويخططوا في جوانبها براجهم في شؤون النمو والتقدم والازدهار على أساس سنن الله في الأرض .. فإن معنى ذلك أن الدور الإنساني في رعاية حركة الحياة وإدارة شؤونها وتخطيط مراحلها ويرجى أهدافها ليس بعيداً عن إرادة الله ومحبه ورضاه بل ربّما كان في القرب من الله ، والتأكيد على عمق عبوديته له — فيما تمثله العبادة — باعثاً على تحقيق هذه المعاني في نفس الإنسان وحياته بطريقة أفضل ، وبإخلاص أكمل ..

وقد أعطى الإسلام العبادة — في هذا الاتجاه — معناها الجديد ، وطابعها المميّز ودورها العملي ، فلم تعد مجرد حالة وجدانية روحية ذاتية يعيش فيها الإنسان معه ربّه ، بل تحولت إلى قاعدة من قواعد التربية التي تتنوع فيها الممارسة لتحقيق للإنسان أهدافاً عملية ، في حركة شخصيته ، وفي مجرى حياته العامة والخاصة .. فأصبح الإنسان يعيش فيها مع ربّه ، ليلتقي — من خلاله — بحياته ، فيملأها بكل المعاني والأهداف والقيم الكبيرة التي يحبها الله ويرضاها ، ويحب الناس الذين يعيشونها في عمق الروح ، وفي امتداد الحياة كما

يُوحى بذلك الحدِيث المأثور والشريف ((الخلق عيال الله، وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله)) .

فإذا التقينا بالصلاة في الإسلام فإننا نجدُها — في القرآن الكريم — وسيلةً من وسائل تنمية الشخصية في خط الخير والصلاح والسمو الإنساني فيما يمثله خط الابتعاد عن الفحشاء والمنكر فيما ورد من قوله تعالى: {وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر...} وفيما يُوحى به الحدِيث الشريف ((من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بُعداً . . وفيما عبر عنه قوله تعالى: {فويلٌ

للمصلين} * الذين هم عن صلاتهم ساهون * الذين هم يراؤون * ويمنعون الماعون} مما يُوحى بأن الصلاة تدخل في قيمتها الدينية في عمق الحياة الفردية والاجتماعية، بقدر ما يتعلق الأمر بالقيم الإيجابية والسلبية التي تحققها الصلاة في حركة الحياة للإنسان . . سواء في ذلك ما يمارسه الإنسان في حقله الفردي أو الاجتماعي أو الاقتصادي أو السياسي ، انطلاقاً من شمول كلمة الفحشاء والمنكر لكل الأوضاع السلبية ، التي يريد الإسلام للإنسان الابتعاد عنها في جميع هذه الأمور، فلا قيمة لصلاة الطغاة والمتكبرين والظالمين والمتعاونين معهم ، والخائنين لأمتهم ولدينهم ، كما لا قيمة لصلاة السارقين والكذابين والزناة والمغتربين والنمامين والأكليين للحرام من مال أو طعام . . لأن الصلاة لم تحقق للإنسان شيئاً عملياً في خط الاستقامة أو البعد عن الانحراف . . الأمر الذي يجعل الناس لا يُخدعون بصلاة المنحرفين عن الإسلام في قيمته وشريعته ، فيبتعدون بذلك عن السذاجة والبساطة في تقديرهم للأمور، في مواجهتهم للواقع ، فإذا رأوا إنساناً مسؤولاً يؤدي صلاته في خشوع ، فعليه أن ينتظروه ليخرج من المسجد وينفصل عن أجواء الصلاة ، وينتقل إلى مجالات الحكم والسياسة والإدارة ليعرفوا — من خلال ذلك — كيف تمتد الصلاة داخل حياته في هذه المجالات ، أو كيف تبتعد عنها تماماً، ليحدّدوا موقفهم على أساس ذلك كما ورد في الحدِيث المأثور عن

أئمة اهل البيت، الذي يرفض أن يكون طول الركوع والسجود مقياساً لمعرفة الرجل ؛ لأن ذلك ربما يكون جاريماً يجرى العادة التي يستوحش الإنسان إذا تركها، واعتبر المقياس — بدلاً من ذلك — صدق الحديث وأداء الأمانة ؛ لأئمة يدخلان في عمق الشخصية الإسلامية . . فإذا التقينا بالصوم نجد أن الله جعله فريضة يحقق للإنسان من خلالها شخصيته النقية التي تقف عند أبواب الحرام المفتوحة أمامها فلا تدخلها، كما يؤكد فيها الإنسان حسه الإنساني ومشاعره الروحية ، والاجتماعية . . عندما يجد طعم الجوع والظمأ في إحساسه بالصوم ؛ فيتذكر جوع الجائعين وظمأ الظالمين فيفهم معنى مشكله الجوع والظمأ من موقع المعاناة الذاتية ، لا سيما إذا كان غنياً لا يعيش الحاجة إلى الأشياء من خلال حياته العادية ؛ لأنه إذا أراد شيئاً حصل عليه ، وهكذا كان دور الصوم إنسانياً اجتماعياً إلى جانب الدور الروحي الذي يحقق فيه الإنسان علاقته الروحية بالله . . ومن الممكن للإنسان أن يتعلم من الصوم : الرفض العلمي لكل الأوضاع المنحرفة في الواقع السياسي والاجتماعي إنطلاقاً من إرادته الإسلامية القوية التي ترفض الحرام في العمل الفردي ؛ لترفضه في نهاية المطاف في الواقع الاجتماعي والسياسي العام .

قيمة الحج بين العبادات :

والحج من هذه العبادات الإسلامية التي أرادها الله للناس ، لتحقيق لهم من خلالها النظرة الشاملة لقضية الإنسان في الحياة . . فقد جعله الله فريضة على كل من استطاع إليه سبيلاً ، واعتبر تركها خروجاً على عمق الالتزام الإسلامي ، حتى جعل التارك لها في حكم الخارج عن الإسلام . . وقد تعبد الله به عباده منذ النبي إبراهيم (عليه السلام) وجاء الإسلام فأضاف إليه شروطاً وأحكاماً وحدد له أهدافاً ، ورسم له خطوطاً من أجل أن يحقق للإسلام الدور

الكبير في الحياة ، في فاعلية وامتداد ، فلم يقتصر فيه على جانب واحد من جوانب التربية ، بل استوعب المعاني التي تنطلق من العبادات الأخرى ، فشرّع الإحرام في كل التزاماته وتروكه ؛ ليحقق للإنسان أهداف الصوم ، ولكن في أسلوب متحرّك متنوع لا يخاطب في الإنسان جوع الجسد وظمأه ، ولكنه يخاطب فيه جوانب أخرى ، تهذب فيه نزعة القوة فتوحي له بالسلام ، ونزعة التعلق باللذة فتوحي له بالانضباط والتوازن ، ونزعة الترف فتقوده إلى الخشونة ، ونزعة الكبرياء فتوجهه إلى التواضع ، وتعلّمه كيف يحرك الفكر والثقافة والمعرفة ، في اتجاه الحق بدلاً من الباطل لتبقى المعرفة سبيله الوحيد في حركة الكلمة والفكرة ، وشرّع الطواف وجعله صلاة ؛ ليعيش معه الإنسان آفاق الصلاة وروحيتها فيما يمثله من طواف حول البيت ، الذي أراده الله رمزاً للوحدة بين الناس ، في معناه الروحي المتصل بالله ، لا في مدلوله المادي المتمثل بالحجارة ، ولإيحاء بأن الحياة لا بد من أن تتحول إلى طوافٍ حول إرادة الله ، فيما يتمثل في بيته من مشاعر الطهارة والنقاء والخير والبركة والرحمة والمحبة . لتكون الحياة حركة في طريق الأهداف الي يحبها الله ويرضاها، ويريد لعباده أن ينطلقوا معها في رسالية ومسؤولية . .

وفرض السعي بين الصفا والمروة ؛ ليعيش الإنسان معه الشعور الواعي بأن خطواته لا بد من أن تتجه إلى المجالات الخيرة ؛ ليكون سعيه سعيّاً في سبيل الخير، وابتعاداً عن طريق الشرّ، فهو يسعى هنا لا لشيء إلا لأنّ الله أراد منه ذلك ليحصل على القرب منه . . مما يوحي بأن السعي هنا إذا كان للحصول على مرضاة الله فيما تعبّدنا به من أمره ونهيّه ، فينبغي لنا ان نطلق السعي في مجالات الحياة الأخرى ، في كل آفاقها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، في الاتجاه نفسه لنحصل على رضاه في كل أمورنا . .

أمّا الوقفات التي أرادها الله في عرفات والمشرع ومنى ، فإنها وقفات تأمل وحساب وتدبّر وانطلاق ؛ ليستعيد فيها الإنسان مبادئه التي قد تضيع في

غمرات الصراع ، التي يخوضها في سبيل لقمة العيش ، أو في سبيل تحقيق رغباته ومطامعه المشروعة وغير المشروعة ، فإنَّ الإنسان قد يفقد الكثير من قيمة الكبيرة ، تحت تأثير النوازع الذاتية من جهة ، والتحديات المضادة التي قد تخلق لديه ردود فعل متوترة ، — من جهة أخرى — فينسى في غمرة ذلك كله الكثير الكثير مما يؤمن به أو يدعو إليه . . الأمر الذي يجعله بحاجة إلى مزيد من التأمل والمحاسبة ، التي يرجع فيها إلى فكره وعقيدته وخطه المستقيم في الحياة .

وجعل الأضحى رمزاً حياً للتضحية والعطاء فيما يرمز إليه من تاريخ إبراهيم وإسماعيل ، عندما أسلم الله الأمر وانتصرا على نوازع الأيوّة في عاطفتها تجاه النبوة ، وعلى حب الذات في إحساس الإنسان بحياته . . وانتهى الأمر إلى أن فداه الله بذبح عظيم ، وفيما يريد أن تثير في حياة الإنسان في كل زمان من السير على هدى هذه الروح ؛ ليكون ذلك خطأ عملياً ، تسير عليه الحياة في كل مرحلة تحتاجها للتضحية والعطاء . . وكان رجم الشيطان ، إيحاءً بما يريد الله للإنسان أن يعيش في حياته كهّم يومي يواجه فيه خطوات الشيطان في فكره وعاطفته وقوله وفعله ، وانتماءاته وعلاقاته العامة والخاصة . وربما كان في هذا التكرير في الفريضة لرحم الشيطان الرمز إشارة بأن قضية محاربة الإنسان للشيطان ليست قضية حالة واحدة يعيشها الإنسان ويتركها ، بل هي قضية متجددة في كل يوم . . وهكذا يمكن أن يساهم الحج في إحياءاته ورموزه وأحواله الروحية ، في تنمية الشخصية الإنسانية من الجانب التأملي والعملية والروحي ، فيما إذا عاش الإنسان هذه الفريضة من موقع الوعي المسؤول ؛ لذلك لا يبقى مجرد عبادة يهرب فيها الإنسان من الواقع ليغيب في مشاعره الذاتية في جوّ مشبع بالضباب ، كما يحاول البعض أن يصوّر العبادة . . وفي هذه الأجواء الروحية الواعية المتحركة في خط المسؤولية يمكن أن يعود الإنسان الفرد من رحلة الحج إنساناً جديداً في أهدافه ومنطلقاته وخطواته ، من خلال ما عاشه من دروس وعبر ومواقف

تأملات ، حيث الطهر والخير والمحبة والحنان، ولعلّ هذا هو ما يريد الإسلام أن يوحيه للحاجّ فيما ورد في الأحاديث التي توحى بأن الإنسان يخرج من الحج كيوم ولدته أمّه ، وأنه يقال له استأنف العمل من جديد . . وذلك في نطاق المضمون الداخلي للحج ، لا من خلال الشك الخارجي الذي يؤديه الكثيرون بدون روح وبدون معنى ممن يعيشون الحج عادةً وتتقليداً وسياحةً وتجارةً فينطبق عليه ما ورد عن أحد أئمة أهل البيت (عليه السلام) عندما نظر إلى الجموع المحتشدة في الموقف ، أو في بيت الله فقال : ((ما أكثر الضحيج وأقلّ الحجيج)) ! إذا لا قيمة للعدد إذا لم يكن متحركاً في عمق القيم الروحية في الحياة ، فرب رقم صغير يحقق للإنسانية معنى كبيراً هو أفضل من رقم كبير لا يحقق شيئاً للحياة إلا زيادةً في الساحة والحجم على صعيد الأرض، من هؤلاء الذين يكونون عبئاً على الحياة بدلاً من أن يكونوا قوّة لها .

. . في الأبعاد الروحية :

وإذا كان الحج من حيث هو عبادة ذات مضمون عملي وروحي ، يحقق للإنسان هذا الارتفاع الروحي ، فإنه يساعد على تغيير الواقع من خلال تغييره للإنسان إنطلاقاً من الوحي القرآني في الإسلام الذي يعتبر الإنسان أساس التغيير كما جاءت به الآية الكريمة : { **إِن اللَّه لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ** } . . وبذلك تدخل العبادة في عمق حركة الحياة ، ولاتبقى حالة طارئة طافيةً على السطح . . وهكذا يستطيع العاملون للإسلام — في أساليبهم التربوية العملية — أن يشجّعوا الناس على ممارسة هذه الفريضة ؛ لتحقيق هذا المستوى من التغيير الداخلي في حياة الإنسان ، كوسيلة متقدمة روحية من وسائل التغيير الخارجي لحركة الحياة . . فإن ما يختزنه الفرد من الطاقات الروحية الجديدة في أجواء الحج ، هو أعظم من كثير من الأساليب الخطابية التي اعتاد الناس ممارستها

في عملية التربية . .

وقد رأينا الكثيرين الذين كانوا لا يعيشون المشاعر الروحية في منطلقاتهم ، في الوقت الذي كانوا يمارسون فيه الالتزام الإسلامي في بعض مبادئ الإسلام وأحكامه . . قد تغيروا كثيراً بعد قيامهم بهذه الفريضة بطريقة واعية بحيث استطاعت أن تغير مجرى تفكيرهم وشعورهم فيما يعيشون فيه من فكر وشعور . . وتحولوا إلى عناصر فاعلة واعية في حركة الإسلام في الدعوة والعمل .

ولكن هل هذا كله هو ما تعنيه لنا هذه الفريضة ؟ وإذا كان الأمر كذلك ، فلماذا هذا التأكيد على وحدة المكان الذي تمارس فيه ، وعلى هذا الحشد العظيم من الناس الذي تتنوع أجناسه وألوانه وقومياته ولغاته . . بطبيعة شمول الإسلام كدين لكل هذه الأنواع من الناس . . لماذا لم يكن كالصوم وكالصلاة اللذين يمارسهما الإنسان في نطاق فردي أو جماعي حسب اختياره . . ؟ هل هناك سرّ يتعدّى الجانب التربوي الفردي إلى الجانب الاجتماعي والسياسي ؟ هذا ما نحاول أن نستوحيه فيما نريد أن ننشر من حديث .

المنافع العامة :

إنَّ أوَّل ما نلتقيه من نصوص الحج هو النداء الأوَّل الذي وجَّهه الله للنبي إبراهيم (عليه السلام) في دعوة الناس إلى الحج . . وذلك في قوله تعالى: {وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكَلُوبُوا مِنْهَا وَأَطْعَمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ} .

فإننا نجد في هذا النداء دعوةً إلى أن يشهدوا منافع لهم من دون تحديدٍ لطبيعتها وحجمها، للإيجاء بالانطلاق في هذا الاتجاه للبحث عن كل المجالات

النافعة التي يمكن لهم أن يحققوها من خلال الحج في حياتهم الفردية والاجتماعية إلى جانب الروح العبادية المتمثلة بذكر الله في أيام معدوداتٍ ، شكرًا لنعمه وتعظيمًا لآلائه وتطبيقًا لتعليماته في توجيه هذه النعمة إلى ما أَرادَه من الإنفاق على الفئات المحرومة البائسة .
وقد يثير القرآن أمام بعض المواضيع حالةً من حالات الإهمام والغموض من أجل أن يدفع الإنسان إلى البحث ، في كل اتجاهٍ يتعلق بالموضوع ليحقق الشمول والامتداد في آفاقه فلا يتجمّد أمام فرضيّة واحدةٍ ، أو وجهٍ معينٍ ، أو اتجاهٍ خاصٍ . . وبهذا يكون التشريع حركةً متجدّدة في خطّ الإبداع والنمو والتقدم . .

٢- ورد في حديث عن الإمام جعفر الصادق (عليه السلام) فيما حدّث به هشام بن الحكم قال: سألت أبا عبد الله ((جعفر الصادق)) فقلت له : ما العلّة التي من أجلها كلّف الله العباد الحج والطواف بالبيت ؟ فقال : إنّ الله خلق الخلق . . (إلى أن قال) وأمرهم بما يكون من أمر الطاعة في الدين ، ومصلحتهم من أمر دنياهم ، فجعل فيه الاجتماع من الشرق والغرب ليتعارفوا، وليتّرع كل قوم من التجارات من بلد إلى بلد، ولينتفع بذلك المكاري والجمال ولتتعرّف آثار رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلّم) وتعرّف أخباره ، ويذكر ولا ينسى . ولو كان كل قوم إنما يتكلمون على بلادهم وما فيها هلكوا وخربت البلاد ، وسقطت الجلب والأرباح وعميت الأخبار ولم تقفوا على ذلك ، فذلك علّة الحج . .

٣- عن الفضل بن شاذان عن الإمام علي الرضا (عليه السلام) قال : إنّما أمروا بالحج لعلّ الوفاة إلى الله — عز وجل — وطلب الزيادة والخروج من كل ما اقترف العبد تائباً ممّا مضى ، مستأنفاً لما يستقبل مع ما فيه من إخراج الأموال وتعب الأبدان والاشتغال عن الأهل والولد، وحظر النفس [الانفس] عن اللذات شاخصاً في الحرّ والبرد ثابتاً على ذلك دائماً، مع الخضوع والاستكانة والتذلّل مع ما في ذلك لجميع الخلق من المنافع ، لجميع من في شرق الأرض

وغربها، ومن في البرّ والبحر، مَن يحجّ ومَن لم يحجّ، من بين تاجر وجالب وبائع ومشتريّ وكاسب ومسكين ومكار وفقر، وقضاء حوائج أهل الأطراف من المواضع الممكن لهم الاجتماع فيه، مع ما فيه من التفقّه ونقل أخبار الأئمة إلى كل صقع وناحية كما قال الله عزّ وجل: ﴿فلولا نفر من كلّ فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلّهم يحذرون﴾ . و﴿ليشهدوا منافع لهم . . .﴾ .

الحجّ ملتقى المسلمين :

إننا نستوحي من هذين الحديثين، أن الإسلام أراد للحج أن يكون ملتقىً للمسلمين جميعاً في شرق الأرض وغربها، من أجل تحقيق التعارف والتواصل بينهم، وتحصيل المنافع الاقتصادية والاجتماعية لمن حجّ ولمن لم يحجّ ، وتبادل التجارب والخبرات المتنوّعة ، التي يملكها كل فريق من خلال أوضاعه العامة والخاصة . . . وتسهيل حركة الدعوة إلى الله بالانطلاق من موسم الحج للاتصال بكل المناطق الإسلامية التي تتمثّل بأفرادها، الذين يقصدون بيت الله الحرام ؛ لأداء الفريضة فيما يتعلمونه من ثقافة الإسلام وشريعته ، وفيما يتعاونون فيه من مشاريع وأعمالٍ وخططٍ على أساس المصلحة الإسلامية العليا . . لينطلق العمل الإسلامي من قاعدة مركزية واسعة . . في أجواء الإسلام التاريخية التي شهدت مولد الدعوة وعاشت حركيتها، وحقّقت أهدافها الكبيرة في جهادها المرير الصعب ، فيكون التحرك في الخط من موقع الفكرة والجوّ والخبرة المتبادلة والمعاينة الحاضرة .

وهكذا يعيش الناس فيما يقصدونه من مزارات أجواء الإسلام الأولى، التي يعيشون معها الإحساس بالانتماء الروحي والعملّي لهذا التاريخ ، مما يوحي لهم بأن الإسلام الذي ينتمون إليه يمتدّ إلى تلك الجذور العميقة الطارئة في أعماق الزمن، وبأنّ عليهم أن يعطوا هذا التاريخ امتداداً من خلال جهادهم

ومعاناهم . كما استطاع المسلمون أن يحققوا لهم هذا الامتداد الذي يتصل بمسيرتنا الحاضرة . . وبذلك لن تكون الزيارات تقليداً يفقد معناه ، وعبادة تتجسد أمام المزار؛ لتنفصل عن معنى التوحيد العميق ؛ الذي يخلص العبادة لله دون غيره ، ولا يتحرك نحو جهةٍ أو شخصٍ أو عملٍ إلا من خلال تعاليم الله التي انزلها على رسوله . . الأمر الذي يعطي كل تحرّك معناه الروحي ، فيما تعطيه حركة التاريخ من مضمون إنسانيٍّ إسلاميٍّ ، يغني التجربة ، ويعمّق الإيمان .

سقوط الفوارق :

وعلى ضوء ذلك ، نفهم أنّ : اللقاءات التي يخطّط لها الإسلام من خلال هذه الفريضة العباديّة ، لا بدّ من أن تعيش الهدف الكبير في تحقيق لقاء إسلاميٍّ شامل ؛ ليستهدف إلغاء كل الفوارق الطبقية واللونية والعرقية والإقليمية . . من خلال التفاعل الإنساني الروحي الذي تحقّقه هذه اللقاءات التي تتمّ في أجواء روحية خالصة ، يستشعر فيها الجميع بالقيمة الإسلامية على هدى الممارسة في وحدة الموقف واللباس والشعار والتحرّك . . فيلغى المشاعر الطارئة المضادّة ، التي يمكن أن يتعامل من خلالها الاستعمار الكافر، لتفتت طاقاتهم وتدمير وحدتهم . . حتى إذا نجح في بعض خطواته ، فيما يستغلّه من بعض الأوضاع السلبية . . كان الحجّ له بالمرصاد ليعثر تلك الخطوات الشريرة ، ويفسّوّن عليه عملية الاستغلال هذه ، بما يثيره من مشاعر طاهرة وأفكارٍ واعية ، وخطواتٍ إيمانية متحركة بقطعة . .

بين الخطّة والواقع :

ذلك هو بعض ما نستوحيه من تشريع الحج في مدلوله الاجتماعي والسياسي ، إلى جانب مدلوله الروحي العبادي التربوي ، وذلك هو ما مارسه الأئمة من أهل البيت (عليهم السلام) عندما كانوا يعتبرون الحج قاعدة للحوار مع كل الفئات المنحرفة ، كما كانوا يحاولون أن يحقّقوا اللقاء بكل العناصر الطيبة التي يريدون لها أن تسير في الخطّ الإسلامي المستقيم ، في خطة توجيهية عملية شاملة . . .

فماذا عن الواقع الذي يعيشه الحج في هذه المرحلة من تاريخ الإسلام ؟

إننا نلاحظ حشداً كبيراً من البشر ، الذين يفدون إلى بيت الله الحرام من مشارق الأرض ومغاربها، من مختلف القوميات والألوان ، ونستمع إلى كثير من الأصوات التي تعجّ بمختلف اللّغات ، وإلى الإتهالات التي ترفع إلى الله من شفاه المؤمنين ومن قلوبهم مستغفرة شاكية باكية ، ونشاهد كيف تنقايض الدموع الخاشعة من العيون الحائرة القلقة التي تنطلق إلى غفران ذنوبها، وتكفير آثامها والفوز بالجنة والنجاة من النّار . . ونتابع الحجيج في خطواتهم وأعمالهم ، فنلاحظ الإلحاح على تجميد شعائر الحج في نفوسهم ، في محاولة للحفاظ على الشكل بعيداً عن المضمون . . فإذا دخلت إلى مجتمعاتهم فإنك ستري العلاقات العادية ، التي اعتادوها في بلادهم التي جاءوا منها، بكل ما تشتمل عليه من سلبيات ، وما تفرزه من نتائج سيّئة تعيث بأجواء الحج أيما عبث ، وتسيء إليه إساءة . . وهكذا لا تجد هناك مجتمعاً يترابط أفراداه بالهدف الواحد، بل تجد أفراداً يعيشون شكل المجتمع من دون معنى أو روح . .

هذا في المدلول الذاتي للحج إن صح التعبير . .

فإذا تطلّعت من جديد إلى الجوّ الداخلي للمسلمين ، فماذا تجد؟ إنك ستجد الاختلافات المذهبية بين المسلمين تتحجّر وتتجمّد في صيغ

جامدة لا

يملك أصحابها تحريكها أو توجيهها، أو إفساح المجال لها لتنفس الهواء النقي الذي يجدد لها أفكارها، ويبحث فيها المرونة والحيوية ، التي تدفعها إلى الحركة والحوار حتى كأن الفكر الإسلامي لدى كل فئة وقف في بعض لحظات التاريخ عند أشخاص معينين ، وكفّ عن الحركة في المراحل الزمنية الأخرى . . ولعل من المفارقات أن الكثيرين ممن يقلّدون المجتهدين لا يدّعون لهم العصمة في رأي واجتهاد ، ولكنهم لا يحاولون أن يناقشواهم أو آرائهم ، بل يثيرون الغبار في وجه كل من يحاول ذلك . . وقد لا يقتصر الأمر على ذلك بل يتعداه إلى المحاولات المتشنجة التي يقوم بها كل طرف إسلامي ضد الأطراف الأخرى في أساليب متنوعة فيما تملكه من عناصر الإثارة التي لا تقوم على أساس من الفكر الهادئ المتّزن والأسلوب الإيماني المنفتح ، الذي أرشدنا الإسلام إليه ودعانا إلى ممارسته فيما نختلف فيه من فكر، وفما نتنازع فيه من أمر . . وبذلك يتحول هذا المجتمع الإسلامي إلى مجتمع تتزايد فيه المشاحنات والأحقاد بدلاً من أن يكون مجتمعاً تنوب فيه كل هذه العوامل السلبية . .

أما الجانب السياسي فقد لا تجد فيه أية حركة إيجابية جادة تتناول قضايا المسلمين بالدرس والمناقشة والمعالجة ، سواء فيما يتعلق بالأوضاع السياسية التي يعيش فيها المسلمون مشاكل الحرية والعزة والكرامة ، بسبب وقوعهم تحت قبضة الاضطهاد الاستعماري والفكري والعنصري ، أو فيما يتعلق بالأوضاع الاقتصادية التي تتصل بثرواتهم المعدنية والزراعية ، فيما يواجهه المسلمون من محاولات ظالمة في الضغط المتواصل ، من قبل الدول المستعمرة الكافرة ، لتعطيل خطط التصنيع والإنتاج في سياسة الاكتفاء الذاتي التي يطبع إليها العالم الإسلامي، وذلك لإبقاء هذه الشعوب سوقاً إستهلاكية لمنتجاتها، الأمر الذي يجعلها تحت رحمة الحروب الصغيرة التي تثيرها الدول الكبرى المستكبرة فيما بينها من أجل أن تشغلها عن خطط التنمية والتطوير، وذلك بفضل عملائها الذين تضمن إخلاصهم لها من خلال ضمائمهم لمراكزهم التي يترعون عليها . .

إنك لا تشعر بارتفاع الأصوات المهادرة ، التي تحاول أن تثير المشاعر الإسلامية ضد هذا الواقع السيء كوسيلة من وسائل الإثارة نحو التغيير . . وذلك لأن الأجواء المحيطة بالواقع السياسي هناك تمنع من أي حركة في هذا الاتجاه . لما يحقق ذلك من تفجير للطاقات الشعبية في الخط السليم المضاد لذلك الواقع . .

وقد حاولت الثورة الإسلامية في إيران في السنة الأولى لانطلاقتها، أن تحرك الجو الإسلامي هناك، من خلال طرحها للشعارات الإسلامية التي تعالج قضايا المسلمين في العمق والامتداد . وأن تدعو المسلمين إلى تحويل الحج إلى مؤتمر إسلامي عام ، تبحث فيه المشاكل الصعبة التي يعانها العالم الإسلامي وذلك في محاولة إلى أن يقوموا بالحركة الإسلامية العالمية في الخط الإسلامي السليم الذي يعالج كل أوضاع العالم الإسلامي بصدي إخلاص . . ولكن هذه المحاولة قوبلت بالضغط والتضييق والقهر والتشويه ، وذلك نتيجة الخوف من تغيير الأوضاع .

إننا نواجه الآن الواقع الإسلامي المرتكب المضطرب الضائع بين الاتجاهات غير الإسلامية ، سواء منها الاتجاهات الماركسية ، أو القومية ، أو الاشتراكية ، أو الإقليمية وبين الاتجاهات الإسلامية المختلفة في تطلعاتها وخططها وأهدافها . . كما نواجه الواقع السياسي الذي يعيش فيه المسلمون بين واقع خاضع للسيطرة الاستعمارية الكافرة بشكل مباشر، كما في فلسطين وإريتريا والفلبين وغيرها من البلاد الخاضعة للاستعمار القديم والجديد ، وبين واقع خاضع للحكم الاستعماري المقتنع بقناع وطني أو إسلامي فيما يمارسه من ظلم واضطهاد وطمع وتفتيت للثروات والطاقات الإسلامية وتضييعها في الفراغ ، وإفساد للفكر والعمل والواقع في كل مجالات الحياة . . ويمتد هذا الواقع السيء فيتمثل في الأوضاع الاقتصادية القلقة التي تضغط على المسلمين في طريقة الإنتاج والاستهلاك وتوزيع الثروة وإهدار الطاقة وتخطيط الاقتصاد

على أساس المصالح الاستعمارية . .

أما الأوضاع الاجتماعية والأخلاقية فإنها تنحدر بشكل عجيب فيما يتناقى مع التخطيط الإسلامي للمجتمع والأخلاق . . .
... إننا نواجه هذا الواقع الذي يتحدى وجودنا الإسلامي في الصميم ، ونشعر — معه — بغياب الإرادة الإسلامية الواحدة في مواجهته وتغييره . . بل ربما نجد أماننا الإرادة المضادة التي تعمل على استمراره وزيادة انحرافه بفضل عملاء الكفر والاستعمار من حكام بلاد المسلمين وقادتهم . . وذلك من خلال أساليب الضغط على الحركات الإسلامية الرائدة القائمة ، بإعدام قادتها وإغتيالهم ، وتفتيت قواعدها، وتخليدهم في السجون التي يلاقون فيها أبشع ألوان العذاب الوحشي مما لا يخطر على قلب بشر . . والتضييق على الفكر الإسلامي الواعي بمنع الكتب والمجلات الإسلامية الهادفة الملتزمة ، وإفساح المجال للفكر المنحرف والخليع من أجل تميع الإنسان المسلم . . ومنع اللقاءات الإسلامية ، والاجتماعات الثقافية والسياسية الهادفة . . في كل بلد يحكمه هؤلاء . . ومحاولة إثارة الخلافات المذهبية وتحويلها إلى عنصر تفجير للواقع الإسلامي في أوضاع طائفية سياسية حاكمة . .

إن هذا الواقع يفرض علينا العمل على تحويل موسم الحج . . إلى موسم إسلامي كما أراده الله ؛ ليكون مجمعا للمسلمين يلتقي فيه المفكرون في حوار فكري إسلامي سليم ؛ ليصلوا إلى القنوات المشتركة ، أو المتقاربة ، أو ليفهموا وجهة نظر كل منهم ؛ ليعرفوا ارتكاز الجميع على أسس فكرية إسلامية ، فيما يتوصل إليه المجتهدون والمفكرون . . . ويعلموا على أساس الوصول في نهاية المطاف، بالصبر والفكر، إلى الوحدة في الفكر والأسلوب والعمل .

وفي هذا الاتجاه ، يعمل المخلصون على لقاء الحركات الإسلامية من سائر أنحاء العالم الإسلامي ، من أجل ان يتبادلوا الأفكار والخبرات ويتعارفوا فيما

يحملون من تطلعات وأهداف ، وفيما يركزون عليه من منطلقات ليكتشفوا من خلال ذلك في أنفسهم ما يختلفون فيه ، ليبحثوا كيف يحولونه إلى قناعات مشتركة ، وما يتفقون عليه ليستزيدوا منه في الجوانب الأخرى ويحولوه إلى خطوات عملية للتعاون من أجل تكامل العمل الإسلامي من جهة ، وتوحيد الطاقات الفاعلة في سبيل حل مشاكل الإسلام والمسلمين من جهة أخرى . . وليبحثوا مشاكل التحرر من الاستعمار والخروج من سيطرة الضغوط السياسية والاقتصادية ، ليتحرك الجهاد الإسلامي في حياة المسلمين من موقع الفكر الإسلامي الذي يستهدف عزة المسلمين وكرامتهم في دولة إسلامية هادفة مظفرة ، على أساس الوسائل الإسلامية المشروعة والخطط الواقعية المدروسة .

وإننا نؤكد على مثل هذه اللقاءات ، لأن الاعتماد على المراسلة والقراءة الفكرية لا تستطيع — غالباً — أن تمنح الموقف الإسلامي وضوحاً في الصورة ، بحيث تزيل الشبهات العالقة في أذهان القائمين على الحركات ضد بعضهم البعض ، التي حمدت كثيراً من فرص اللقاء على الأسس الإسلامية المشتركة .

وقد تحتاج إلى توجيه العمل إلى لقاء المسلمين ببعضهم البعض في أجواء إسلامية حميمة ، يتحادثون فيها فيما بينهم ، في كل ما يهمهم من قضايا ؛ وذلك بالزيارات الفردية والجماعية لجمعية الحاج وأماكن تجمعهم ، ليتحسسوا الشعور بالوحدة من خلال اكتشاف الموم المشتركة ولقضايا الواحدة ، والأهداف الكبيرة التي يلتقون فيها على اسم الله . . ليحقق ذلك رفضاً لكل الخطط والمشاعر، التي يعمل الكافرون من خلالها على عزل المسلمين عن بعضهم ، من خلال الشعور القومي أو الإقليمي أو غير ذلك .

. . أما قضايا الجهاد الإسلامي فإنها تستفيد من موسم الحج الكثير مما يحققه من اجتماع القيادات الواعية التي لا تستطيع أن تجتمع في مكان آخر يمارس فيه الظالمون الاضطهاد والملاحقة لكل العالمين للإسلام . . فإن

مثل هذا الاجتماع يصحح كثيراً من الانحرافات ، ويوحد كثيراً من الجهود وينظم كثيراً من الأعمال المتنوعة المبعثرة ، وهناك الكثير الكثير من المنافع والفوائد التي نستطيع أن نحققها في هذا الموسم الإسلامي الكبير . . مما يجب أن نفكر فيه ونعمل له . . ونصل إليه من أهداف .
ولكن . . هل نحن في محاولة للتنظيم المترف . . وهل يتحقق ذلك كله ؟ . . فقد يفرض السؤال نفسه علينا من خلال الواقع السلي المنحرف . . الذي يعيشه موسم الحج الآن . . كيف يتحقق ذلك كله ؟ .

تأليف : عبد الله جوادي آملي

يقول تعالى : {إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ} * فيه آيات بينات مقام إبراهيم وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ} ^١ .

صلة الآية بما سبقها :

لقد سُبِقَت الآية اكرمة الأنفة بقوله تعالى : {فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} ^٢ ثم جاء قوله تعالى : {إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ . . .} والذي يدلنا على هذا الترتيب أنَّ خطاب الآية ينصرف الى اليهود الذين كانوا يزعمون أنهم على دين إبراهيم الخليل، فجاء القرآن يحاججهم : لو أنكم على ملة إبراهيم الخليل فعلاً وحقاً، إذاً لعظمتم البناء الإبراهيمي ، واتخذتموه قبلةً ومطافاً .

شبهة اهل الكتاب :

نستفيد من ظاهر الآية ايضاً انها جاءت ناظرة لشبهة كان يُلقى بها اهل

الكتاب على المسلمين ، ومفاد الشبهة :

أولاً : لا مجال للباطل ان ينفذ الى دين ابراهيم الخليل (عليه السلام) . لذلك لا يصح القول بالنسخ الذي يذهب اليه المسلمون واتخذوا بمقتضاه الكعبة قبله بدلاً من بيت المقدس .

فبيت المقدس لا زال — في زعم اهل الكتاب — هو قبلة المسلمين التي يجب ان يتولّوها كما كانوا يتولّوها فعلاً قبل الهجرة الى المدينة ، وإنّ تحوّلهم عنه الى الكعبة بذريعة النسخ لا يعدو أن يكون ضرباً من الوهم والخيال ، لان النسخ لا يجوز في حكم الله !

ثانياً : لقد اتيتم باطلاً في قولكم : إنّ هذا السلوك هو من دين ابراهيم ؛ وفي زعمكم أنّ ابراهيم (عليه السلام) كان مسلماً وانكم مُتَّبِعُوهُ . فانتهم اذاً اجترحتهم الباطل مرتين ؛ مرّة حين قلتم بالنسخ ؛ ومرّة حين نسبتم تصرفكم في تحويل القبلة إلى ابراهيم وقتلتم انكم تبع له في ذلك !

معالجة شبهة أهل الكتاب :

إنّ اول ما يمكن ان يقال في جواب الشبهة : أنّ النسخ جائز وليس ثمة ما يدل على استحالة .

ثم أنّ الحكم الاصل للقبلة كان يختص بالكعبة ، يقول تعالى : { **إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ . . .** } فابراهيم (عليه السلام) كان قد اضطلع بمهمة بناء الكعبة ورفع قواعدها واتخاذها قبلة ومطافاً قبل أن يقوم سليمان (عليه السلام) ببناء بيت المقدس في فلسطين . لذا فإنّ رجوع المسلمين الى الكعبة قبله وترك بيت المقدس ، إنما هو عودٌ الى السيرة الابراهيمية ورجوع الى القبلة الأولى التي تولّوها ابراهيم ومن اقتفى اثره من انبياء الله .

هذه الحقيقة يحدثنا بها القرآن حين يعرض سبحانه الى سيرة ابراهيم . فابراهيم (عليه السلام) حين ترك ابنه وزوجته في ارض مكة القفرة دعا ربه : {ربنا اني اسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم . . . }^٣ ثم ابان (عليه السلام) مُرادَه من ذلك بقوله : {ربنا ليقيموا الصلاة }^٤ فالقصد اذاً هو اقامة الصلاة في اشرف بقعة من بقاع الارض ، أي ان افضل ذرية أُمرت ان تقيم الصلاة في اعظم ارض .

الموقع الإعرابي لكلمتي ((مباركاً)) و((هدى)) :

أنَّ {مباركاً} و {هدى} إما ان تكون منصوبة على الحال ، وهي متعلقة {ببكة} فيكون المعنى ؛ أنَّ البيت في حال البركة والهداية . وإمّا ان تكون ((حالاً)) للضمير ((وضع)) فيكون المعنى : ((وضع مباركاً وهدى)) أو ((للناس مباركاً وهدى)) أو {للذي ببكة مباركاً وهدى} .

وما يعيننا التأكيد عليه أنَّ جميع هذه الاحتمالات نافذة قابلة للتطبيق ، لأنَّ الكعبة منار هداية لجميع الناس ، بحيث يستطيع البشر كافة ان ينالوا قسطاً من هداية الكعبة وبركاتها.

مواقع استعمال ((الاولية)) في القرآن :

لقد استعمل القرآن الكريم مصطلح ((الاولية)) في مواطن كثيرة تدل على النسبة بيد أنَّ الاستخدام لهذه اللفظة في قوله : تعالى : {اول بيت وضع للناس} هو استعمال نفسيّ .

أما في قوله تعالى من سورة التوبة {لا تقم فيه ابداً}^٥ حكاية عن نهي النبي من الاقامة في مسجد ضرار وحثه في المقابل للاقامة في مسجد قبا حيث يصفه سبحانه بقوله : {لمسجد أسس على التقوى من أول يوم احق ان تقوم

فيه^٦ فإن استعمال {أول يوم} في الآية يكون نسبياً لا نفسياً، والمعنى : أن المسجد أُسس يوم بُني ، على التقوى .
ولقد ذكر الشيخ الطوسي (رحمه الله) عند تفسير الآية : ((أول الشيء ابتداءه ، ويجوز أن يكون المبتدأ له آخر، ويجوز أن لا يكون له آخر، لأن الواحد أول العدد، ولا نهاية لآخره ، ونعيم اهل الجنة له أول ولا آخر له ، فعلى هذا انما كان أول بيت ، لانه لم يكن قبله بيت يحج اليه))^٧ .

وقد ذهب مفسرون آخرون^٨ إلى أن الأول لا يستلزم دائماً وبالضرورة ان يكون له ثاني ، فقد يقول المرء : هذا سفري الاول الى بيت الله الحرام ، دون ان يستلزم كلامه ضرورة ان يوفق لحج البيت مرة أخرى . وعلى هذا يكون معنى الأولية هنا، أنه لم يكن قبله شيء . وعليه ؛ حين يقال أول بيت ، فلا يستلزم القول ان يكون ثمة بيت ثاني وهكذا .
وهذا الكلام لا يتعارض مع وجود بيوت أخرى للعبادة ، تكون ثانية وثالثة وهكذا ؛ من زاوية : {في بيوت اذن الله ان ترفع ويذكر فيها اسمه}^٩ بيد أن وجود هذه البيوت لا يكون في مقابل وجود الكعبة . وكلام الشيخ الطوسي وان كان صحيحاً في نفسه ، إلا ان مصداقه غير صحيح . فما يقوله من ان تنعم اهل الجنة له اول ولا آخر له لا يصح ، رغم أن لهذا النعيم أولاً . ووجه عدم الصحة ان هذه النعم بنفسها لا أول لها ولا آخر، فالجنة موجودة الآن — لا أنها تخلق بعد الدنيا — ونعمها دائمة ثابتة دون انقطاع ، خصوصاً تلك الجنة التي يقول عنها تعالى : {عندَ مليكٍ مقتدرٍ}^{١٠} .

الأولية بالذات وبالغير :

إن الأولوية بالذات تختص بالله سبحانه فـ ((هو الأول والآخر))^{١١} . وفيوضاته غير محدودة اذ ((وَكَلَّمَ مَنَّهُ قَدِيمٌ)) وهو ((دائم الفضل)) لا أول لها ولا آخر،

لكنه أول بالعرض لا بالذات فإن بدايته ترتبط بـ ((هو الاول)) ونهايته بـ ((هو الآخر)) وذلك خلافاً لذات الله تعالى التي لا أول ولا آخر لها، وإنما هو سبحانه بالذات ، الاول والآخر .

الكعبة أول معبد :

إن الآية الكريمة تدل على أن الكعبة هي أول معبد بني على سطح الأرض . أما أن تكون دلالة الآية على أن الكعبة كانت أول بيت بني للسكن ، فهو امر مستبعد ، ومثل هذا الاستنباط مخفوف بالمشكلات خصوصاً وأن الأولية مقيدة بكون الكعبة بنيت ((مسجداً)) . بيد أن ذلك لا يمنع من القول : إن مكة هي أول أرض تكوّنت من سطح اليابست بعد أن انزاح عنها الماء . أما أن تُفيد الآية أن الكعبة كانت أول بيت فالامر ينطوي على اشكال كما أشرنا.

الآ أنه علينا أن نذكر أن الآية مثلما لا تثبت فهي لا تنفي أيضاً، ومَرَدُّ ذلك أن الجملة الوصفية أو المقيّدة لا مفهوم لها — بالمعنى الاصولي — وما ال مفهوم له لا اطلاق له ايضاً. والذي نقصده بأن الجملة لا مفهوم لها، أن الجملة الوصفية واللقبية ليس بمقدورهما ان يقيّدا الدليل اذا كان مطلقاً، لا أنه بمقدورنا ان نقتنص الإطلاق منهما. وبه يتضح الفرق بين قولنا : إن الجملة لا مفهوم لها وبين كون الدليل مطلقاً. فالجملة الوصفية أو اللقبية لا مفهوم لها بمعنى لا تثبت ولا تُفيد الاطلاق ، وإنما يكون لها مفهوم في مقام التحديد وحسب لذلك اذا دلّ دليل من الخارج — من خارج الآية — أن الكعبة هي أول بيت بني على سطح الأرض ، على اساس ((دحو الارض)) فإن الآية لا تخالف ما يدل عليه مثل هذا الدليل . وإنما يصعب استظهار مثل هذا المعنى من الآية نفسها.

بناء الكعبة :

إنَّ المقصود من ((البيت)) هو خصوص الكعبة ، حيث يقول تعالى في سورة المائدة : { جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس }^{١٢} .
((قياماً)) هي مفعول ثانٍ للفعل ((جعل)) . إنَّ الله جعل الكعبة أو البيت الحرام يتصف بكونه عنصر قيام لجميع الناس .
وستتضح العلاقة بين هذه الصفة ، وبين ما رأيناه في الآية مورد البحث ، من أنَّ البيت ينطوي على سرِّ البركة والهداية للناس كافة .
وما ينبغي ان نشير اليه أنَّ البيت كانَ موجوداً قبل ابراهيم (عليه السلام) ، إلّا أنَّ عوامل كثيرة أثرت عليه من قبيل الطوفان ، فلم يبق على هيئته الاولى .

وحين قام ابراهيم (عليه السلام) بتشييد البيت ورفع قواعده ، أصبحنا منذ تلك اللحظة أمام معالم واضحة لتاريخ البيت ومساره على مرَّ العصور .

واحدة من هذه المعالم ، يحدثنا عنها ما يحكيه سبحانه على لسان إبراهيم ، في سورة إبراهيم ، حيث يقول عليه السلام : { ربنا إني اسكنت من ذريتي بوادٍ غير ذي زرع عند بيتك المحرم }^{١٣} فحين ترك الخليل زوجته هاجر وولده اسماعيل (عليهما السلام) ، في هذه الارض القفرة وهمَّ بوادعهما ، سأله هاجر : ((إلى من تدعني؟)) فاجاب : الى ربِّ هذه البنية .

لذلك يقول ابراهيم (عليه السلام) : { ربنا إني اسكنت . . . } ثمَّ بيَّن ما يقصده بما يحكيه القرآن على لسانه : { ربنا ليقموا الصلاة فاجعل افئدة من الناس تهوي اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكروا }^{١٤} لانك انت ((مقلب القلوب)). . ولقد قال ابراهيم {افئدة من الناس} وإلّا لو كان الخليل (عليه السلام) قد قال — كما يذكر الطبري في تفسير الآية — : {افئدة الناس} لحج جميع الناس سواء منهم اليهودي والنصراني واصحاب الملل الاخرى .

لم تكن مكة أرضاً مواتاً يمكن استصلاحها لتعمر بالنبات والزرع وإنما كانت أرضاً جبلية صخرية تفتقر الى الماء . لذلك عبّرت الآية في دعاء الخليل (عليه السلام) عن وادي مكة بأنّه { **غير ذي زرع** } ولم تعبّر عنه بأنّه { **لم يزرع** } اذ لو كانت الارض صالحة للزراعة ، بيد انها مهملّة بانصراف الجهد الانساني عنها، لقليل عنها { **لم تزرع** } من باب { **عدم الملكة** } أما أنّها غير صالحة للزراعة والاعمار اصلاً فقد عبر عنها بالغار { **غير ذي زرع** } .

الا أنّ الخليل (عليه السلام) العارف بقدرات الله غير المتناهية ، قال مع ذلك : { **ربنا اني اسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع** } وقد أوكل الامر اليه — سبحانه — في ان يفعل ما يشاء .

لقد تضمن هذا المقطع من الدعاء بيان المقاصد التالية :

- ١— انّ القصد الأساس هو ان يقيموا الصلاة { **ربنا ليقيموا الصلاة** } وإن كان ثمة مقاصد اخرى في السياق .
 - ٢— طلب (عليه السلام) ان يعطف قلوب وعقول شطر من الناس إليهم .
 - ٣— ثم اراد من ربّه ان يشملهم من الثمرات رزقاً { **لعلّهم يشكرون** }^{١٣} .
- لقد تكرّرت مضامين هذا الدعاء الابراهيمي في سورة البقرة ، حيث قال (عليه السلام) فيما يحكيه القرآن على لسانه : { **رب اجعل هذا بلداً آمناً** }^{١٥} .

فانبثقت بعد فترة عين زمزم بركة هذا الدعاء وباستغاثة هاجر (عليها السلام) وبصرحات اسماعيل (عليه السلام) وبكائه .وهو طفل صغير .

ولما انبثق الماء حلت الطيور حوله ، واخذت القوافل تحط رحالها عنده ، فتحولت مكة الى { **بلد** } واجيبت الدعوة .

حينما جاء ابراهيم الخليل (عليه السلام) ورأى الوادي قد تحوّل الى

بلد ، أعادَ (عليه السلام) دعاءه مع تغيير السياق : {واذ قال ابراهيم ربّ اجعل هذا البلد آمناً} ^{١٦} فقد دخلت هنا (الالف واللام) على كلمة {بلد} بينما بقي طلب {الامن} ثابتاً لكلا الحالتين .

لقد حقق سبحانه لابراهيم دعوته وحلّ الامن في مكة ، حتى تميّزت عما حولها من البلاد ، اذ يقول تعالى : {أو لم يروا انا جعلنا حرمًا آمناً ويتخطّف الناس من حولهم افيالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون} ^{١٧} .

إنّ استعمال {يتخطّف} ينطوي على دلالة عميقة في رسوخ الامن ، فالخطفة تعني انقضااض الصقر على فريسته في حال غفلتها، ومكة في امان من ذلك .

لقد استجيب دعوة ابراهيم واضحى لحرم آمناً، حتى على صعيد الحكم الفقهي ، ذلك أنّ {ومن دخله كان آمناً} ^{١٨} .
إنّ جملة {عند بيتك المحرم} تدل دلالة واضحة على أنّ للبيت وجوداً قبل ابراهيم (عليه السلام) . وانما غاية ما هناك انه تعرض لحوادث طبيعية وغير طبيعية ، جعلت البيت عرضة للهدام والخراب . حصل ذلك قبل ابراهيم وبعده أيضاً، حيث تهدمت الكعبة اثر السيول ، وفي عصر الاسلام قام الحجاج برميتها بالمنحنيق من على جبل ابي قبيس .

لذا فإنّ الصخور السوداء التي تعلو جدران الكعبة الآن ، هي ليست نفس الصخور التي كانت عليها قبل عدة قرون .
والذي يظهر أنّ الكعبة كانت في صدر البعثة النبوية ، لا يتجاوز ارتفاعها ضعف طول الانسان المتوسط . نستفيد ذلك من واقعة ارتقاء الامام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) على كتفي رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) ، حيث رمى الاصنام وقذف بها نحو الارض اثناء فتح مكة .

اما الجانب المعنوي في هذه الواقعة فله حسابه الآخر، حيث عبّر الامام

علي (عليه السلام) : أنّه حين كان على كتف رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لو رام ان ينال الثريا لناها .
ما نستفيد من هذا العرض أنّ الكعبة كانت عرضة للهدام والتخريب أكثر من مرة . وفي هذا السياق جاء الخطاب الى ابراهيم الخليل :
{واذ بوأنا لابراهيم مكان البيت} حيث تكفل سبحانه ببيان المكان ووضع التصميم الهندسي والمعماري للكعبة ، ثم كان على ابراهيم ان يضطلع بمهمة التنفيذ والبناء ، حيث جاء في تنمة الخطاب الالهي : {ألاّ تشرك بي شيئاً وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود} ^{١٩} .

بين الكعبة وبيت المقدس :

انّ لبيت المقدس قدسيته ومكانته ، إلّا اننا لا نجد في القرآن أنّ الله — سبحانه — ينسبه الى نفسه في الكيفية ، التي نتلمسها في الكعبة والتي تختص بها دون غيرها، كما في قوله تعالى : {بيتي} و {بيت الله} .

بعد ان اقام ابراهيم البيت ، جاءه الخطاب الالهي : {وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً} ^{٢٠} انّ جملة {يأتوك} هي جواب الامر، بمعنى سيأتون في المستقبل . وهؤلاء سيأتون بأي كيفية ممكنة ، فمنهم المشاة ، ومنهم من يأتي {وعلى كل ضامر} أي الهزيل من النوق وغيرها .

وبه يتضح أنّ الملبين للنداء الإبراهيمي ، منهم من يأتي مشياً ، ومنهم من يأتي راكباً على كل ضامر . أما أولئك الذين لهم القدرة ان يركبوا على غير الهزيل الضامر، فان حظهم في الاستجابة للنداء أقل من غيرهم .

وفي كل الاحوال ، فإنّ الملبين للنداء سينطلقون من كل مكان يقصدون البيت . {يأتين من كل فجٍ عميق} ^{٢١} .

يتضح من سياق الآيات أنّ ابراهيم (عليه السلام) طوى مراحل متعدّدة

بأمر الله تعالى . فبادئ الامر تعرف على ارض مكة ، ثم ترك فيها زوجته وولده ، وطلب من ربه ان تكون لهما بلدة آمنة .
وحين عاد اليها مجدداً رآها وقد آلت الى ان تكون ((بلدة)) فكرر دعوته في ان يجعلها آمناً وأماناً. ثم جاءه الخطاب بتشديد قواعد البيت ، وفي الاثناء توجه الى ربه بدعائه : {تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} ^{٢٢} .

وحين بُنيت الكعبة وصفها تعالى بقوله : {جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِلنَّاسِ} ^{٢٣} ولم يقتصر الامر على الكعبة وحدها في ان تكون حراماً، وعنصر قيام للناس ، وانما اتسع المكان ليشمل الحرام ، وامتد الزمان ليستوعب الشهر الذي يتم فيه الحج ، فكل ذلك ، وما يتخذ الناس من الهدي والقلائد اصبح شعاراً وقياماً للناس . {وَالشَّهْرُ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ} ^{٢٤} لقد ذكر الطبري في تفسيره للآية ، أن البيت كان قواماً للناس في الجاهلية ، حتى وهم لا يرجون جنة ولا يخافون ناراً، فشدد الله ذلك بالاسلام . ثم اضاف : ((كان الرجل لو جرّ كل حريرة ، ثم لجأ الى الحرم لم يتناول ولم يُقرب . وكان الرجل لو لقي قاتل ابيه في الشهر الحرام لم يعرض له ولم يقربه)) .
بل زاد الامر على ذلك بعدم التعرض للحيوان اذا قُلد بقلادة ، اذ يصبح في امان حتى وهو يأكل من علف غير صاحبه .
وبشكل عام ، كانت معالم الامن ظواهر واضحة ، يمكن تلمسها والاحساس بها لزوار البيت الحرام .

القبلة الى البيت المقدس :

ليس ثمة شك ، أن بيت المقدس اضحى قبلة من عصر سليمان (عليه السلام) فما بعد، فسليمان هو الذي وضع تصميم بيت المقدس وقام
ببنائه .

لقد كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ، حين كان في مكة ، يتوجه على خطٍ واحد الى الكعبة وبيت المقدس ، حيث كان يقف في كيفية تجمع بين القبلتين .
ومثل هذا الجمع كان سهلاً في مكة ؛ لأنَّ بيت المقدس يقع في شمال غربي الكعبة ، ورسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقف في جنوب الكعبة فيكون بمقدوره ان يجمع القبلتين على خطٍ واحد .
اما في المدينة فقد اختلف الامر تماماً، لذلك كان يقصد بيت المقدس قبله حين الصلاة بعد ان تعذّر الجمع بينه وبين الكعبة ، بل كانت الكعبة تقع الى وراء ظهره .
بيد ان الحال لم يدم ، حيث تم تحويل القبلة الى الكعبة ورسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) واقف يصلي في مسجد القبلتين ، فاستدار وهو في الصلاة نحو الكعبة .

المسجد الحرام والمسجد الاقصى :

جمعت الآية الكريمة من سورة الاسراء بين المسجد الحرام والمسجد الاقصى ، حيث يقول تعالى : **{سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى الذي باركنا حوله} ٢٥** .
إن عوامل الارض والمناخ والماء ساهمت جميعاً في إعطاء مزايا لأطراف المسجد الاقصى ، كانت سبباً في كثرة النعم والخيرات . ومع ذلك فقد قُدِّر لمكة أن تنعم بكل هذه الثمرات والخيرات أو أكثر، رغم أرضها ومائها ومناخها. والسر في وفور الخيرات والثمرات دائماً في مكة هي دعوة الخليل المستجابة {وارزقهم من الثمرات} .

الفوارق بين الكعبة والمسجد الاقصى :

لقد اضطلع بمسؤولية بناء الكعبة ابراهيم الخليل وهو (عليه السلام) من أولي العزم . بينما اضطلع سليمان (عليه السلام) ببناء بيت المقدس ، وهو ليس من أولي العزم ، وانما من الحفاظ الشرائع اولي العزم .
بيد انّ هذا الفارق ليس هو الوحيد بين الكعبة والمسجد الاقصى ، وانما ثمة فارق آخر يتمثل بالوعد الإلهي ، بحماية الكعبة وحراستها من الأعداء ؛ هذا الوعد الإلهي تحوّل الى سيرة عملية ، في حين لا نجد ما يناظر هذا الوعد بالنسبة لبيت المقدس .
فلو أراد أحد ان يتعرض للكعبة لعرض للاستئصال ، كما حماها سبحانه بطير ابايل وصالحا بمعجزات اخرى . أما عملياً فلا نجد مثل هذا الوعد بالنسبة لبيت المقدس ، اذ استطاع ((نحّت نصر)) ان يهدم بيت المقدس تماماً، إلّا أنّه لم يتعرض لما تعرض اليه ابرهة الحبشي .

بناء الكعبة لمنفعة الناس :

ما نستفيده من ظاهر الآية الشريفة — مدار البحث — انّ اول بيت وضع لعبادة الناس كان في مكة ، وقد وضع لينتفع منه الناس ، حيث يقول تعالى : **{وضع للناس}** وان كان التعبير في مورد التكليف بالحج جاء قريناً بحرف الجر ((على)) حيث يقول تعالى : **{لله على الناس}** الاّ اننا سنوضح انّ العبادة والتكليف لا يمكن أن يكونا ضدّ الناس ابداً، بل هما لصالحهم دائماً .
لذلك تجد اهل السلوك يعبرون عن التكليف بالتشريف . فالرجل حين يبلغ السادسة عشرة من عمره والمرأة حين تبلغ العاشرة يعبرون عنهما انهما قد بلغا سنّ التشريف (ويعنون به التكليف) واصبحا اهلاً للخطاب الالهي ، في حين

لم يكونوا قبل ذلك اهلاً لتلقي ما ينطوي عليه الخطاب من أحكام نظير قوله تعالى : {وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة} ^{٢٦} .

وعن الاحكام الإلهية عموماً بما تنطوي عليه من تكليف يقول تعالى : {ذلكم خير لكم} ^{٢٧} . وانطلاقاً من هذه الزاوية بالذات عبّر عن العبادة بـ ((اللام)) .

معبد الانبياء :

ظاهر ما عليه الآية من الاطلاق انّ البيت الحرام والكعبة المشرفة كانا اول معبد في تاريخ البشر، بحيث لم يكن لني قبلة غير الكعبة . هذا الاستنتاج نستطيع ان نؤيده من آيات في سورة ((مريم)) . ففي هذه السورة نقرأ عن المسيح : {وجعلني مباركاً أينما كنت} ^{٢٨} . وذلك علاوة على ما في سورة من وصايا لانبياء آخرين ، حيث يقول — تعالى — بعد ان ذكر عدداً من الأنبياء : {أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل وممن هدينا واجتبينا إذا تلى عليهم آيات الرحمن خرّوا سُجداً وبكياً} ^{٢٩} .

فمسار الانبياء (عليهم السلام) من آدم حتى نوح ، ومن نوح حتى إبراهيم ، وما بين هؤلاء الأنبياء ومن ذراريهم بمدحهم الله بقوله : {إذا تلى عليهم آيات الرحمن خرّوا سُجداً} ومن الواضح أنّ السجود يستلزم وجود الجهة ، سواء أكان المعني السجود بنفسه أو السجود في اطار الصلاة ، حيث تقام الصلاة لقبلة بعينها . على انّ الراجح هو قيامهم بالصلاة ، كما تؤيد ذلك الآية التي تليها، حيث يقول تعالى : {فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلوة واتباعوا الشهوات فسوف يلقون غياً} ^{٣٠} .

يتضح مما تقدم انّ الانبياء كانوا من اهل الصلاة ، وإنّ الصلاة والسجود

يستلزمان جهةً وقبلة .

وفي مسألة القبلة إما أن نستند إلى قوله — تعالى — فنقول : {فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ} ^{٣١} وهو قول بعيد . وإما أن نقول بجهة خاصة كانت قبلة لهم .

وما نستفيده من ظاهر الآية في إطلاقها، أنَّ الكعبة كانت قبلة الصلاة والسجود لجميع أنبياء الله من آدم حتى النبي الخاتم (عليهم السلام) . أما احتمال غير الكعبة قبلة لهم ، فهو مما لا يتسق مع ما عليه الآية من إطلاق .

لماذا سميت مكة ببكة؟

قال تعالى : {لِلَّذِي بُيِّكَةُ} وقد قيل : إنَّ المقصود بـ ((بك)) هو مكة ، إذ تبديل الميم الى الباء يحدث أحياناً نظير ((لازب ولازم)) . بيد أنَّ تعليل ذلك لا يكون بالتبديل ، وإنما : ((لأنَّ الناس يُبِّكُ بعضهم بعضاً)) ^{٣٢} اثر الازدحام والكثرة عند اجتماع الناس فيها . و((بك)) تأتي بمعنى التحطيم ، فهي بكة لأنها تبك اعناق الجابرة والبيغة اذا بغوا فيها، فتدفعهم .

معنى مباركاً :

يقول تعالى في وصف بيته الذي بمكة : {مَبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ} . والمعنى أنَّ البيت منشأ الوفير من البركات ، وهو وسيلة هداية للناس . وتطلق ((البركة)) على المال والشيء الثابت ، فما له ثبات ودوام فهو مبارك . من هنا اطلق على تجمعات الماء في الصحراء انها ((بركة)) لما تتسم به من ثبات ، ولا لها تحفظ الماء من المذر فيدوم . وبتعبير الشيخ الطوسي فإنَّ الصدر يسمى ((برك)) ؛ لأنه المكان الذي تحفظ فيه العلوم والاسرار والافكار وتثبت . وكذا يقال ((برك)) لَوَبَر البعير من جهة

صدره .

وذات الله مباركة لجهة ثبات خيرها ودوامها .

اما بالنسبة للبيت فلانه ينعم بالخير والثبات اكثر من الاماكن الاخرى فهو يكون ((مباركاً)) ؛ أي وفيه الخيرات دائماً. اماكون الكعبة وسيلة هداية للناس كافة ، فمرد ذلك إلى أن جميع العباد والسالكين يقصدونها؛ ومنها صدعت دعوة الحق الى البشرية جمعاء ؛ اذ منها انطلق نداء نبينا (صلى الله عليه وآله وسلم) : ((لا اله الا الله)) الى ارجاء الدنيا، ومنها سيبلى نداء خاتم الاوصياء المهدي (عليه السلام) اسماع البشرية في اليوم الموعود .

فهي اذاً محضن الحق ، تتوفر على وسائل كثيرة اخرى لهداية الناس .

وفي مكة آيات لله لا تحصى . { في آيات بينات } .

مقام ابراهيم :

يقول تعالى : {مقام ابراهيم} لقد ذهب البعض للقول : ان ابراهيم (عليه السلام) كما ((كان امة واحدة)) فان مقامه ايضاً بمرتبة ((آيات بينات)) ؛ أي ان المقام في آثار اقدم الخليل (عليه السلام) وفي المعجزات ، حتى اضحى المقام بمرتبة ((امة واحدة)) في باب الاعجاز، كما هو شأن الخليل نفسه .

والسؤال : كيف اضحى ((مقام ابراهيم)) آيات بينات بصيغة الجمع ، في حين ان السياق يقتضي التعبير بالمفرد ، فيقال : آية بينة ؟

ثم في الجواب عدة احتمالات ، نشير للاول منها من خلال ما يلي :

أولاً : لقد تحول الصخر الصلب الى عجين لين ، وذلك في حد ذاته آية ومعجزة .

ثانياً : ثم مكان محدد من الصخرة هو الذي لان دون البقية .

ثالثاً : ان لين الصخرة حصل لعمق وبشكل معين ثم عادت الصخرة

— فيما عدا ذلك — لصلاقتها .

رابعاً : لقد بذل الاعداء جهوداً محمومة لحو هذا الاثر، بيد أنه بقي يتناول على الزمان محفوظاً من عبث الطغاة .

خامساً : ثمة قوى مولعة بخطط ما يقع بيديها من آثار قديمة في بلاد المسلمين تتسم بطابع فني، أو تحمل خصائص مقدسة ، ومع ذلك بقي هذا الاثر دون ان تغلج هذه القوى بنقله إلى خارج العالم الاسلامي .

كيف تشكّل الاثر في مقام ابراهيم ؟

هل تشكّل الاثر في مقام ابراهيم حين وقف (عليه السلام) على المكان — الصخرة — اثناء بناء الكعبة؟ أو ان الآية حصلت حين عاد ابراهيم للمرة الثانية فطلبت منه زوجة ولده اسماعيل ان يتزل لتغسل له (رأسه أو رجله) الا أنه لم يتزل وانما وضع قدمه على الصخرة فتركت هذا الاثر؟ أو الاثر انطبع على الصخر حين اعتلاه الخليل ليؤذن في الحج امتثالاً لامر الله تعالى : **{واذن في الناس بالحج ياتوك**

رجالاً} ٣٣

يمكن ان يكون الاثر قد حصل في جميع هذه الحالات ، أو في احداها .

فجميع هذه الوجوه محتمل الوقوع . بيد ان ما يهمنا التأكيد عليه هو أن الخليل (عليه السلام) وضع قدميه على الصخرة فانطبعت آثارهما، وبقيت الآثار حتى اللحظة . أما في أي حالة من الحالات آتفة الذكر تم ذلك ، فالامر مناط للروايات الخاصة التي تتكفل اضاءة المسألة وبيانها.

ان هذه الخصيصة التي حصلت لإبراهيم (عليه السلام) ، حيث يحدثنا (سبحانه) في سورة سبأ ، بقوله تعالى : **{وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِّنَّا**

فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ} ٣٤ . ليس هذا وحده ، وانما علّم داود صناعة الدروع ، حيث يقول

تعالى : {وَعَلَّمْنَاهُ صِنْعَةَ لِبُوسٍ} ^{٣٥} لقد كان الحديد البارد الصلد يلين بين يدي داود (عليه السلام) .

وما ينبغي الانتباه اليه انّ القرآن استعمل {أَلْتَأْتِي} في مسألة الحديد ، في حين استعمل {عَلَّمْنَاهُ} في صناعة الدروع . والسر انّ صناعة الدروع هي جزء من العلوم الحرفية الصناعية التي يمكن تعلّمها واكتساب المهارة فيها، وبالتالي يمكن انتقالها الى الآخرين . أما إلانة الحديد فهي ليست مسألة مهنية تدخل في اطار العلم والتعلّم ، وَ بالتالي لا يمكن ان تنتقل الى الآخرين ، ولذلك لم يعبر عنها بـ ((وعلمناه إلانة الحديد)) .

قد يقال : إنّ من الممكن إلانة الحديد عبر تذويبه في صهاريج الفولاذ ، الاّ أنّ الآية لا تتحدث عن هذا النمط من الإلانة والتذويب الذي يقع في مجال العلم ، وانما تتحدث عن فعل اعجازي ، حيث كان داود (عليه السلام) يمسك الحديد الصلب بين يديه ويشكّله كيفما شاء ، تماماً كما يمسك الانسان العادي الشمع بين يديه ويعيد تشكيله بما يشاء .

ومقام ابراهيم (عليه السلام) هو من هذا القبيل ، مع فارق بين الاثنين حيث لانّ الحديد لداود ، والصخر لابراهيم ، والتقدير ((والنا له الحجر)) .

لقد اضحى الصخر ليناً ناعماً بين قدمي الخليل ، حتى ترك اثرهما عليه ، مُضافاً لذلك انّ الصخر أضحى بمثابة ((المحفظة)) لقدم الخليل (عليه السلام) كما الحديد بالنسبة لداود (عليه السلام) .

والآن عودة الى بدء . فقد انطلقنا من السؤال التالي : كيف يكون مقام ابراهيم لوحده — بصيغة المفرد — دالة على {آيات بينات} وهي بصيغة الجمع ؟

ذكرنا حتى الآن احد احتمالين — حيث لا حظنا انه هناك عدد من الآيات المعجزة في المقام يشكل مجموعها : آيات بينات — والاحتمال الاول هذا ذهب اليه الزمخشري .

أما الاحتمال الثاني ففحواه أنَّ {آيات بينات} تنطوي على عددٍ كبير — من الآيات والمعجزات — أحداها {مقام إبراهيم} ، وثانيتها : {وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا} .

الأمنان التكويني والتشريعي لبيت الله الحرام :

إنَّ للكعبة أمناً تكوينياً، إذ دأب الكثير من الطغاة على التعرض للبيت في محاولة للقضاء عليه ، ولا لحاق الاذى بأهل مكة ، إلا أنَّ الله سبحانه حفظ البيت وجعله في أمان . يقول تعالى : {الَّذِي اطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ} ^{٣٦} . ويوم لم يكن ثمة اثر للتشريع والاحكام ، كان اهل مكة وهم مشركون يتمتعون بأمن خاص . ثم هناك الامن التشريعي ، ومؤداه : {مَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا} بل أنَّ الطبري نقل في تفسيره للآية (٩٧) من سورة آل عمران ، أنَّ المجرم الجاني كان في الجاهلية اذا لجأ الى الكعبة لا يتعرض له احد بسوء . وهنا لا نحتاج للتكلف فنحضر {آيات بينات} في خصوص ((مقام ابراهيم)) أو خصوص ما للبيت من أمن إلهي يجعل . فبئر ((زمزم)) و((حجر اسماعيل)) و((الحجر الاسود)) هي أيضاً آيات بينات .

بل أنَّ البيت بنفسه هو معجزة وآية بينة ، بدليل ما حلَّ بأصحاب الفيل الذين همَّوا بهدم الكعبة ، فواجههم (سبحانه) بجيوش الهيَّة ، كما تحكي لنا ذلك سورة الفيل : {الَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ . . . ؛ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ} . إذاً ، ليس ثمة ما يدعونا للقول : أنَّ ((مقام ابراهيم)) هو وحده بيان لآيات بينات ، وانما خُص بالذكر من باب ذكر الخاص بعد العام .

يقول تعالى في سورة البقرة : {وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا

بيتي

لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ^{٣٧} . لقد ذُكر في بحث مفصّل أنّ ((البيت)) مرجع للناس كافة وملاذ لهم ، وهو محاط بأمن تكوييني وأمن تشريعي . فاذا أراد أحد التعرّض للبيت بهدف الهدم والإفناء فإنّ الله (سبحانه) يكون بالمرصاد .

أما الأمن التشريعي فمن مصاديقه ، أنّ الإنسان اذا كان عليه حد ولجأ الى الحرم ، أمن إقامة الحدود عليه طالما مكث بالحرم ؛ إلا أن لا يراعي حرمة البيت ، فحينئذٍ يشمل القصاص . يقول تعالى : **{والحرمات قصاص}**^{٣٨} . بمعنى أنّ الإنسان اذا تعرض لحرمة الكعبة والمسجد الحرام وعموم الحرم والشهر الحرام ، فسيتزع عن نفسه الامان ، ويكون عرضة للقصاص والحد .

فاذا اجترح الانسان جناية في الحرم اقيم عليه الحد حتى وهو داخله . اما اذا ارتكب الجناية خارج الحرم ولجأ اليه أمن الحد وامهل حتى يخرج منه . ولكن يضغظ عليه حتى يلجأ إلى خارجه ؛ فلا يتنازع منه ولا يُطعم ولا يُحسن اليه .

ثمّة غير الآية التي تتحدّث عنها، آية اخرى تشير الى ما يتحلّى به الحرم من أمن ، حيث يقول — تعالى — في سورة العنكبوت : **{أو لم يروا أنّا جعلنا حرمًا آمنًا ويتخطّف الناس من حوله ، أفيالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون}**^{٣٩} .

والسر أنّ ما من أحد يتعرض الى البيت بقصد الإفناء ، ولاهله بقصد الاستئصال ، إلا وكان الله له بالمرصاد ، فيذيقه العقاب بلا امهال : **{ومن يرد فيه بالحاد بظلم نذقه من عذابٍ أليم}**^{٤٠} .

ثمّة رواية ينقلها المرحوم ابن بابويه في كتاب ((من لا يحضره الفقيه)) مؤدّاها : اذا كان البيت يتحلّى بجرمة خاصة ، واذا كان (سبحانه) قد أرسل {طيرًا ابابيل} على جيش ابرهة حين قصد الكعبة ؛ فلماذا لم تشمل الحماية الالهية ابن الزبير حين تحصّن داخل الكعبة ، حيث قام الحجاج بن يوسف

برمي الكعبة بالمنجنيق من على جبل ابي قبيس — بأمر من عبدالملك — فهُدِّمت الكعبة وأُعتقل ثم قتل؟
ذكر ((الصدوق)) في الجواب : ان حرمة الكعبة انما تكون لحرمة الدين وحفظه وصيانته . وحافظ الدين وحارسه في زمان حضور الامام المعصوم ، هو الإمام نفسه ، وفي زمن غيبته يضطلع بالمهمة نوابه .
ثم نقل عن الامام (الذي يبدو هو الامام السجاد عليه السلام) أنَّ الزبير لم ينصر امام زمانه سيّد الشهداء الحسين (عليه السلام) حتى استشهد مظلوماً، وحينما آلت الامامة الى الامام الذي يليه (الامام السجاد عليه السلام) لم ينصره ولم يدع اليه . لذلك لم ينصره الله ولم يدفع عنه حتى وهو يلوذ بالكعبة ويلجأ الى داخل البيت ، كما حصل في جيش ابرهة حيث ارسل (سبحانه) {طيراً ابابيل} في حين لم يحصل الشيء نفسه حين رمى الحجاج الكعبة بالمنجنيق .
لذلك انتهى الامر باعتقال الامويين لابن الزبير — وهو رجل فاسد — فقتلوه ثم اعادوا بناء الكعبة دون مشكلة تُذكر. أما بالنسبة لابرهة فالامر يختلف تماماً، اذ كان هدفه افناء الكعبة وتحويل قبلة الناس الى جهة اخرى ، لذلك لم يمهله سبحانه .
بمعنى آخر، ان تصرف الحجاج بن يوسف لم يشكل نقصاً للآية {من يرد فيه بالحاد يظلم نذقه من عذاب أليم} ولا يتعارض معها. ولا زال الامر يشكل حالة مطّردة ، فلو افترضنا أنَّ هذه الديار تتحوّل الى ديار ظلم ، فالله (سبحانه) لا يتدخل لقمع الظالم واستئصال الظلم ان لم يكن أهل الديار على الصراط المستقيم ؛ وانما يمكن ان نفسّر امثال هذه الوقائع على اساس : {تُوَلَّى بعض الظالمين بعضاً} ^{٤١} — أي أنَّ الوقائع تتحرك على مسار قانون آخر — .
انَّ الفكرة المحورية التي ينبغي ان ننتبه اليها، هي أنَّ على المسلمين ان

ينهضوا بتكليفهم ، ويضطلعوا بواجباتهم ، ثم ينتظروا الوعيد الالهي : {من يرد فيه بالحد بظلم ندقه من عذاب اليم} .

نسبة ((البيت)) الى الله والناس .

ثمة في مطلع الآية — مورد البحث — ما يؤكد الفكرة التي نبحثها، ويدل عليها، حيث يقول تعالى : {أَنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ . . .}

لقد نسب الله (سبحانه) البيت الى ذاته المقدسة كما نسيه الى الناس ، ولكن مع فارقين احدهما أدبي والآخر معنوي . أما الأدبي فيتجلى في نسبة البيت اليه (سبحانه) من دون ((لام)) حيث قال : {أَنَّ طَهْرًا بَيْتِي} أما حين النسبة الى الناس فقد دخلت ((اللام)) حيث قال سبحانه : { . . . وَضِعَ لِلنَّاسِ } . والمعنى المراد : أَنَّ الكعبة هي بيت الله ، وليست بيتاً للناس ، بيد انها وضعت للناس ومن أجلهم . أما الفارق المعنوي فهو يتجلى في أنَّ اضافة البيت الى الله (سبحانه) هي التي منحته الشرف والرفعة . وذلك على عكس الحالة الثانية ، اذ اكتسب الناس الشرف والرفعة باضافتهم الى البيت .

فشرافة ((البيت)) من نسبته لله تعالى ؛ وشرافة الناس من نسبتهم الى البيت .

قوله تعالى : {وَضِعَ لِلنَّاسِ} الوضع هنا تشريعي ، والمقصود : أنَّ البيت معبد وقبلة ومطاف للناس ؛ جميع الناس دون ان يكون ممن اختصاص فئة دون اخرى . والطريف الذي يلاحظ أنَّ التعبير جاء بصيغة ((وضع للناس))

لا بصيغة ((بني)) للناس .

الكعبة هي القبلة لوحدها :

لنفترض أنَّ الآية الكريمة أشارت الى الارض التي تحيط بالكعبة ، فمع هذا الافتراض ، تكون الاشارة من باب أنَّ هذه المساحة تشكل منطقة الحرم . أما ما هو مهم ، فهو البناء الخاص ؛ أي الكعبة .

وما يقال — على سبيل التقرير — من أنَّ الكعبة قبلة ، فذلك في مقابل مَنْ ذهب للقول : أنَّ الكعبة قبلة للقريب ؛ ولا هل مكة يكون المسجد الحرام قبلة ، أما البعيد فقبلته الحرم المكي برمته ^{٤٢} .

فهذا الرأي خطأ؛ والصواب أنَّ الكعبة هي قبلة الجميع سواء منهم القريب والبعيد . والفارق الذي يقال انما يصدق على جهة الاستقبال .

لقد حث الاسلام النبي والآخرين ، على ان يقولوا في كلِّ الحالات : ((والكعبة قبلتي)) ^{٤٣} حتى اوضحت هذه الجملة ذكراً يردده الجميع . أنَّ لجميع الاموات والاحياء شأناً مع الكعبة ، فالخضر يستقبلها، والميت يدفن باتجاهها . بيد أنَّه ليس لاحدٍ من هؤلاء شأنٌ مع مسجد الحرام أو الحرم بنفسهما. اما قوله تعالى : { **شطر المسجد الحرام** } ^{٤٤} فهو من جهة : { **فلنولينك قبلة ترضيها** } ^{٤٥} فالقبلة المتمثلة بالكعبة هي المقصد .

ثم إنَّ الذي يولي وجهه شطر المسجد الحرام حتى يكون قد اتجه إلى الكعبة ؛ فالاختلاف اذاً في جهة الاستقبال لا في القبلة نفسها. فالقريب يتوجه نحو البيت ويستقبل بوجهه ((حرم الكعبة)) . أما البعيد فهو يولي نحو الحرم ، الاَّ انه يتوجه الى الكعبة .

وبالنسبة لقوله تعالى : { **وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره** }^{٤٦} فإنَّ المقصود هو استقبال المسجد الحرام، لا اتخاذه قبلة . فالمسجد الحرام ليس قبلة بنفسه ، ولا الحرم المكي ، وإنما تقتصر القبلة على الكعبة نفسها كما أثبت ذلك المضطلعون بالدراسات الإسلامية (الفهية) . ومن طريف ما يمكن ان يشير اليه هنا، ما ذهب اليه بعض الأكابر من العلماء من أنَّ الكعبة بنفسها ليست قبلة ايضاً؛ بل القبلة ماثلة في حيّز الفضاء الخاص الذي تشغله . ورحم الله استاذنا المحقق الداماد الذي كان يكرّر هذه الجملة بدأب : ليست الكعبة هي القبلة ، اذ يمكن لهذه ((البنية)) ان تنهدم أو تنهار في يوم من الايام اثر سيل أو غيره ؛ فهل يبقى المسلمون يومئذٍ دون قبلة !

لذلك قالوا : إنَّ القبلة هي ليست هذه البناية والجدران المضلعة ، بل هي الفضاء الخاص الممتد ((من تخوم الأرض الى عنان السماء))^{٤٧} . واستدلوا على ذلك بأن المصلي اذا صلى في مكان منخفض أو مرتفع عن مستوى سطح الكعبة وبنائها، فهو يتوجه في الحالتين الى الفضاء الممتد من تخوم الارض الى عنان السماء ، وكون هذا الفضاء قبلة لا يطرأ عليه أي تغيير أو تبديل .

ومن الطريف ان نختم هذه الفقرة بكلمات للفخر الرازي في فضل الكعبة وشرفها انتقلت من بعده الى كتب الآخرين ؛ حيث قال : ((ليس في العالم بناء أشرف من الكعبة ، فالأمر هو الملك الجليل ؛ والمهندس هو جبريل ؛ والباقي هو الخليل ؛ والتلميذ اسماعيل (عليهم السلام)^{٤٨} وكفى بذلك فضلاً وشرفاً)) .

بيد انّ مثل هذا الشرف والفضيلة لم يشبها لبیت المقدس .

مصاديق ((آيات بينات)) :

ثمّة آيات بينات في هذه الديار المقدسة ، هي مجموعها دلالة واضحة

على الغيب . ان الآية معناها العلامة ، وهي بالاصطلاح القرآني علامة صدق الانبياء ، فيما يدعون اليه من ربوبية الخالق وعبودية المخلوق .
لقد توفر الفخر الرازي في تفسيره على ذكر علامات (آيات) كثيرة تدل على خصوصية الكعبة وكيفية بنائها^{٤٩} ، وهي تتحرك اجمالاً في نطاق هذا المحور ، وفيما يلي نستعرض بعض هذه الآيات — العلامات — :

١ — انبثاق زمزم ودوام فوران مائها :

ثمّة الكثير من الآيات البينات في خصوص بئر زمزم ، فماؤها شفاء ، وهو لا يفسد حتى لو طالعت عليه المدة . ثم ان بئراً يبقى ماؤها يفور منذ آلاف السنين ، في ارض تفتقر الى الأمطار الغزيرة ولا تكاد تسقط فيها الثلوج الا نزرّاً ، هو بمحدّ ذاته معجزة وآية معجزة وآية من الآيات الالهية البينة .

أما لو كانت هذه البئر في ارض تغزر فيها الامطار ويتكاثر سقوط الثلوج ، لأمكن تفسير دوام انبثاق مائها على اساس : {فسلكه ينابيع في الأرض} .^{٥٠}

ثم ان في مائها بركة خاصة ، كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يطلبه هدية من القادمين من مكة .
وبئر هذا منبثقها ؛ وهذا دوام فوران مائها، وفي مائها البركة والشفاء ، بحيث لا يفسد ماؤها ولا يُصاب بالعفن ، فهي حقاً محفوفة بالمعجزات ، بل إن ماءها وحده هو تجلي لـ ((آيات بينات)) .

٢ — المشعر الحرام .

في أطراف مكة (المشعر الحرام ، عرفات ، ومنى) علامات تتجلى فيها آيات بينات . فرغم ان تلك المنطقة بعيدة عن مدار السيل ، إلا أنه يكثر فيها الحصى واجزاء الصخر المفتت الى قطع صغيرة ، كذلك التي تتركها السيول حين تدهم منطقة صخرية جبلية .

فالحصى هناك كثير، ويكفي ان تتصوّر كثرته بما يحمله كل حاج بمفرده ، اذ يحتاج كحدٍ وسط أو أدنى الى سبعين حصاة ؛ ومع ذلك لا زال الحصى وفيراً لم ينفذ، وفي ذلك وحده معجزة . يقول الفخر الرازي في تفسيره الكبير: ((وقد يبلغ من يرمى في كل سنة ستمئة ألف إنسان — كل واحد منهم — سبعين حصاة ، ثم لا يرى هناك إلا ما لو اجتمع في سنة واحدة لكان غير كثير^{٥١} . وقد يقال الآن : انّ المسؤولين في الحجاز هم الذين يتولون عملية رفع الحصى المجتمع وتسطيع الارض مجدداً، ولكن ماذا بالنسبة لذلك الزمان ؟ .

٣ — رعاية الحيوان حرمة الكعبة :

تسعى الطيور ان لا تحط في أعلى الكعبة كي لا يتلوّث المكان بفضلائها ؛ واذا كانت في حالة انحدار من الأعلى نحو الارض ، فانها تبعد عن الكعبة بزواية معينة . وفي ذلك وحده علامة على آية بيّنة .

و ما ينبغي ان نشير اليه ، انّ عدم تلويث الطيور للمشاهد المشرفة والعتبات المقدسة ، هو ظاهرة مشهودة أيضاً، وان كان الأمر يختلف بالنسبة الى الكعبة في تلك الزاوية التي ينحدر بها الطير بعيداً عن الكعبة .

لقد تحدّثوا بمثل هذه الكرامة لحرم الامام امير المؤمنين (عليه السلام) فقالوا : انّ الطير تراعي هذا الأدب من باب : ((ينحدر عني السيل

ولا يرقى اليّ الطير))^{٥٢}

وقالوا عن الحرم المكي أيضاً : انّ الوحوش لا تعتدي على بعضها البعض وهي في الحرم ، ولا تلحق الاذى بالحيوانات الأليفة .

وما نخلص إليه : ان ثمة الكثير من الشواهد الظنية التي تُفيد ان هذه المنطقة ليست عادية ، فالحيوان فيها آمن ، والانسان يتحلّى بأمن

نسي ملحوظ {الذي اطعمهم من جوع وآمنهم من خوف}^{٥٣} في حين كان من حولهم { . . . } ويتخطّف الناس من حولهم ، أقبالباطل

يؤمنون وبنعمة الله

يكفرون^{٥٤} .

٤— مقام ابراهيم :

يحتل مقام ابراهيم (عليه السلام) موقعاً خاصاً في صلاة الحاج وطوافه ، كما ينص على ذلك القرآن . وللمقام حرمة خاصة كونه مصداقاً للآيات البينات .

يقول تعالى : {واذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى ، وعهدنا الى ابراهيم واسماعيل ان طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود}^{٥٥} . هل تجب الصلاة خلف المقام مباشرة أم أمّا تكفي عند المقام ؟ ثمة اقوال انتهى اليها البحث الفقهي وفق اختلاف المدرك (الرواية) ، اذ احتاط بعضهم فذهب الى وجوب الصلاة خلف المقام مباشرة ؛ فيما عدّ البعض الآخر الصلاة عند المقام كافية .

لقد تحدثنا في فقرات البحث السابقة ، عن كيفية كون مقام ابراهيم معجزة ، وشرنا الى ما يتصل بذلك من حديث ، فلا نُعيد .

تقابل ((اللام)) و ((على)) :

يقول تعالى : {ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلاً} انّ {على الناس} في الآية هي في حقيقتها {للناس} أي : لنفع الناس وفائدتهم ، لا لضررهم وعليهم . كما انّ ((اللام)) في {لله} لا تفيد معنى النفع والاستفادة ، وانما معناها : انّ هذا الامر هو من قبل الله ومن جهته الى الناس .

فالتكليف الإلهي يقتدر دائماً بالخير، نظير قوله تعالى : {كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم}^{٥٦} وإذا كان الشيء خيراً فلا يكون بضرر أحد .

لذلك نخلص إلى أنَّ ((اللام)) و((على)) حين يكونان في مقابل بعضهما البعض ، فإنَّ التقابل علامة على أنَّ الامر أو الشيء يكون حكماً من أحد الطرفين ، وجعلاً وواجباً على الطرف الثاني ، ولا يمكن ان يدل (التقابل) على الضرر .
فضيلة الحج على سائر العبادات :

لا يبدو من ظاهر آيات القرآن الكريم ، أنَّ ثمة عبادة غير الحج جاءت في صيغة {لله على الناس} اذ لم نجد نظير هذا الاسلوب في عبادة مثل الصلاة والزكاة ، وبالتالي لا يقال ((لله على الناس اقامة الصلاة)) أو ((لله على الناس إيتاء الزكاة)) .
وهذا التمييز يُعدّ في حدّ ذاته علامة على خصوصية فريضة الحج وما تنطوي عليه من عظمة من بين سائر العبادات .
فعن الصلاة جاءنا الخطاب القرآني بصيغة {وأقيموا الصلوة} ^{٥٧} أما الحج فتميّز وانفرد بصيغة : {لله على الناس . . .} .
(الحج) لغة .

الحج مصدر ، وقد ذهب البعض الى أنّه اسم مصدر ، ومعناه قصد بيت الله الحرام .
انَّ ((حج البيت)) هو عبادة مألوفة منذ عصور قديمة ؛ وبالذات منذ عصر الخليل ابراهيم (عليه السلام) . وقد اعتادوا أن يعدّوا السنين بالحج ، وفي ذلك يقول نبيُّ الله شعيب لموسى الكليم (عليهما السلام) : {قال إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ثماني حجج} ^{٥٨} .

ويقال في لغة الشهور ((ذو الحجة)) لوقوع ((حج البيت)) في هذا الشهر ،

ويعبر أربع حجج بدلاً من أربع سنوات وهكذا .

هناك في الآية : {لله على الناس حج البيت . . . } الكثير مما ينبغي التأكيد عليه ؛ من نظير:

- ١— يتضح من ظاهر آيات القرآن أنَّ الحج هو العبادة الوحيدة ، التي عُبرَ عنها بصيغة {لله على الناس} .
- ٢— لقد قُدِّمَ ((لله)) على المبتدأ المؤخر، لكي يفيد السياق معنى الحصر، ويدل على أنَّ العبادة (الحج) لله وحده.
- ٣— لقد بينت الآية الأمر بصيغة البدل ، والإبدال يفيد التكرار كما يقال ، اذ لم يقل سبحانه : ((لله على المستطيع . . .)) وإنما قال : {لله على الناس حج البيت من استطاع} .

- ٤— انصرفت الآية وهي في معرض بيان من يشمله التكليف من ((الناس)) للتعبير بصيغة بيان ((البعض من الكل)) فقالت : {من استطاع اليه سبيلاً} وهذا الأسلوب بمثابة التفصيل بعد الإجمال والتبيين بعد الإهام ؛ وهو يفيد التكرار والتأكيد .
- ولو جاءت الآية بصيغة ((لله حج البيت على المستطيع)) أو ((لله على المستطيع)) أو ((على من استطاع اليه سبيلاً حج البيت)) لما أفهمت المعنى آنف الذكر .

المقصود من ((البيت)) هو {أول بيت وُضع للناس} والاستطاعة تنقسم الى استطاعة عقلية واستطاعة شرعية ، وكلاهما تتضمنهما الآية

فمن الناحية العقلية يستطيع كل انسان ((مستطيع)) ان يتشرف بالحج ((ولو متسكعاً)) وان كان الحج مستحباً بالنسبة اليه ، ليس بواجب ؛ وان لم يكن مستحباً فيحمل على معنى الزيارة ويدخل في المعنى العام لقوله تعالى: {مباركاً وهدى للعالمين} فهو مصدر هداية وبركة للجميع المستطيع وغير المستطيع ،

وحاجاً كان أو معتمراً ؛ واجباً أدّاه أو ندباً .

إلا أنّ الحج الواجب لا يجب إلاّ على المستطيع . وفي البحث الفقهي ثمة آراء ؛ فهل تلزم الاستطاعة ((اليه)) فقط ؛ أم أنّ الاستطاعة

((اليه)) و((عنه)) كلتيهما لازمتان ^{٥٩} ؟ .

الهوامش :

آل عمران : ٩٦-٩٧.

آل عمران : ٩٥.

(٣،٤) إبراهيم : ٣٧.

(٥،٦) التوبة : ١٠٨.

(٧) التبيان ٢ : ٥٣٥.

(٨) مجمع البيان ٢ : ٤٧٧.

(٩) النور : ٣٦.

(١٠) القمر : ٥٥.

(١١) الحديد : ٣.

(١٢) المائدة : ٩٧.

(١٣،١٤) ابراهيم : ٣٧.

(١٥) البقرة : ١٢٦.

(١٦) ابراهيم : ٣٥.

(١٧) العنكبوت : ٦٧.

(١٨) آل عمران : ٩٧.

(١٩) الحج : ٢٦.

(٢٠،٢١) الحج : ٢٧.

(٢٢) البقرة : ١٢٧.

(٢٣،٢٤) المائدة : ٩٧.

(٢٥) الاسراء : ١.

(٢٦) البقرة : ٤٣.

(٢٧) البقرة : ٥٤ ، ١٨٤ ، ٢٧١.

(٢٨) مريم : ٣١.

(٢٩) مريم : ٥٨.

(٣٠) مريم : ٥٩.

(٣١) البقرة : ١١٥.

(٣٢) نور الثقلين ١ : ٣٦٧.

(٣٣) الحج : ٢٧.

- (٣٤) سبأ : ١٠ .
- (٣٥) الانبياء : ٨٠ .
- (٣٦) قريش : ٤ .
- (٣٧) البقرة : ١٢٥ .
- (٣٨) البقرة : ١٩٤ .
- (٣٩) العنكبوت : ٦٧ .
- (٤٠) الحج : ٢٥ .
- (٤١) الانعام : ١٢٩ .
- (٤٢) جواهر الكلام ٧ : ٣٢٠ .
- (٤٣) شرائع الاحكام : ١ .
- (٤٤، ٤٥، ٤٦) البقرة : ١٤٤ .
- (٤٧) الوسائل ٣ : ٢٤٧ .
- (٤٨) التفسير الكبير ٨ : ١٤٥ .
- (٤٩) التفسير الكبير ٨ : ١٤٥ .
- (٥٠) الزمر : ٢١ .
- (٥١) التفسير الكبير ٨ : ١٤٥ .
- (٥٢) نهج البلاغة خطبة : ٣ .
- (٥٣) قريش : ٤ .
- (٥٤) العنكبوت : ٦٧ .
- (٥٥) البقرة : ١٢٥ .
- (٥٦) البقرة : ٢١٦ .
- (٥٧) البقرة : ٤٣ .
- (٥٨) القصص : ٢٧ .
- (٥٩) جواهر الكلام ١٧ : ٢٧٣ .

روى الإمام الخميني (ره) في الحج الإبراهيمي

تأليف : محمد محمدي ري شهري

{وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ} ^١.

قد جرى الحديث مراراً عن الحج الإبراهيمي في الخطب التي تلقى والمقابلات التي تجرى بخصوص الحج ، ولكن فلما وضع تحديد دقيق لهذا الحج ، وأُجيب على السؤال التالي:

ما هو الحجُّ الإبراهيمي؟

وما اختلافه عن الحجِّ غير الإبراهيمي؟

إذاً، فما أنسب أن يكون هذا الموضوع المهم محور حديثنا في ندوة الحج هذه التي تقعد في جوار مزار إمامنا العزيز، فكل مالدي الشعب وكل ما حققته له الثورة الإسلامية هو من بركات هذا الوجود الطاهر . وبالطبع فاني لا اعتقد بأن هذا البحث الواسع سأنتمه في هذه الكلمة ، لكنني أرجوا أن أتحدّث عنه بشكل مستفيض في مناسبات أخرى .

ما هو الحجُّ الإبراهيمي؟

الحج الإبراهيمي : هو الحج الذي شرَّعه الله تبارك وتعالى ، وأمر بأن يؤدَّن به إبراهيم الخليل (عليه السلام) **{وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ}**

... { .

وقد جدَّد رسول الله (صَلَّى الله عليه وآله وسلَّم) في عصره روح الحياة في هذا الحج ، غير أنه لم تمر مدة قصيرة على وفاته (صَلَّى الله عليه وآله وسلَّم) حتى طواه النسيان — وللأسف — ، ولم يستطع مسلمو الصدر الأول أن يواصلوه في المجتمع الإسلامي ، حتى جدَّده بعد مضي أربعة عشر قرناً في مجتمعتنا الإيراني رجل من السلالة الطيبة لإبراهيم (عليه السلام) ومحمد (صَلَّى الله عليه وآله وسلَّم) ، وإننا نسأل الله تعالى أن يوفقنا لأداء الحج بالشكل الذي رسم لنا معلمه الإمامُ العزيز .

عبَّر الامام عن الحجِّ الحقيقي بالحجِّ الإبراهيمي تارة وبالحج الإبراهيمي — المحمدي تارةً أخرى ، في قابل الحج غير الإبراهيمي .
وانسب ما يمكن أن نصف به هذا النوع الثاني من الحج في هذه البرهة من تاريخ الإسلام هو الحج الأمريكي ، ذلك أنَّ أنصار الإسلام الأمريكي هم الذين يَحْتَوْن عليه ، إذ لا يتضمن إلَّا شكلاً ظاهرياً للمناسك ، دون أن ينطوي على محتوى مفيد ، بل إنه يضر الإسلام والمجتمع الإسلامي لأنه يوجِّه في خدمة أهداف أعداء الإسلام وأعداء الحج الإبراهيمي .

يعتقد الإمام الراحل أنَّ الحجَّ الإبراهيمي يختلف جذرياً عن الحج الأمريكي ، من الناحية الفلسفية ومن ناحية المحتوى ، ومن ناحية الحجاج والقائمين على أمور الحج أيضاً.

فما هي فلسفة الحج عند الإمام؟ وماذا يجب أن يكون عليه محتوى

الحج؟ وكيف يجب أن يكون عليه تفكير القائمين على شؤون الحج وسلوكهم العملي؟ وكيف يجب أن يعمل الحجاج ببیت الله الحرام لو أرادوا أداء الحج بصورته الحقيقية الإبراهيمية؟

استخلصتُ رؤية الإمام في هذه المواضيع من ندائاته وخطبه وبياناته التي كان يصدرها في هذه المناسبة ، سأبينها لحضراتكم ، وأوصي جميع الحجاج ، ولا سيما الاخوة علماء الدين بمطالعة نداءات الإمام وبياناته بهذا الخصوص والتي طبعت في مجلدين .
فلسفة الحج الامريكي :

تتلخص فلسفة الحج الامريكي في كونه زيارة ترفيهية سياحية ليس الآ ، وعلى حدّ تعبير الإمام فان الحج الامريكي لا يخرج عن كونه سَفراً ترفيهياً لمشاهدة القبلة والمدينة وتكرار سلسلة من الألفاظ المفرغة من معناها ، وأداء سلسلة من الحركات الخالية من المضمون ، والحاج لا يعلم لِمَ يطوف حول الكعبة ، ولمَ يسعى بين الصفا والمروة ؟

لا يعي لِمَ يُحرّم؟ وما هي فلسفة رمي الجمرات وتقديم الأضحية ؟
وليست هناك أية علاقة بين الحج الامريكي وبين البحث عن جواب للأسئلة : ((كيف تكون الحياة ، وما هي طريقة الجهاد ، وكيف يمكن الوقوف بوجه العالم الرأسمالي؟))^٢ .

ولا علاقة — في منظار الحج الامريكي — بين الحج وبين كيفية استيفاء مسلمي العالم ومحرومية لحقوقهم وسحبها من الظالمين والقراصنة^٣ .

ولا علاقة بين الحج وبين وجوب أن يُطرح المسلمون في العالم كقوة عظيمة^٤ .

ولا علاقة بين الحج وبين طريقة تعامل المسلمين مع الأنظمة

العملية .

هذا هو تفسير الإمام للحج الأمريكي .

كما أنه لا علاقة بين الحج الأمريكي وبين أن يتابع الحاج معاناة المسلمين الفلسطينيين على يد الكيان الغاصب للقدس .

ولا علاقة بين الحج الأمريكي وبين أهم قضية يشهدها العالم الإسلامي حاضراً في التحركات المشبوهة لقادة الدول الإسلامية الرامية إلى إقامة العلاقات مع الكيان المحتل للقدس وتسويغ ما تسمى بمؤتمرات السلام .

حيث يتعرض المسلمون الفلسطينيون واللبنانيون هذه الأيام لأشدّ الضغوط .

وأيضاً لا علاقة بين الحج وبين ما يعانيه المسلمون والمخرومون في أفريقيا وأفغانستان . . هذا هو الحج الأمريكي .

فلسفة الحج الإبراهيمي :

بين الإمام العزيز فلسفة الحج الإبراهيمي بشكل جميل جذاب ، وهذه مقتبسات من عبارات هذا الرجل الجليل في تبين فلسفة الحج

الإبراهيمي : فالحج من وجهة نظر الإمام ((تَجَلَّ وتكرار لجميع مشاهد إبداع الحب في حياة الإنسان والجمع المتكامل في الدنيا))^٦ . وهذه أجمع جملة وأفضل تعبير يمكن أن نوضح فيه فلسفة الحج الإبراهيمي ، ذلك أن الحج هو تجلّ لكل مشهد من مشاهد هذا الإبداع ، تجلّ للجهاد والاثار والتضحية والشجاعة والشهامة والوحدة والذكر والارتباط بالله ولقاء الله و . . .

والهدف من الحج بنظر الإمام هو اقتراب الانسان من صاحب البيت والاتصال به ، وليس الحج مجرد حركات وأعمال وألفاظ . . .

وليس مجرد النظر إلى بعض الاحجار ومشاهدة البيت . دققوا في عبارات الإمام حينما يقول : ((إنّ

فلسفة الحج هي رؤية صاحب البيت ، ولأبد من أن توجه الحركات والأعمال التي تؤدي هناك في هذا السبيل)) .
((إن مناسك الحج هي مناسك الحياة ، وعلى الأمة الإسلامية بمختلف قومياتها أن تصبح إبراهيمية لتلتحق بركب أمة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وتكون واحدة ويدا واحدة))^٧ .

فالحج تنظيم وتمرين وبلورة للحياة التوحيدية .
يرى الإمام أن ((الحج يمثل مركز المعارف والإلهية الذي ينبغي أن يؤخذ منه محتوى السياسة الإسلامية في جميع الأبعاد الحياتية)) . لهذا يمكن أن تُستخرج سياسة الإسلام بجميع أبعادها من الحج كما يقول الامام .
ولقائد الثورة العزيز الذي يواصل بحق نهج الإمام قولاً مماثلاً في حكمه لي إذ يقول : ((إن فريضة حج بيت الله هي من جملة الفرائض النادرة التي ادرجت فيها أبعاد متعددة ومتنوعة ترتبط بالحياة الفردية والسلوك الجمعي بشكل عظيم وذات تأثير عميق في الجسم والسنس الفكر وفي السلوك الأدبي ، وتهيء ، لو أداها بالشكل الصحيح ، توفيقات كبيرة في جميع الميادين المادية والمعنوية)) .
ومن مهمات فلسفة الحج أيضاً في روى الإمام بعده السياسي ، حيث يقول : ((البعد السياسي للحج لا يقل أهمية عن بعده العبادي ، ففي البعد السياسي عبادة فضلاً عن الجانب السياسي))^٨ .

إن من فلسفة الحج أن يلي صرخات الظلام المنطقية من فلسطين وأفريقيا وأفغانستان ، بل يستجيب لكل المظلومين والمستضعفين في العالم ، لأن الحج ((قيام)) : { جَعَلَ اللهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِلنَّاسِ } .^٩

فـ ((البيت الذي أُسس للقيام . وهذا القيام للناس لا بُدَّ من الاجتماع فيه لهذا الهدف الكبير، وتعيين منافع الناس في تلك المواقف الشريفة))^{١٠} . هذا

هو تقييم الإمام ونظرة إلى الحج ، وليست منافع الناس أن يذهبوا هناك ويجلبوا البضائع ، ويتاعوا السلع الأمريكية التي حرّمها الإمام ، وفي توضيحه للآية الكريمة : **{لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُم}** التي يبين فيها القرآن فلسفة الحج ، يقول الإمام : ((أي نفع أعلى وأسمى من أن تقطع أيدي جبابرة العالم والجائرين من التسلط على البلدان المظلومة ، وتصبح ثرواتها العظيمة بأيدي أبنائها))^{١١} .

أجل ، هذا هو النفع الأكبر ، وعلى حجاج بيت الله أن يأخذوا العبر من هذه الآية في معرفة فلسفة الحج . ويقول الإمام عن الآية : **{وَطَهَّرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ}**^{١٢} : ليس المقصود التطهير من النجاسات الظاهرية وحسب ، فبيت الله يجب أن يطهر ليس فقط من النجاسات الظاهرية ، وإنما من الأرجاس المعنوية أيضاً التي يفوق ضررها وخطرها على المجتمع ضرر وخطر أي شيء آخر. الحج الإبراهيمي هو ذلك الحج الذي يقام لتطهير بيت الله من النجاسات الظاهرية والباطنية ، يقول الامام : ((المراد التطهير من جميع الأرجاس ، وعلى رأسها الشرك ، الأمر الذي بيّنه صدر الآية الكريمة))^{١٣} . **{وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهَّرَ بَيْتِي . . .}** .

ويرى الإمام أن من أهداف الحج ((إيجاد التفاهم وتعزيز أواصر الوحدة الإسلامية)) : ((من مهمات فلسفة الحج إيجاد التفاهم ، وتعزيز الاخوة بين المسلمين ، وعلى العلماء والخطباء طرح المسائل الأساسية والسياسية والاجتماعية مع إخوانهم في الدين وهيئة مشاريع حلّها، ليطرحوها بدورهم على العلماء وأصحاب الرأي لدى عودتهم إلى بلدانهم)) . وأخيراً فإن الحج بنظر الإمام ((بمستوى القرآن يستفيد منه الجميع ، لكنّ المفكرين والخائضين غمراته والمتحسين لآلام الأمة الإسلامية لو خاضوا الحج

معارفه ولم يخشوا الاقتراب منه والغوص في أحكامه وسياساته الاجتماعية لاصطادوا من صدف هذا البحر كمية أعظم ، من جواهر الهداية والرشد والحكمة والانعقاد ، ولارتووا وإلى الأبد من زلال حكمته ومعرفته ^{١٤} . صلى الله على روحك وبدنك يا إمام ، فهل هناك أجهل واشمل وأدق من هذه العبارات عن فلسفة الحج؟

يضيف الإمام : ((ولكن ما العمل؟ وإلّا تشكو هذا الغم الكبير؟ فقد أصبح الحج كما القرآن مهجوراً)) .
((ليس حجاً هو الحج الخالي من الروح والحركة والقيام والبراءة والوحدة ، والحج العاجز عن هدم صروح الكفر والشرك)) .
أيها الأعزاء ، يمكنكم أن تزيلوا هذا الغم عن روح الإمام الطاهرة ، صحيح أنّه رحل عنّا، بيد أن رسالته تُثقل كواهلنا فرداً فرداً .
وقد لخص الإمام الباقر (عليه السلام) جدّ إمامنا هذا الكلام في عبارة واحدة وقال : في تلك الأيام العصيبة التي كل كل فيها ظلّ السلطة الجائرة على العالم الإسلاميّ : ((إنما امر الناس أن يأتوا هذه الأحجار فيطوفوا بها، ثم يأتونا فيخبرونا بولايتهم ، ويعرضوا علينا نصرهم)) ^{١٥} .
يُريد الإمام الباقر (عليه السلام) أن يبين لنا من خلال استعماله لتعبير الأحجار أنّ الحج المجرّد من الفلسفة الإبراهيمية للحج لا يعدو كونه طوافاً بالأحجار .

يقول الإمام الخميني : ((التكليف الإلهي للحجاج في هذه البرهة الزمنية أن ينكروا كلّ موضوع يُشتم منه رائحة الاختلاف والوقية بين صفوف المسلمين . ويعتبروا البراءة من الكفار وقادتهم واجباً من واجباتهم في المواقف الكريمة ، ليكون حجّهم حجّاً إبراهيمياً وحجّاً محمدياً، وإلّا سيصدق عليهم القول المعروف : ما أكثر الضحيج ، وأقلّ الحجيج !)) ^{١٦} .

كان هذا جانباً من رؤى إمام الامة وهو يتناول القضايا التي تخص فلسفة الحج وأسس الحج الإبراهيمي ، وعلى قاعدة هذه الفلسفة والأسس يختلف محتوى الحج بدوره ، كما يختلف الحجاج والقائمون على شؤون الحج .

وقبل أن أحتتم هذا الحديث ، أتطرق باختصار إلى محتوى الحج الذي يختلف في الحج الإبراهيمي عن غير الإبراهيمي في كل مناسكه من التلبية إلى الرمي ، إذ يرى الامام أن كل أعمال الحج وحركاته وسكناته تنطوي على محتوى حيوي تربوي محرك خاص ، وحينما يقول الحاج : ((لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك . . .)) لا يكون قوله صادقاً وحقيقياً إلا حينما يصغي من أعماقه لنداء الحق ويستجيب لدعوة الله تعالى .

فالمسألة هنا مسألة الحضور في المحضر ، ولا يستطيع أن يقول لبيك إلا من يحس بهذا الحضور ، فإنكم وأنتم في غرفة مغلقة الأبواب لا يوجد فيها غيركم لا تقولون ((نعم)) ، إنما تتفوهون بهذه الكلمة حينما يوجد من يناديكم ، فتشهدون وتسمعون صوته ودعوته ، فالمسألة هي مسألة الحضور في المحضر ومشاهدة جمال المحبوب ، وكأن الملبى في هذا المحضر قد خرج عن حالته الطبيعية . وتخلّى عن ذاته .

إلهي ، هل لنا أن ندرك ولو للحظة واحدة المعنى الحقيقي للحج والمعنى الحقيقي للإحرام ومفهوم التلبية؟
يصور الإمام العزيز هذه الحالة بشكل يبدو أن الملبى في محضر الله يخرج عن وضعه الطبيعي ويكرر التلبية ثم يتره عن الشريك بالمعنى المطلق ، أي : اللهم إني لا أشرك بك مطلقاً، وأبرأ من كل الطواغيت الكبار والصغار ، ولا استجيب الا لك ، كما قال الامام الصادق عليه السلام في الحديث المروي عنه :

((وأحرم عن كل شيء بمنعك من ذكر الله ، ويحجبك عن طاعته .

كَلَّ مَا اشْتَغَلَكَ عَنِ اللَّهِ هُوَ صَنَمُكَ)). .

أحرم عن كل ما يبعدك عن محضر الله ، ويجعلك غافلاً عن ذكره ، ويجعلك عن طاعته ، وحرّمه على نفسك ، وحينما تلي ((لَبَّ^{١٧} تلبيةً صادقة ، خالصة ، زاكية لله — عزّ وجلّ — في دعوتك متمسكاً بالعروة الوثقى)). . وحينما تتمسك بالعروة الوثقى — وهي الوجهة السياسية الأساسية للحج . قل ((لبيك)) بإخلاص وصدق ، وقل : اللهم أتيت لأقول لك ((لبيك)) ولغيرك ((لا)). .

اللهم أفدنا من الحج كما يفهمه أولياؤك وينتفعون منه .

اللهم وفّقنا لأداء الحج كما جسّده لنا الامام العزيز الذي نقف الآن في محضره وتشهدنا وتحيطنا روحه الطاهرة .

اللهم صلّ ثورتنا بثورة الإمام المهدي (عجل الله تعالى فرجه) العالمية ، وسدّد قائد الثورة آية الله الخامنئي واكتب له النصر المبين .

الهوامش :

ابراهيم : ٣٥ .

بيام استقامت (نداء الاستقامة) : ٧ .

((ما للحج ولأخذ حقوق المسلمين والمحرومين من الظالمين)). . بيام استقامت : ٧ .

((ما للحج واستعراض المسلمين لانفسهم كقوة عظمى تمثل القوة الثالثة في العالم)). . بيام استقامت : ٧ .

((ما للحج وثورة المسلمين ضد الانظمة العميلة)). . بيام استقامت : ٧ .

بيام استقامت : ٨ .

نفس المصدر .

صحيفه نور ١٨ : ٦٧ .

المائدة : ٩٧ .

صحيفه نور : ١٩ : ٤٣ .

صحيفه نور : ١٩ : ٤٣ .

الحج : ٢٦ .

صحيفه نور : ١٨ : ٨٧ .

پیام استقامت : ۸.

بحار الأنوار ۹۹ : ۳۷۴ (ط . بیروت) .

صحیفه نور : ۱۹ : ۴۶ .

معنی أَجِبْ .

الحج الإبراهيمي والحج الجاهلي

تأليف : صادق أنينه وند

لآل رَسُولِ اللَّهِ بِالْخَيْفِ مِنْ مَنِي
وَبِالرُّكْنِ وَالتَّعْرِيفِ وَالْجَمَرَاتِ
دِيَارِ عَلِيٍّ وَالْحُسَيْنِ وَجَعْفَرٍ
وَحَمْرَةَ وَالسَّجَادِ ذِي الثَّنَاتِ
وَسِبْطِي رَسُولِ اللَّهِ وَابْنِي وَصِيَّهِ
وَوَارِثِ عِلْمِ اللَّهِ وَالْحَسَنَاتِ
"دعبل بن علي الخزاعي"

المقدمة :

إن أصول الحج الإبراهيمي : هي تلك التي شرعها الدين المبين ، ومن الصعب الوصول عبر النصوص والوثائق الباقية — باستثناء القرآن الكريم — إلى شيء يمكنه رسم حقيقة تلك الأصول . ولكن في ضوء تعدد التفسيرات ، التي تقدمها المذاهب الإسلامية حول أداء الحج وفق نهج إبراهيم الخليل (عليه السلام) ، وكما يدعو إليه الدين المبين ، وبالتحديد ما يتعلق بالنواحي السياسية والاجتماعية والتوكلية والتبري ، نجد من المناسب البحث فيما وصل إلينا عن شعائر الحج الإبراهيمي ومناسكه ، خصوصاً وان هذه التفسيرات لم تكن بمنأى عن التأثير بتقادم الأزمنة وهيمنة الأمويين والعباسيين ، والأجواء السياسية والاجتماعية التي تترتب على سلطة كل منهما، علاوة على انحياز بعض العلماء والفقهاء الذين عدوا أنفسهم مرتبطين بجهاز الحكم إبان العهدين الأموي والعباسي .

إن ما يمكنه تفصيل الحج الإبراهيمي ، ونفخ الروح واختوى فيه ، هو

المضامين والمناسك ، التي يجب دائماً التمسك بها واللجوء إليها، وبحضور الديني بالحج تحقيق صدور رؤية إبراهيم الخليل (عليه السلام) ومحمد الحبيب (صلى الله عليه وآله وسلم) . وإلا فإن التمسك الظاهري في إقامة المراسم والمواسم يذكّر بالحج السهل الذي أدّاه أبوسفيان أيضاً. لأنّ الحجّ بالمعنى العام لا يختصّ به الاسلام ، إنّ ما أمر به الاسلام وأصرّ عليه ، هو الحجّ الابراهيمي من بين الحجّ الجاهلي والحجّ الخنفي والحجّ الصابئي .

حجّ إبراهيم (عليه السلام) :

"والشائع في الأخبار والروايات والعربية القديمة أن الحجّ ، على زمن إبراهيم عليه السلام ، كان يعنى قصداً كعبة مكة والطواف بالبيت والتلبية وقضاء بقية المناسك ، ثم جاءت الوثنية بأصنامها وبيوتها وعبادتها فصار الحجّ يشملها أيضاً^١ .

{وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهَّرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ * وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ }^٢ .

"أنّ إبراهيم وإسماعيل (عليهما السلام) هما اللذان بنيا الكعبة بيت عبادة الله، وأنّ حرمة الكعبة ومنطقة مكة وتقاليدها الحجّ وطوقه المتنوعة في هذه المنطقة من سنن إبراهيم"^٣ .

وقد إخذ الإقوام الآخرون — الذين عاشوا بألف سنة قبل ميلاد المسيح (عليه السلام) — بهذه السنّة ؛ فكانوا يراعون حرمة مكة والحرم .

يُحْمَنُ خبراء الكتاب المقدّس (العهد القديم والجديد) والمتخصّصون في الأديان ، أنّ إبراهيم وإسماعيل (عليهما السلام) عاشا نحو ألفي عام قبل الميلاد ، وبذلك يكون قد مضى نحو ٤ قرناً على الظهور الحديث للكعبة بالبناء

الإبراهيمي .

وعندما تحدّث ديو دورس سيسيلي **Diodorus Of Sicily** الذي عاش في القرن الأول قبل الميلاد ، عن الأئباط ، أشار إلى الكعبة بقوله : "إنّه مكان مقدّس له حرمة وشهرة بين جميع العرب ، هو مكّة"^٤ .

يعتقد بعض الباحثين ، أنّ مفردة "مكورابا" (**Macoraba**) والتي تلفظ في اليونانية "مقوروبا " نالتي أراد بها اليونانيون اسم مدينة ، وتعني مكان التقرب لله ، تعني مكّة . معلوم أنّ كلمة "مكرب" هي مفردة دينية قديمة استعملت قبل ألف عام من تأسيس حكومة السبأ.

وقد أشار بطليموس (**ptolemy**) الفلكي والجغرافي الذي عاش في القرن الثاني للميلاد إلى هذه المفردة^٥ .
على هذا الأساس يمكن القول : إنّ مفردة "مكة" تمثّل صفةً ونعتاً لبيت الله ولا تعني اسماً خاصاً. لكنّها أثير الاستعمال والشهرة حلّت مكان الاسم ، مثل القدس إذ حلّت الصفة محلّ اسم العلم . وكلمة "بكّة" تعادل "مكة" ، فحسب رأي الدكتور جواد علي أنّ الكلمتين تملثان تسميةً واحدةً ، ففي لهجات القبائل تأتي الباء بدل الميم بالقلب والابدال ، وبخاصّة في لهجات جنوب الجزيرة العربية^٦ .

يرى بعض المحققين أنّ مفردة "بكّة" تعني الوادي .

{إنّ أول بيت وضع للناس للذي ببكّة مباركاً وهدي للعالمين} .

جاء في القاموس : "بكّة" تقال لمكّة ، أو لما بين جبليها ؛ نرى أنّ مفردة "بكّ" سامية قديمة ، وكلمة "بُقعاه" عبرية وتعني الوادي ، وقد أطلقت على الوادي الواقع بين لبنان الساحلي ولبنان الشرقي والذي أسماه الروم سورية المنخفضة .

"وإنَّ مدينة بعلبك مشهورة ، وهي من الكلمات المركبة تركيباً مزجياً من "بعل" [إله قديم] و"بك" [الوادي] ومعنى بعلبك إله الوادي"^٧ : وهو نفس الاسم الذي أطلق على هذه المدينة تيمناً بآلهة الساميين المعروفة ويُطلق اليوم على هذا الوادي اسم البقاع ، والذي يمرّ نهر الليطاني عبره .

أطلق القرآن الكريم على مكة اسم " أم القرى " ^٨ و"قرية " ^٩ ، قارنهما بالطائف : {وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ} ^{١٠} .

وقد ذكر أغلب المفسرين أنَّ المراد من القريتين هما مكة والطائف ^{١١} .

وقال المسعودي في مروج الذهب : " وقد كان إبراهيم قدم إلى مكة وإسماعيل ثلاثون سنة حين أمره ببناء

البيت " ^{١٢} .

إنَّ ما يسترعي الاهتمام من الناحية التاريخية ، هو ما نقله مينغانا (Mingana) عن راهب سُرياني يدعى نَرْسَي (Narsai) بشأن نزاع أولاد هاجر في (بيت عربايه) في الحدود الشاميه ، وهذا الخبر يمثل أوّل نقل عن شخص من أهل الكتاب (تُوفّي في سنة ٤٨٥ للميلاد) أفاد فيه بوجود قريش في شمال الجزيرة ، وهو يتطابق مع ما أورده التّسابون والأخباريون العرب ، في إرجاع نسب قريش إلى إسماعيل (عليه السلام) ^{١٣} .

جاء في الآيات (١٤٠-١٥٠) من سورة البقرة المباركة والتي استنكرت دسائس اليهود بين المسلمين بشأن تغيير القبلة من القدس إلى الكعبة ، قوله تعالى : {وان الذين أتوا الكتاب ليعلمون أنّه الحقّ من ربّهم وما الله بغافل عما يعملون} ^{١٤} .

وفيه إشارة قبل كلّ شيء إلى علم اليهود بأفضلية الكعبة وأقدميتها، كقبلة . فما يعني أنّهم كانوا يقرون قبل ظهور الاسلام بفضائلها وسوابقها واتصالها بإبراهيم (عليه السلام) وقد حدّثوا العرب بذلك .

لم يسجل التاريخ ما يقود إلى اليقين في الحجّ الابراهيمي الصحيح غير ما علّمه القرآن الكريم .

والحجّ الحنفي الذي يدّعي محاكاة حجّ ابراهيم (عليه السلام) فعلاوة على أنّه جعل ليقابل حجّ المشركين وعمل به في أجواء الشرك الجاهلي ، فهو غير واضح ، كما أنّ شبهة الشرك تكتنفه في بعض الحالات .

في عقيدتنا أنّ الحجّ الابراهيمي هو حجّ الاسلام ، إلّا أنّ قيمة هذا الحجّ ومكانته تُدرّك عندما نتعرّف على الحجّ الجاهلي وحجّ المشركين ، ونجري مقارنة بينهما ، كي لا تتحرك — والعياذ بالله — تلك الرواسب الباقية في أذهان المسلمين ، وتطرح مقابل الحجّ الابراهيمي الذي أمر به القائد الكبير للثورة ومؤسس الجمهورية الاسلامية في إيران سماحة الامام الخميني — قدّسنا الله بسرّه العزيز — وأقيم للمرة الأولى في هذا العصر .

لم يتفق المؤرّخون السابقون على رأي واحد بشأن دخول الشرك وانتشاره في الجزيرة العربية ، فبعضهم مثل هشام الكلبي رأى في كتاب "الأصنام " : " أنّ إسماعيل بن إبراهيم (صلى الله عليهما) لما سكن مكة وولد له بها أولاد كثيرٌ حتى ملأوا مكة ونفوا من كان بها من العمالق ، ضاقت عليهم مكة ووقعت بينهم الحروب والعداوات وأخرج بعضهم بعضاً ، فتنفّسوا في البلاد لالتماس المعاش .

وكان الذي سلّخ بهم إلى عبادة الأوثان والحجارة أنّه كان لا يظعن من مكة ظاعنٌ إلّا احتمل معه حجراً من حجارة الحرم ، تعظيماً للحرم وصبابةً لمكة " ١٥ .

وقد أدّى هذا العمل على المدى الطويل إلى نشوء صناعة الأصنام ، وعبادتها وبالتالي ساد الشرك الجزيرة .

وكانوا في ديار الغربة يدورون حول هذه الأصنام ، ويطوفون حولها كما

يطوفون حول الكعبة . إلا أن هشام يضيف قائلاً : "وهم بعدُ يعظمون الكعبة ومكة ، ويحجّون ويعتمرون ، على إرث إبراهيم وإسماعيل (عليهما السلام) " ١٦ .

وفي الأسباب الكامنة وراء الميل نحو الشرك وتغلبه على دين إبراهيم ، رأى هشام أنها تتمثل في توغّلهم واهتمامهم الشديد بالأصنام ، موضحاً أنه رغم كلّ ذلك كانت ثمة بقايا مناسك من عهد إبراهيم وإسماعيل (عليهما السلام) قام أهل الجاهلية بأدائها بعد أن مزجوها بتقاليد الشرك ، فبدأ الحجّ الجاهلي بمعناه الدقيق من ذلك الحين : "وفيهما على ذلك بقايا من عهد إبراهيم وإسماعيل (عليهما السلام) يتنسّكون بها : من تعظيم البيت ، والطواف به ، والحجّ ، والعمرة ، والوقوف على عرفة ومزدلفة ، وإهداء البُدن ، والإهلال بالحجّ والعمرة ، مع إدخالهم فيه ما ليس منه " ١٧ .

مناسك الحجّ في الجاهلية :

كان الحجّ في الجاهلية يبدأ من اليوم التاسع من شهر ذي الحجة ، عندما تشارف الشمس على الغروب ، وقبله يجتمع الناس لأغراض التجارة في سوق عكاظ خلال شهر ذي القعدة لمدة عشرين يوماً ، يتوجّهون بعد انقضائها إلى سوق المجنة حيث يمكثون فيه حتى نهاية الشهر وهم يمارسون معاملاتهم التجارية ، وإذ هلّ هلال ذي الحجة انطلقوا إلى ذي الحجاز ليواصلوا فيه البيع والشراء على مدى ثمانية أيام ، وفي اليوم التاسع ينادي المنادي فيهم : "تروّوا بالماءِ لأنّه لا ماءَ بعرفة ولا بمزدلفة " .

وهذه المناسبة سُمي هذا اليوم بيوم التروية ، وهو اليوم الذي ينتهي فيه

موسم أسواق الحجّ الجاهلي^{١٨} .

في اليوم التاسع من ذي الحجة يصل الحجاج إلى عرفة ، ويرتدون اللباس الخاصّ بالحج كما أورد الجاحظ : " كانت سيماء أهل الحرم إذا خرجوا إلى الحلّ في غير الأشهر الحرم ، أن يتقلّدوا القلائد ويُعلّقوا عليهم العلائق ، فإذا أُوذِمَ أحدهم الحجّ ، تزيّاً بزيّ الحاج " ^{١٩} .

ويقومون بالتلبيد قبل ذهابهم إلى الموقف . والتلبيد عبارة عن وضع الحاجّ مزيجاً من الخطمي والآس والسدر ومادة صمغية على شعر رأسه وذلك للحيلولة دون تسريحه ودون قتل القمل ، وقد وصف امية بن أبي الصلت الحجاج الذين لتبدوا بقوله :

شاحينَ آباطهم لم ينزعوا تفناً
ولم يسئلوا لهم قملاً وصنباناً^{٢٠}

المواقف :

الموقف الأوّل، هو عرفة كما ذكرنا إذ يصلونه في اليوم التاسع من ذي الحجة .

وقد ذكروا وجوهاً مختلفة بشأن اسم "عرفة" منها .

أنّ جبرئيل كان يطوّف إبراهيم في المشاعر، ويعلمه المواضع وهو يقول : عَرَفْتُ ، ومنها أنّ آدم وحواء بعد الهبوط عرف أحدهما الآخر في هذا المكان ، ومنها أنّ الناس يتعارفون في هذا الموضع ^{٢١} .

قال ياقوت : "وقيل : بل سمي بالصبر على ما يكابدون في الوصول إليها، لأن العرف الصبر؛ ويقال : إنّ الناس يعترفون بذنوبهم في ذلك الموقف " ^{٢٢} .

"ويقارن هوتسما (Houtesma) الوقوف بعرفات بوقوف اليهود على جبل سيناء ، حيث كان يتجلّى معبودهم بالبرق والرعد ، وان كنّا لا ندري شيئاً

عن إله عرفات ، ولربّما كان نفسه إله المزدلفة " قُرح " [إله البرق والعواصف والرّعد والغيث] الذي عبده الأდوميون من قبل ولم يبق من ظواهر عبادته بين الجاهلين إلا إشعال نيرانه بمزدلفة . " ٢٣ .

وكان لكلّ قبيلة موقف خاص بها في عرفة ، ولم يبق الآن إلا أسماء بعضها، لأنّ وحدة صفوف الحجّاج في الإسلام دون تمايز، أدّت الى اندثار أسماء تلك المواقع .

من المواقع الخاصّة التي ما زالت باقية موقف نَفْعَة الخاصّ بقبيلة ربيعة والذي ورد في شعر لعمر بن قَمَيْئَة :

وَمَثَلَةٌ بِالْحَجِّ أُخْرَى عَرَفَتْهَا لَهَا نَفْعَةٌ لَا يُسْتَطَاعُ بُرُوحُهَا^{٢٤}

كانت قريش وكذلك أهل مكّة يرون أنفسهم أفضل من غيرهم من العرب ، فيختارون موقفهم بالقرب من مكان الأضاحي في مزدلفة في موضع اسمه نَمِرَة .

وكانوا يعظمون جبل "إلال" في عرفة ويقسمون به ، وقد ذكر في شعر النابغة في عدّة أماكن ، كذلك أورده طُفَيْل الغنوي في شعره بقوله :

يَزُرُّنَ إِلَّا لَا لَا يُنَصِّبْنَ غَيْرَهُ بِكُلِّ مَلَبٍ أَشَعَثَ الرَّأْسَ مُحْرَمٌ^{٢٥}

وكانوا يطلقون على الانتقال السريع من عرفة إلى مزدلفة تسمية الإفاضة أو الإجازة ، وكان هناك أشخاص يتقدّمونهم ليهدوهم السبيل .

وروى ابن هشام في سيرته " كان الغوث بن مُرّ بن أدّ بن طابخة بن إلياس بن مُضر يلي الإجازة للناس بالحجّ من عرفة ، وولده من بعده ؛ وكان يقال له ولده صُوفَة " ٢٦ .

وفي وجه التسمية قالوا : إنّ أُمَّة عندما ربطته بالكعبة وضعت عليه قطعة

من الصوف .

ومما رُوي عن ابن عباس في الحجّ الإبراهيمي ، أنّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) منع من الحركة السريعة وأمر بالسكينة إذ قال (صلى الله عليه وآله وسلم) : " أيها الناس ، عليكم بالسكينة ، فإنّ البرّ ليس بالإيضاع " ^{٢٧} .
وكما نقل الأزرقي ، فإن أول من أسعل النار فوق جبل فُرح كان قصي ابن كلاب ، حيث استمر هذا الأمر حتّى ظهور الاسلام ، ولعلّ الهدف من اضرام النيران هناك هو إرشاد الحجاج ، إذ كان من الممكن أن يحلّ الظلام قبل أن يصلوا إلى مزدلفة ^{٢٨} .

وكان الجميع يجتمعون في المزدلفة الواقعة بين عرفات ومنى ، حتى قريش والمكّيون كانوا ينضمّون إلى المجتمعين ، وكانوا يمضون الليل بالدعاء والتلبية بانتظار طلوع الشمس ، وكان البعض لجعلته يخاطب جبل ثبير الذي تشرق الشمس من خلفه بقوله : " أشرقْ ثبير ، كيما نُغیر " .
وتكون الافاضة في الحجّ الإبراهيمي من عرفة بعد الغروب ، ومن مزدلفة قبل طلوع الشمس ، خلافاً للحجّ المشركين .

وقد أشار أبو ذؤيب الهذلي إلى مبيت المشركين في مزدلفة ، وانتقالهم منها إلى منى في شعرٍ له وصف به حاجاً مشركاً أذى أعماله متعجلاً ليشترى العسل ، إذ قال :

فَبَاتَ بِجَمَحٍ ثُمَّ تَمَّ إِلَى مَنَى فَأَصْبَحَ رَاذًا يَبْتَغِي الْمَرْجَ بِالسَّحْلِ ^{٢٩}

إنّ التاريخ لا يحدثنا بشيء عن سبب الاسراع في العبور من مزدلفة إلى محلّ الهدي بمنى ، لكنّ بالإمكان الحدس بأنّه كان للحصول على مكان مناسب ، أو للتعجيل في الهدي .

وفي المزدلفة أيضاً كان الصُوفة يقومون بالإضافة ، التي كانت تتكفّلها

أُسِرُ أُخْرَى مِنَ الْقِبَائِلِ أَيْضاً .

موقف منى :

بعد وصولهم منى ينحر المشركون الهدي ، ويستمر ذلك من الصباح حتى الغروب . وكانوا يرمون الحجارة في مكانين خاصين هما المَحَصَّبَ والجَمَارَ كي لا يمكن لأهل مكة أن يزرعوا شيئاً فيهما، ومعلوم أن هذه الأحجار يجب أن تكون كبيرة لتجعل الأرض غير صالحة للزراعة تماماً، فهي تتفاوت مع الأحجار الصغيرة التي تستعمل في الحجّ الأبراهيمي لرمي الجَمَرَاتِ .

يبدو أن أهل الجاهلية يخرجون من الإحرام بعد النحر والرمي في منى، وهذا المفهوم يُستفاد من شعر نقله الجاحظ في كتاب الحيوان لعبدالله بن العجلان .

بعد النحر يتوجّه المشركون إلى الرمي ، إلا أن هذا العمل منوط بإجازة الصوفة الذين يتكفلون أمر الافاضة من عرفة ومزدلفة ، وأولئك لا يرمون حتّى تقترب الشمس من الغروب ^{٣٠} .

ثمّة بيت في كتاب المَفْضَلِيَّاتِ عن الشنفرى الشاعر الجاهلي الصعلوك ، وردت فيه كلمة الجمار:

قَتَلْنَا قَتِيلًا مُهْدِيًا بِمَلْبَدٍ جَمَارَ مِنَى وَسَطَ الْحَجِّجِ الْمَصَوَّتِ ^{٣١}

بعد الفراغ من الرمي ، يحبسون الحجاج في العقبة ، ولا يسمح لأحد بالحركة حتّى يعبر الصُوفَة ، الذين يعبورهم يتحرّك الحجاج بعدهم .

وقد بيّن مُرَّةُ بن خُليف الفهمي، شوق الحجاج للحركة ومنع الصوفة لهم في هذا البيت من الشعر:

إِذَا مَا أَجَازَتِ صُوفَةُ النَّقَبِ مِنْ مِنَى وَلاَحَ قَتَارٌ فَوْقَهُ سَفَعُ الدَّمِ ^{٣٢}

تبدأ مراسم الحج ، قبل الغروب من اليوم التاسع من ذي الحجة ، وبعد عرفة ومزدلفة وإشعال النار فوق جبل قزح ، ونحر الهدي ورمي الجمرات ، تنتهي عند الغروب ، أي إنهم يكونون قد فرغوا من مراسم الحج في ليل العاشر من ذي الحجة ، يبقى دخول مكة والطواف ثم يعود كل فرد إلى وطنه بعد أدائهما . وكانت مراسم الحلق والتقصير تتم بعد التلبيد، وحسبما أورد صاحب تاج العروس، فقد كان اليمينيون يضعون على شعرهم الملبد الطحين أو مسحوق الحمص والسُّكَّر، ثم يلحقون ، فيتساقط الطحين أو مسحوق الحمص فينتفع به الفقراء ^{٣٣} .

ولا بُدَّ من معرفة أنَّ الحلق والتقصير لا يكونان في منى وحسب، بل وكما قال هشام الكلبي: " كانت الأوس والخزرج ومن يأخذ بأخذه من عرب أهل يثرب وغيرها يحجّون ، فيقفون مع الناس المواقف كلّها، ولا يملقون رؤوسهم . فإذا نفروا أتوه [مناة] . فحلقوا رؤوسهم عنده وأقاموا ولا يرون لحجّهم ، تماماً إلّا بذلك " ^{٣٤} .

الفوارق والامتيازات :

إذا تمعنا في مراسم الحجّ الجاهلي من خلال التاريخ والأدب المدوّنين ، وجدنا ثمة فوارق ناشئة عن شعور بعض القبائل بالفضل على سواها. وتتمثّل هذه الفوارق قبل كلّ شيء في طريقة أداء حجّ المشركين ، الذي فقد طابعه الديني ووحدته ، بسبب تأثير الرعة الاستعلانية للقبائل القوية .

وكان الحجاج في الجاهلية على ثلاثة أقسام : ١- الحُمُس . ٢- الحِلّة . ٣- الطُّلس .

١- الحُمُس : كان القرشيون يرون لأنفسهم الأفضلية على سائر

العرب ، ومجاورتهم مكة كانوا يقولون : " نحن أهل الحرم، فليس ينبغي لنا أن نخرج من الحرمه ، ولا نعظم غيرها كما نعظمها، نحن الحُمس " ^{٣٥} .

يتبين من هذا المقطع أن امتياز الحُمس كان مختصاً بسكان الحرم من قريش ، فقد جاء في كتاب الخبر أن الحُمس يطلق على " قريش كلها، وخزاعة لتروها مكة ، ومجاورتها قريشاً " ^{٣٦} .

وقد ذكر وجهان في المعنى اللغوي لكلمة الحُمس ، إذ ورد أن : " الحُمس جمع أحمس وحمس ، من حمس : أي ، اشتد وصلب في الدين والقتال، وقيل : إنهم لقبوا بذلك لالتجائهم بالحمساء ، وهي الكعبة ، لأن حجرها أبيض إلى السواد " ^{٣٧} .

وما أوجده الحُمس في الحج هو ترك الوقوف في عرفة والإفاضة منها إلى المزدلفة ، فهم في الوقت الذي يقرون فيه بهذه المناسك ، يقولون : نحن أهل الحرم لا ينبغي لنا الخروج من الحرم وتعظيم غيره ؛ وعندما يقف الحجاج في عرفة ، يقفون هم عند أطراف الحرم ثم يذهبون ليلاً إلى المزدلفة .

وقد ظل هذا الأمر حتى ظهور الاسلام ، إذ أَلغته الآية {ثُمَّ أَفِضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ} . ^{٣٨}

ومن جملة الأعمال التي كان على قريش القيام بها رعاية للحُمس هو أنهم : "لم يطبخوا إقطاً، ولم يدخروا لبناً، ولم يحولوا بين مرضعة ورضاعها حتى يعافه ، ولم يحركوا شعرا ولا ظفرا، ولا يبتنون في حجهم شعراً ولا براً ولا صوفاً ولا قطناً، ولا يأكلون لحماً، ولا يمسون دهنًا، ولا يلبسون إلا جديداً، ولا يطوفون بالبيت إلا في حذائهم وثيابهم ، ولا يمسون المسجد بأقدامهم تعظيماً لبقعته ، ولا يدخلون البيوت من أبوابها " ^{٣٩} .

وقد أشار القرآن إلى هذا الأمر، ونهى عنه في الآية {وليس البر بأن تأتوا

البيوت من ظهورها، ولكن البر من اتقى ، واتوا البيوت من أبوابها . . { ٤٠ .

ومن تقاليد الحُمس الأخرى قولهم ، إنه لا يليق بغير أهل الحرم أن يتناولوا طعام غير الحرم في الحرم ، بل عليهم إذا جاءوا للحج أو العمرة أن يأكلوا من طعام أهل الحرم إما من خلال الضيافة أو الشراء ^{٤١} .
كذلك كان من الواجب على كل من أراد الطواف للمرة الأولى ، أن يطوف بلباس أهل الحرم ، أي الحُمس ، وإن لم يجد ذلك طاف عريان ^{٤٢} .

كذلك إذا تزوّج رجل من نسائهم فإن أولاده يكونون من الحُمس ، ولهذا الأمر بواعث سياسية واقتصادية أيضاً ، وقد تفاخر بعض شعراء الجاهلية بذلك .

٢- الحَلَّة : وهم قبائل سكنوا خارج الحرم ، أي في الحلّ ، وعرفوا بالحلة ، وكان الفرق بين أهل الحل وأهل الحرم في أن أهل الحل كانوا في أيام الحج يذيون السمن ، ويأكلون الإقط واللحم ، ويضعون الزيت على أجسامهم ، ويلبسون من الصوف والشعر ، وقيمون في الخيام ، ويؤدّون المناسك بثيابهم ، وبعد الفراغ وعندما يدخلون الكعبة يتصدّقون بنعلهم وثيابهم ، ويستأجرون للطواف الثياب من أهل الحُمس ^{٤٣} .

٣- الطُّلس : قيل إنهم اليمنيون من أهل حضرموت وعكّ وعجيب وإياد بن نزار ، والوجه في تسميتهم هو مجيئهم من مناطق بعيدة وبالتالي طوافهم بالبيت وقد غطاهم الغبار ^{٤٤} . وكان هؤلاء يماثلون الحلة في الإحرام ، والحُمس في ارتداء الثياب ودخول البيت ^{٤٥} .

الْعُمْرَة :

يأتي أهل الجاهلية من الحُمس والحلة والطُّلس إلى الكعبة لغير الحج أيضاً وذلك لأداء العمرة ، وكانوا يتمتعون عن التليد ويحلقون سلفاً خلافاً لما

كانوا يفعلونه في الحج ، ويعدون أداء العمرة في أشهر الحجّ، ذي القعدة وذو الحجة ومحرم، من الذنوب التي لا تغتفر، فهم يقولون :

"إذا برأ الدُّبر وعفا الوَبَر، ودَخَلَ صفر، حَلَّت العمرة لمن اعتمر" ^{٤٦}.

ولا فرق بين العمرة والحج من حيث الاحرام والطواف ، بيد أنّها لا تتضمّن الوقوف في عرفة والمزدلفة ومعنى ، ورمي الجمرات .

السقاية والرفادة :

لوقوع مكة في وادٍ غير ذي زرع ، ولشحّة المياه فيها، فإن سعي القرشيين الرئيس في أيام الحج كان منصباً على توفير الماء للحجيج ، وقد سمي هذا العمل بالسقاية . وقيل إنّ أول من سقى الحجيج هو قصي . والمشكلة الثانية في هذه الايام بعد إيصال الماء هي الإطعام ، وقد سمي هذا العمل بالرفادة . وقيل إنّ أول من قام به هو قصي أيضاً ^{٤٧}.

وقد بقي هذا العمل لأولاد قصي ، إذ تكفّل به من بعده هاشم بن عبد مناف ، ثمّ ابنه عبدالمطلب، ثمّ أبوطالب الذي عصر ظهور الاسلام . وقد شارك في هذا العمل أشخاص آخرون من غير هذه الاسرة ، مثل عدي بن نوفل الذي عاصر عبدالمطلب، وكان يسقي الحجيج في الصفا والمروة لبناً وعسلاً ^{٤٨}.

الطواف والتلبية :

إنّ ما يسترعي الاهتمام وتتنّض فيه هوية الحجّ الجاهلي الحقيقية ، هو محتوى التلبّيات وارتباطها بالاصنام ، إذ لم يكن من حجّهم بكل مظاهره غير حركات عابثة وأفعال لا معنى لها.

فأعمال الحج في واقعها رموز إلهية بروح توحيدية جاءت من الخليل محطم الأصنام ، وأدت الغفلة عنها، والغربة عن أسرارها ورموزها، وعدم فراغ القلب من سوى المطلوب ، والدوران دون حضور القلب ، إلى الخسران .
والأهم من كل ذلك هو الربط بين تلك الرموز والشعائر، في تلك المواقف والمناسك ، وبين العالم الخارجي الذي سيواجهه الحاج في الحج الابراهيمي ، العالم الذي يجب أن يحياه ديناً وقلباً ودنياً وفق نهج إبراهيم (عليه السلام) ومحمد (صلى الله عليه وآله وسلم) أي وفق الاسلام، وبالجمع بين هذه الثلاثة يكون قد سلك النهج الذي أطلقه الخليل (عليه السلام) والحبيب (صلى الله عليه وآله وسلم) .

كان حج المشركين حجاً جاهلياً، إذ كانوا يتوجهون بعد وصولهم مكة إلى الأصنام يظهر لها خضوعهم ، وفي عرفة والمزدلفة ومنى كانوا دائماً بذكرها أو بجوارها، ففي منى وضعت سبعة أصنام بالقرب من الجمرات الثلاث ليعظمها الحجاج بعدها، وكان مكان الأضاحي (الهدي) في منى مليئاً بالانصاب إذ كان المشركون يمسحونها بدماء الأضاحي .

جاء في سيرة ابن هشام نقلاً عن معاوية بن زهير:

فأقسم بالذي قد كان ربِّي وأنصاب لدى الجمرات مُغرٍ^{٤٩}

وبعد انتهاء الحج كانوا ينشرون لباس الاحرام حول الأصنام .

إنّ ما يتحصّل من الأشعار والآثار الجاهلية والباقية ، هو أن أداء المناسك كان يترافق مع التلبية بصوت عال ، وتجدر الإشارة إلى أنّه لم يكن ثمة وجود للتلبية المختصة بحج إبراهيم (عليه السلام) والتي مفادها : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك . . ، بل إنهم غيروا التلبية لتتوافق مع عقيدة الشرك لديهم ، إذ كانت كالاتي :

ليك اللهم ليك ! ليك لا شريك لك ! إلا شريك هو لك ! تملكه وما ملك^{٥٠} !

ويظهر في هذه التلبية الاعتقاد بالشريك ، وقد كشف القرآن الكريم عن عقيدتهم المشركة في قوله تعالى: {وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ}^{٥١} .

وقد اعتبر ابن الكلبي أن هذه التلبية مختصة بترار، بينما رأى ابن اسحاق وابن حبيب أنها مختصة بقريش ، وقال الأزرقى : إنها متعلقة بكل المشركين ، ومما لا شك فيه أن التلبية التي يؤديها أهل الحرم يمكن أداؤها من قبل أهل الحل .

ونقل اليعقوبي والازرقى ، أن كل قبيلة كانت أثناء الحج تهلل حول صنمها حتى تصل مكة ، "ذلك أن عبّاد كل صنم كانوا إذا أرادوا الحج ، إنطلقوا إليه ، وأهلوا عنده ، ورفعوا أصواتهم"^{٥٢} ، وكذلك : "إذا أرادت حج البيت وقفت كل قبيلة عند صنمها، وصلّوا عنده"^{٥٣} .

وكان لعباد كل صنم من القبائل المختلفة تلبيات خاصة ، ومن بين هذه الأصنام كان لكل من اللات والعزى ومناة وهبل وذو خلصة وذو كفين وجهار وذريح وذولبا وسعيدة وشمس ومحرّق ومَرْحَب ونَسْر ويعوق ووَدّ ويعوث تلبية خاصة به ، وهي مذكورة في المصادر التاريخية ، وقد أحجمنا عن إيرادها مراعاة للاختصار .
وعدا هذه الأصنام ، كان لقبائل كنانة وثقيف وهذيل وبجيلة وجُذام وعكّ وأشعر وربيعة وقيس وعيلان وبني أسد وتميم ومذحج وهمدان وبكر بن وائل وبني معدّ وبني نمر أصنامهم ، ولها تلبيات خاصة أيضاً .
وكانوا يصفقون ويصفرون لدى ترديدهم التلبية .

يمكن القول : إن الحج الجاهلي كان مزيجاً من الشرك والتفاخر القبلي ، والأغراض التجارية والأهداف السياسية والقومية ، لذلك سعت كل قبيلة أثناء

الطواف لاستعراض مظاهر هذا المزيج غير المتجانس من خلال رفع الأصوات .

وقد عبر القرآن الكريم عن حركة المشركين هذه لدى الطواف بقوله تعالى :

{وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً} ^{٥٤} .

وبعد منى كان المشركون يتوجهون إلى مكة إذ يبقون فيها ثلاثة أيام ، تسمى بأيام التشريق ، وقد ذكروا أقوالاً في وجه تسميتها: منها طبخ لحم الأضاحي بأشعة الشمس ، ومنها نحر الأضاحي عند طلوع الشمس ، وكانوا يهتمون بهذه الأيام لكنها لم تكن من أركان الحج الاساسية .

كان على غير أهل الحُمس ، أثناء الطواف إما أن يرتدوا ثياباً استعاروها أو استأجروها، وإما أن يطوفوا عراة ، وهذا يتعلق بمن يأتي إلى الحج للمرة الأولى .

وكان أهل الحل يتركون ثيابهم بعد الطواف في محل قرب مكة ، ولا يحق لهم ارتداؤها مرة أخرى ، وتسمى هذه الثياب لَقَى ^{٥٥} ، إذ لا يمكن الاستفادة منها بسبب تعرضها لأشعة الشمس وتغيرات الجو وراثتها.

كان الطواف حول البيت، دون ثياب أمرأ دارجاً وكان يطال حتّى النساء .

فقد نقل أن امرأة جميلة لم تجد ثياباً فاضطرت إلى الطواف عارية ، مما دفع جمعاً كثيراً إلى الاحتشاد لمشاهدتها.

ونقل أيضاً أن بعض المشركين كانوا ينتهزون هذه الأيام ، فيتحلقون حول الكعبة لرؤية هكذا مشاهد، وكان خُفاف بن ثُدبة يسعى لرؤية عشيقته ، وكما قال فإنه استطاع ان يراها عارية في هذه الأيام ، إذ جاء عنه :

وأبدي شهور الحج منها محاسناً ووجها متى يحلل له الطبيب يُشرق ^{٥٦}

ويجب البحث عن جذور هذا الطواف في مصالح الحُمس الذين سعوا

عبر إيجار الثياب ولمرة واحدة ، أن يضمّنوا لأنفسهم مصدراً مالياً، وكان أهل الحل في بعض الأحيان لا يستجيبون لهذا الأمر، إذ كانوا فقراء معدمين من جهة ، وكانوا يرفضون الخضوع لامتياز قريش وقراراتها الاستعلائية من جهة ثانية ، ولما كان الغرض من الحج ترسيخ التقاليد القبلية والجاهلية ، فقد كانوا مستعدين لأن تطوف حتى نساؤهم عاريات .

وحسبما نقل ابن كثير فإن الآية نزلت للحيلولة دون هذا العمل {يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد} . .
٥٧

ووضعوا إساف ونائلة قرب الكعبة ، الأولى بجوارها، والأخرى عند زمزم ، وعلى الحاج أن يبدأ طوافه أولاً من إساف وبعد أن يستلم الحجر الأسود ويختم طوافه ، يستلم الحجر الأسود مرة ثانية ، وبعد ذلك ينتهي طوافه باستلام نائلة .

وحسب تقاليد المشركين لم يكن طواف الحج والعمرة تعبدياً دائماً، إنما كان أحياناً للتعبير عن الغضب والشر وإشهاد البيت على ظلم الأعداء .

" نقل أن أبا جندب بن مرة القردي كان له جار من خزاعة اسمه خاطم ، فقتله زهير اللحياني وقتلوا امرأته ، فلمّا برأ أبو جندب من مرضه خرج من أهله حتّى قدم مكّة ، فاستلم الركن وكشف عن إسته وطاف ، فعرف الناس أنّه يريد شراً " ٥٨ .

كان السعي بين الصفا والمروة جزءاً من الطواف عند الحُمس وربما عند غيرهم ، ولكن لم يؤده جميع المشركين . وكان السعي بين الصفا والمروة من شعائر الخليل (عليه السلام) إلّا أنّه ترك ومسح ، وبعد ظهور الاسلام وفتح مكة أمر رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلّم) بادائه إذ قال تعالى:

{إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ، فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا . . . }^{٥٩} .

الهوامش :

- (١) الوثنية في الأدب الجاهل ، الدكتور عبد الغني زيتوني : ٢٧٣ .
- (٢) الحج : ٢٦—٢٧ .
- (٣) تاريخ العرب قبل العروبة الصريحة في جزيرة العرب ، محمد عزة دروزة : ١١٥—١١٦ .
- (٤) Booth, the historical library of diodorus the sicilian P. ١٠٥
- (٥) تاريخ العرب في الاسلام : ٤٥ — ٤٧ .
- (٦) نفس المصدر : ٤٧ — ٤٨ .
- (٧) تاريخ الجاهلية ، الدكتور عمر فروخ : ١٠٩ .
- (٨) الشورى : ٧ .
- (٩) محمد : ١٣ .
- (١٠) الزخرف : ٣١ .
- (١١) Encyclopaedia of religion and ethics, by Hasting Vol. ٨, P. ٥١١
- (١٢) مروج الذهب ٢ : ١٦٤ .
- (١٣) تاريخ العرب في الاسلام : ٤٨ — ٤٩ .
- (١٤) القبرة : ١٤٤ .
- (١٥) كتاب الاصنام ، ابو منذر هشام بن محمد الكلبي : ٦ .
- (١٦) نفس المصدر .
- (١٧) نفس المصدر .
- (١٨) الوثنية في الادب الجاهلي : ٢٨٢ — ٢٨٤ واسواق العرب في الجاهلية والاسلام ، سعيد الافغاني : ٢٤٩ — ٢٥٠ .
- (١٩) البيان والتبيين ، الجاحظ ٣ : ٩٥ .
- (٢٠) ديوان امية بن أبي الصلت : الدكتور عبد الحفيظ السطلي : ٥١٨ .
- (٢١) في طريق الميثولوجيا عند العرب ، محمد سليم الخوت : ١٥٠ .
- (٢٢) معجم البلدان ٤ : ١١٧ .
- (٢٣) Encyclopaedia of islam vol, ٣. P. ٣٢
- (٢٤) الوثنية في الادب العربي : ٢٨٧ .
- (٢٥) نفس المصدر : ٢٨٩ .
- (٢٦) السيرة النبوية لابن هشام ١ : ١١٩ .
- (٢٧) صحيح البخاري ٤ : ٢٠١ .

- (٢٨) اخبار مكة ٢ : ١٥٤ .
- (٢٩) الوثنية في الادب الجاهلي : ٢٩٣ .
- (٣٠) السيرة النبوية لابن هشام ١ : ١٢٠ .
- (٣١) المفصليات ، الضبي : ١١١ .
- (٣٢) معجم الشعراء ، المرزباني : ٢٩٤ .
- (٣٣) تاريخ العروس ٣ : ٤٨٦ .
- (٣٤) كتاب الاصنام : ١٤ .
- (٣٥) السيرة النبوية لابن هشام ١ : ١٩٩ .
- (٣٦) المحبر ، ابن حبيب : ١٧٨ .
- (٣٧) القاموس الخيط ، مادة حمس .
- (٣٨) البقرة : ١٩٩ .
- (٣٩) المحبر : ١٨٠ والسيرة النبوية لابن هشام ١ : ٢٠٢ .
- (٤٠) البقرة : ١٨٩ .
- (٤١) الوثنية في الأدب الجاهلي : ٣٠٤ — ٣٠٥ .
- (٤٢) السيرة النبوية لابن هشام ١ : ٢٠٢ .
- (٤٣) المحبر : ١٨٠ .
- (٤٤) الوثنية في الأدب الجاهلي : ٣٠٨ .
- (٤٥) المحبر : ١٨١ .
- (٤٦) صحيح البخاري ٢ : ١٧٠ — ١٧٥ .
- (٤٧) الوثنية في الادب الجاهلي : ٣١٣ ، نقلاً عن اخبار مكة .
- (٤٨) نفس المصدر : ٣١٥ .
- (٤٩) نفس المصدر : ٣١٩ و ٣١٠ the life of muhammad, A. H. SIDDIGHI p.
- (٥٠) كتاب الاصنام : ٧ .
- (٥١) يوسف : ١٠٦ .
- (٥٢) اخبار مكة ، الازرقى ١ : ٧٥ .
- (٥٣) تاريخ يعقوبي ١ : ٢٩٦ .
- (٥٤) الانفال : ٣٥ .
- (٥٥) السيرة النبوية لابن هشام ١ : ٢٠٢ .
- (٥٦) الوثنية في الادب العربي ٢٣٩ — ٢٤٠ .
- (٥٧) الاعراف : ٣٠ .
- (٥٨) خزنة الأدب ، البغدادي ١ : ٢٩٢ .
- (٥٩) البقرة : ١٥٨ .

المصادر

- أخبار مَكَّة ، الأزرقى (مَكَّة مَكْرَمَة ، الماجدية ، ١٣٥٢).
- أسواق العرب في الجاهلية والإسلام ، سعيد الأفغاني (دمشق ، ١٩٢٧) .
- البيان والتبيين، ابو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون (بيروت ، دار الفكر، ١٤١٠) .
- تاج العروس من جواهر القاموس ، محمد بن مرتضى الزبيدي (بيروت ، دار مكتبة الحياة ، بدون تاريخ) .
- تاريخ الجاهلية ، الدكتور عمر فروخ (بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٨٤) .
- تاريخ العرب في الإسلام ، الدكتور جواد علي (بيروت ، دار الحداثة ، ١٩٨٤) .
- تاريخ العرب قبل العروبة الصريحة في جزيرة العرب ، محمد عزة دروزة (صيدا، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، ١٣٧٦) .
- تاريخ اليعقوبي ، ابن واضح اليعقوبي (بيروت ، دار العراق ، ١٩٠٠) ..
- خزانة الأدب ولُبُّ لُباب لسان العرب ، عبد القادر بن عمر البغدادي ، تحقيق وشرح ، عبد السلام محمد هارون (القاهرة ، مكتبة الخانجي ، ١٤٠٩) .
- ديوان أمية بن أبي الصلت ، جمع وتحقيق ودراسة ، الدكتور عبد الحفيظ السطلي (دمشق ، مكتبة أطلس ، ١٩٧٧) .
- السيرة النبوية ، لابن هشام ، تحقيق ، مصطفى السقا ، ابراهيم الأبياري ، عبد الحفيظ شلبي (القاهرة ، الباي الحلبي ، ١٩٥٥) .
- صحيح البخاري ، محمد بن إسماعيل (القاهرة ، مطابع دار الشعب ، ١٣٧٨) .

- في طريق الميثولوجيا عند العرب ، محمود سليم الحوت (بيروت ، دار النهار للنشر، ١٩٨٣) .
- القاموس المحيط ، الفيروز آبادي (بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٦) .
- كتاب الأصنام ، أبو منذر هشام بن محمد الكلبي ، تحقيق ، أحمد زكي باشا (القاهرة ، دار الكتب المصرية ، ١٩٢٤)
- المُحَبَّر، أبو جعفر محمد بن حبيب ، تصحيح ، الدكتورة إيلزه ليختن شتير (بيروت ، دار الآفاق الجديدة ، بدون تاريخ)
- مُروج الذهب ومعادن الجوهر، المسعودي ، تحقيق وتصحيح ، شارل بلا (بيروت ، منشورات الجامعة اللبنانية ، ١٩٦٥)
- معجم البلدان ، ياقوت الحموي ، تحقيق فريد عبد العزيز الجُندي (بيروت دار الكتب العلمية ، ١٤١٠) .
- معجم الشعراء ، المرزباني ، أبو عبيد الله محمد بن عمران ، تحقيق ، عبد الستار أحمد فراج (دمشق ، مكتبة النوري ، بدون تاريخ) .
- المفضَّلَات ، المفضل الضبي ، تحقيق وشرح ، أحمد محمد شاكر، عبد السلام هارون (القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٧٦) .
- الوثنية في الأدب العربي ، الدكتور عبد الغني زيتوني (دمشق ، وزارة الثقافة ١٩٨٧) .

Encyclopaedia of Islam (Leiden, E.j.Brill, ١٩٨٦)

Encyclopaedia, of religion and ethics by James Hasting (Edinburgh, T. & T.cIark, ١٩٨٠)

The life of Muhammad, AbdulHamid SiddiQui (Islamic Publication Limited Pakistan, ١٩٨١) .

وقفة فاحصة عند لفظة " فلا جناح عليه "

من آية السعي (البقرة : ١٥٨)

تأليف : محمد هادي معرفة

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى محمد وآله الطاهرين .
قال تعالى : { إِنَّ الصفا والمروة من شعائر الله . فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما . ومن تطوع خيراً فإن الله شاكر عليم } .
لا شك أن السعي بين الصفا والمروة ، فريضة واجبة ، وشرطٌ حتمٌ أي ركن في الحج وكذا في العمرة ، سواء أكانت مفردة أم متمتعاً بها الى الحج .
ولفظة {فلا جناح} تعني عدم البأس ، وهذا يعني الترخيص في الفعل فحسب دون اللزوم ، فما وجه هذا التعبير الموهم خلاف المقصود؟

الجناح : الأثم ومنها لا جناح عليك .
وقد حاول المفسرون ومن ورائهم الفقهاء ، محاولاتٍ شتى في حلّ هذا المُشكل وتوجيه هذا المعضل .
قال الامام الرازي : ظاهر قوله تعالى : {فلا جناح عليه} انه لا إثم عليه . والذي يصدق انه لا إثم في فعله ، يدخل تحته الواجب والمندوب والمباح ،

ثم يمتاز كل واحد من هذه الثلاثة عن الآخر بقيد زائد .

فإذاً ظاهر هذه الآية لا يدل على أن السعي بين الصفا والمروة واجب أو ليس بواجب ، لأن اللفظ الدال على القدر المشترك بين الأقسام لا دلالة فيه ألينة على خصوصية ، فلا بُدَّ في فهم الخصوصية من الرجوع الى دليل آخر .

١ .

وأخرج الطبري ؛ بإسناده عن عروة بن الزبير، قال : سألت عائشة : رأيت قول الله : فلا جناح عليه أن يطوفَ بهما . . والله ما على أحد جناح أن لا يطوف بالصفا والمروة ! فقالت عائشة : بنس ما قلت يا ابن أخي . إن هذه الآية لو كانت كما أولتها، كانت لا جناح عليه أن لا يطوفَ بهما . . . قالت : نزلت الآية في الأنصار، كانوا قبل أن يسلموا يهلّون لمناة . . . وكان من أهل لها يتخرج أن يطوف بين الصفا والمروة . . فسألوا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عن ذلك ، فنزلت الآية .

قالت : وقد سنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) الطواف بينهما، فليس لأحد ان يترك الطواف بينهما .

٢ .

فقد أقرت ان الآية بذاتها لا تدل على الوجوب ، غير أن عمل الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وسنته في الالتزام كان دليلاً على وجوب الإتيان به .

وأخرج الترمذي بإسناده عن سفيان قال : سمعت الزُّهري يحدث عن عروة ، قال : قلت لعائشة : ما أرى على أحد لم يطف بين الصفا والمروة شيئاً، وما أبالي أن لا أطوف بينهما. فقالت : بنس ما قلت يا ابن أخي . طاف رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وطاف المسلمون — وساق الحديث الى قولها — ولو كانت كما تقول لكانت فلا جناح عليه أن لا يطوفَ بهما . .

قال الزُّهري : فذكرت ذلك لأبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن

هشام ، فأعجبه ذلك ، وقال : إنَّ هذا لَعِمٌّ . ولقد سمعتُ رجلاً من أهل العلم يقولون : إنما كان من لا يطوف بين الصفا والمروة من العرب ، يقولون : إن طوافنا بين هذين الحَجَرَيْن من أمر الجاهليَّة . وقال آخرون من الأنصار : إنا أُمِرنا بالطواف بالبيت ولم نُؤمر به بين الصفا والمروة فأنزل الله الآية قال أبوبكر بن عبد الرحمن فأراها نزلت في هؤلاء وهؤلاء . . .

قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح ^٣ .

وأورد القرطبي الحديث في تفسيره ، ثم قال : وأخرجه البخاري بمعناه ، وفيه : أن أبابكر بن عبد الرحمن قال : إنَّ هذا لَعِلِّمٌ ما كنتُ سمعته . . . ^٤ .

ثم نقل القرطبي تحقيقاً لابن العربي حول تأويل عائشة لهذه الآية ، قال : وتحقيق القول فيه ان قول القائل : لا جناح عليك أن تفعل ، إباحة الفعل . وقوله : لا جناح عليك أن لا تفعل ، إباحة لترك الفعل . فلما سمع عروة الآية : { فلا جناح عليه ان يطوّف . . . } زعم ان ترك الطواف جائز . ثم لما رأى الشريعة مطبقة على أن لا رخصة في ترك الطواف رأى تعارضاً ، فطلب الجمع بين هذين المتعارضين . فنبهته عائشة على أن الآية لا تدل على جواز ترك الطوف ، وإنما كانت تدل على ذلك إذا كانت : " لا جناح عليه أن لا يطوف " . فلم يأت هذا اللفظ لا بإباحة ترك الطواف ، ولا فيه دليل عليه . وإنما جاء لا فائدة إباحة الطواف لمن كان يتحرّج منه . . . ^٥ .

غير أن جماعة من أهل الجُمُود في النظر، صمدوا على إرادة جواز الترك ، ومن ثم نسبوا الى بعض كبار الصحابة والتابعين أيضاً أنهم قرءوا : " فلا جناح عليه أن لا يطوّف بهما " .

فقد أخرج الطبري بإسناده عن أبي عاصم قال : حدثنا ابن جُرَيْج قال : قال عطاء : لو أن حاجاً أفاض بعد ما رمى جمرَةَ الْعَقْبَةِ ، فطاف بالبيت ولم يسع ، فأصاب امرأته ، لم يكن عليه شيء ، لا في حج ولا في عمرة . من أجل

قول الله — كما في مصحف ابن مسعود — : " فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن لا يطوفَ بهما " .
قال : فعادته بعد ذلك ، فقلت : إنه قد ترك سنة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : قال : ألا تسمعه يقول :
" فمن تطوع خيراً " ، فأبي أن يجعل عليه شيئاً . . فقد أخذ التطوع بمعنى التبرع .
وأيضاً أخرج عن سفيان عن عاصم الأحول قال : سمعت أنساً يقول : الطواف بينهما تطوع . . أي تبرع
ومندوب اليه .

وروى نحوه عن مجاهد ، قال : لم يُحرَج من لم يطف بهما . . أي لم يأت إثمًا ، لأنه غير واجب .
وروى عن عطاء عن عبد الله بن الزبير ، قال : هما تطوع . . أي الطواف بينهما . .
وذكر القرطبي أنه في مصحف أبي كذلك أي : أن لا يطوف بهما . . كما نسب الى ابن عباس أيضاً أنه قرأ
كذلك ^٧ .

قال القرطبي : اختلف العلماء في وجوب السعي بين الصفا والمروة ، فقال الشافعي وابن حنبل : هو ركن .
وهو المشهور من مذهب مالك . . . وقال أبو حنيفة وأصحابه والثوري والشافعي : ليس بواجب ، فان تركه أحد من
الحاج حتى يرجع الى بلاده ، جبره بالدم . لأنه سنة من سنن الحج . وهو قول مالك في " العُتْبِيَّة " (كتاب في مذهب
الامام مالك — كتبه محمد بن أحمد العتبي القرطبي) . . ^٨ .

وذكر البيضاوي — في التفسير — الاجماع على أنه مشروع في الحج والعمرة ، وإنما الخلاف في وجوبه ، فعن
احمد أنه سنة ، وبه قال أنس وابن عباس . لقوله تعالى : { فلا جناح عليه . . } فإنه يفهم منه التخيير . قال : وهو
ضعيف ، لان نفي الجناح يدل على الجواز ، الداخِل في معنى الوجوب ، فلا يدفعه . وعن

أبي حنيفة أنه واجب ، يجبر بالدم . وعن مالك والشافعي أنه ركن . . .^٩ .

وذكر ابن قدامة عن أحمد روايتين ، أحدهما : إنه ركن لا يتم الحج إلا به . والثانية : أنه سنة لا يجب بتركه دم . ثم رجح مذهب أبي حنيفة ، أنه يجبر بدم ، قال : وقول عائشة في ذلك — بكونه ركناً — معارض بقول من خالفها من الصحابة . . .^{١٠} .

قال الرازي : احتج أبو حنيفة لعدم الركنية بوجهين ، أحدهما هذه الآية {فلا جناح} ، قال : وهذا لا يقال في الواجبات . وقد أكدّه تعالى بقوله : {ومن تطوَّع خيراً} . . . {فبين أنه تطوَّع وليس بواجب . وثانيهما قوله (صلَّى الله عليه وآله وسلَّم) : " الحجُّ عرفة " ، ومن أدرك عرفة فقد تم حجّه . . . " .

ثم أخذ في الرد على الوجهين ، ودعم مذهب غيره^{١١} .

قال الشيخ أبو جعفر الطوسي في كتاب الخلاف :

السعي بين الصفا والمروة ركن لا يتم الحج إلا به . فان تركه أو ترك بعضه ولو خطوة واحدة ، لم تحل له النساء ، حتى يأتي به . . .

قال : وعلى ذلك إجماع فقهاء الامامية . وقد فعله النبي (صلَّى الله عليه وآله وسلَّم) وأمرنا بالاعتداء به : " خذوا عني مناسككم " . وقال : " إن الله كتب عليكم السعي . . . " ومعناه : فرض . . .^{١٢}

قلت : لا شك أن السعي بين الصفا والمروة ، ركن من أركان الحج والعمرة . وعلى ذلك دلَّت الآثار ، وعليه استمرت سيرة المسلمين المتلقاة من فعل رسول الله (صلَّى الله عليه وآله وسلَّم) وآله الأطهار وصحابته الأخيار .

أمّا الآية الكريمة — صدرأ وذيلأ — فلا صلة لها بمسألة وجوب السعي أو نديه أو إباحته ونحو ذلك من الأحكام التكليفية أو الوضعية . وإنما هي : دفع لتوهم الخطر — على ما اصطلاح عليه علم الأصول .

وذلك أن الآية نزلت في عمرة القضاء^{١٣} ، كان رسول الله (صلَّى الله

عليه وآله وسلّم) قد شرط على المشركين — ضمن شروط عقد عليها صلحُ الحديبية سنة ستّ من الهجرة — : أنه في العام القابل يأتي هو وأصحابه لأداء العمرة ، على أن يرفعوا الأصنام التي كان المشركون وضعوها حول البيت ، وعلى جبلي الصفا والمروة ، لمدة ثلاثة أيام ، ليقوم المسلمون بأداء مناسكهم خلالها .
وكان المشركون قد وضعوا على جبل الصفا صنماً يقال له : أساف . وعلى المروة : نائلة . كانوا إذا سعوا التمسوا أعتابهما

ثم لما قدم النبي (صلى الله عليه وآله وسلّم) وأصحابه لأداء العمرة سنة سبع من الهجرة ، ورفع المشركون أصنامهم من البيت والمسعى ، أحرم هو وأصحابه وطاف بالبيت وسعى ، تخلف بعض أصحابه بسبب تشاغلهم ببعض شؤونهم الخاصة ، فلم يتمكنوا من السعي خلال الأيام الثلاثة ، فأعاد المشركون أصنامهم ، ومن ثمّ تخرج هؤلاء المختلفون عن أداء السعي ، ظناً منهم أنّ وجود الأصنام يتنافى وأداء عبادة السعي لله خالصةً . فترلت الآية دفعاً لتوهم الخطر ورفعاً لظنّ المنافاة . . . كما ورد في الحديث عن الإمام الصادق (عليه السلام) فقد روى أبو النضر محمد بن مسعود العياشي السمرقندي بإسنادٍ رفعه إلى الإمام أبي عبد الله جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام) ، سئل عن السعي بين الصفا والمروة ، فريضة هو أو سنة ؟ فقال : فريضة ! فقليل له : أليس يقول الله تعالى : {فلا جناح عليه أن يطوّف بهما}؟

قال : كان ذلك في عمرة القضاء ، وذلك أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلّم) كان شرط عليهم أن يرفعوا الأصنام ، فتشاغل بعض أصحابه حتى أعيدت . فجاءوا إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلّم) يسألونه الحال . . . فترلت الآية . . ١٤

أي لا حرج بذلك ، لأن السعي إنما يقع لله ، والأعمال بالنيّات . فلا

منافاة بين وجود الأصنام ووقوع السعي لله عز وجل . . والصفاء والمروءة من شعائر الله، لا يتلوثان بوضع الأصنام عليهما . . .

وقوله تعالى : {ومن تطوَّع خيراً فإن الله شاكر عليم} .

يعني : أن الله : ينظر الى قلوبكم وتبّاتكم في ضمائركم ، فإن كان العمل الذي يقوم به العامل، خيراً وكان قاصداً به الله ، فالله يشكره عليه ، وهو أعلم بما في الصدور .

{إن يعلم الله في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً} ^{١٥} .

{والله يعلم ما في قلوبكم وكان الله عليماً حكيماً} ^{١٦} .

فمعنى تطوَّع خيراً القيام بالطاعة عن نيّة صادقة لله تعالى . وهذا المعنى لا يستدعي أن يكون العمل الذي يتطوَّع به العامل ، مندوباً إليه فقط ، بل الواجب أيضاً كذلك ، فهو من الخير الذي ينبغي الأداء به عن تطوَّع ، أي عن رغبة في الخير واستسلام لله عز وجل . . .

الهوامش :

(١) التفسير الكبير ٤ : ١٥٩ .

(٢) تفسير الطبري ٢ : ٢٩ .

(٣) جامع الترمذي ٥ : ، كتاب التفسير ٤٨ : ٢٠٨ — ٢٠٩ / ٢٩٦٥ .

(٤) تفسير القرطبي ٢ : ١٧٨ .

(٥) تفسير القرطبي ٢ : ١٨٢ .

(٦) تفسير القرطبي ٢ : ٣٠ .

(٧) القرطبي ٢ : ١٨٢ .

(٨) تفسير القرطبي ٢ : ١٨٣ .

(٩) تفسير البيضاوي ١ : ٢٠٢ . وهكذا قال محمد رشيد رضا : روى عن أحمد أنه مندوب (المنار ٢ : ٤٥) .

(١٠) المغني لابن قدامة ٣ : ٤٠٧ — ٤٠٨ .

(١١) التفسير الكبير ٤ : ١٦٠ .

(١٢) الخلاف ١ : ٤٤٩ ، م ١٤٠ من كتاب الحج .

(١٣) وسميت عمرة القضاء ، لأنها وقعت شرطاً في عقد الصلح الذي ابتداء . بلفظ : هذا ما قضى به . . .

(١٤) تفسير العياشي ١ : ١٣٣/٧٠ .

وراجع : التبيان ، للشيخ أبي جعفر الطوسي ٢ : ٤٤ ، ومجمع البيان للطبرسي ١ : ٢٤٠ ، والميزان ، العلامة الطباطبائي ١ : ٣٩١ والصافي ، الفيض الكاشاني ١ : ١٥٤ ، وكتر الدقائق ، المشهدي ١ : ٣٨٤ ، وتفسير أبي الفتوح الرازي ١ : ٣٩١ .

(١٥) الأنفال ٨ : ٧٠ .

(١٦) الأحزاب ٣٣ : ٥١ .

فقه الحج الاستدلالي المقارن

وجوب الحج وفوريته في دراسة استدلالية

مقارنة

تأليف : محسن الأراكي

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين
نتناول في بحثنا هذا فقه الحج على ضوء الاستدلال ، مقارناً بين أهم المذاهب الفقهية وخاصة المذاهب الخمسة
التي عليها مدار العمل بين الاكثرية الساحقة للمسلمين ، وهي المذاهب الجعفري ، والحنفي ، والحنبلي ، والمالكي ،
والشافعي ، وعلى الله نتوكل وبه نستعين .
إن بحثنا عن فقه الحج يقع ضمن فصول :

الفصل الأول :

وجوب الحج وما يتعلق به

وجوب الحج اجمالاً مما اتفقت عليه كلمة المسلمين بطوائفهم كافة ، ويعتبر من الضروريات التي لا حاجة فيها إلى
إقامة الدليل ، ومن طلب الدليل يكفيه بعد الاجماع ، دليل الكتاب وهو قوله تعالى : { **ولله على الناس حج البيت من
استطاع اليه سبيلاً** }^١ ومن السنة الاحاديث المتواترة تفصيلاً أو اجمالاً مثل ما رواه الفريقان من ان الاسلام بني على
خمس — منها — الحج^٢ .

ولا فرق في وجوبه بين الذكر والانثى والخنثى لاطلاق أدلة الوجوب وعدم ما يدل على التقييد .
ثم إن هاهنا مسائل :

المسألة الأولى : لا يجب الحج — بشرائطه — إلا مرة واحدة في العمر، قام على ذلك اجماع المسلمين ، قال في الجواهر: "ولا يجب باصل الشرع إلا مرة واحدة اجماعاً بقسميه من المسلمين"^٣ وقال ابن قدامة المقدسي : " واجمعت الأمة على وجوب الحج على المستطيع في العمر مرة واحدة"^٤ ولم يخالف في ذلك إلا الصدوق في العلل فانه قال : "والذي اعتمده وافتي به ان الحج على اهل الجدة في كل عام فريضة "^٥ وقد استدلل لذلك بما رواه باسناده عن أبي جرير القمي عن ابي عبدالله (عليه السلام) قال : "الحج فرض على اهل الجدة في كل عام"^٦ بروايتين أخيرين ضعيفتي السند قريبتين الى هذه الرواية في المضمون .

ويكفي حجة عليه الاجماع الذي اشرنا إليه وبه يسقط الاستدلال بالرواية لضرورة حملها على ما لا يخالف اجماع عليه أو رفع اليد عنها، اصف إلى ما ورد في الروايات المستفيضة من التصريح بعدم وجوبه اكثر من مرة واحدة مثل ما رواه البرقي في الصحيح عن علي بن الحكم ، عن هشام بن سالم عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال : "ما كلف الله العباد إلا ما يطيقون — الى ان قال — وكلّفهم حجة واحدة وهم يطيقون أكثر من ذلك ، الحديث "^٧ .
وروى الصدوق باسناده عن الفضل بن شاذان عن الرضا (عليه السلام) قال : "انما امرؤا بحجة واحدة لا اكثر من ذلك"^٨ .

وروى ايضاً باسناده عن محمد بن سنان : أن أبا الحسن الرضا (عليه السلام) كتب إليه فيما كتب من جواب مسائله : "علة فرض الحج مرة واحدة لان الله تعالى وضع الفرائض على أدنى القوم قوة ، فمن تلك الفرائض الحج

المفروض واحداً، ثم رغب أهل القوة على قدر طاقتهم^٩.

وهذه الروايات صريحة في عدم وجوب الاكثر من مرة واحدة بخلاف الروايات التي استند إليها الصدوق في القول بالوجوب في كل عام ، فإن غاية دلالتها الظهور، وروايات المرة اظهر منها دلالة بل هي صريحة غير قابلة للحمل على معنى آخر.

ويمكن حمل روايات الوجوب في كل عام على ارادة الوجوب على طريق البدل ، وأن من وجب عليه الحج في السنة الأولى فلم يفعل وجب في الثانية .

وهذا ما قام به الشيخ الطوسي ، وان كان الاقوي حملها على ما حملها عليه صاحب الوسائل من ارادة الوجوب الكفائي ، وأن من الواجب على المسلمين كفاية ان يحجوا بيت الله الحرام في كل عام ، وأنه لا يجوز لهم ترك الحج بما يؤدي الى تعطيل بيت الله الحرام ولو لسنة واحدة ، وقد وردت روايات متعددة — فيها روايات صحيحة السند — تؤكد هذا المضمون :

فقد روى الكليني في الصحيح عن الحسين الأحمسي عن ابي عبدالله (عليه السلام) قال : " لو ترك الناس الحج لما نوطروا العذاب ، أو قال: لتزل عليهم العذاب"^{١٠}.

وفي رواية اخرى عن حماد عن ابي عبدالله (عليه السلام) قال : كان علي صلوات الله عليه يقول لولده : " يا بني انظروا بيت ربكم فلا يخلون منكم فلا تناظروا " ^{١١}.

وفي الصحيح ايضاً عن عبدالله بن سنان عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال : " لو عطل الناس الحج لوجب على الامام ان يجبرهم على الحج ان شاءوا وان أبوا، فان هذا البيت انما وضع للحج " ^{١٢}.

وفي صحيحة أخرى عن ابي عبدالله (عليه السلام) قال : " لو ان

التاس تركوا الحج لكان على الوالي ان يجبرهم على ذلك ، وعلى المقام عنده ، ولو تركوا زيارة النبي صلى الله عليه وآله لكان على الوالي ان يجبرهم على ذلك وعلى المقام عنده ، فان لم يكن لهم اموال انفق عليهم من بيت مال المسلمين " ١٣ .

وهذه الروايات كالصريحة في الدلالة على وجوب الحج كفاية في كل عام ، فتكون قرينة على صرف روايات الوجوب في كل عام — بعد تعارضها مع روايات المرة — إلى ارادة الوجوب الكفائي ، وبذلك يتم الجمع بين المتعارضين .

وقد اعترض صاحب الجواهر — قدس سره — على القول بالوجوب الكفائي المذكور " بانه خلاف الاجماع ، وان النصوص الدالة على ان الامام يجبر المسلمين على الحج ان تركوه خارجة عما نحن فيه من الوجوب كفاية على خصوص اهل الجدة المستلزم لكون من يفعله من حج في السنة السابقة منهم مؤدياً لواجب ، ولو كان مع من لم يحج منهم ، وقد صرحت النصوص بان ما عدا المرة تطوَّع " ١٤ .

والجواب عنه : ان مقتضى الجمع بين روايات الوجوب في كل عام ، وروايات الوجوب مرة واحدة ، بروايات حرمة تعطيل بيت الله الحرام عن الحجيج ، حمل روايات الوجوب مرة على صورة عدم لزوم التعطيل وحمل روايات الوجوب في كل عام على صورة لزوم التعطيل ويكون حاصل الجمع حينئذٍ : ان الحج لا يجب على اهل الجدة اكثر من مرة واحدة في العمر لكن بشرط عدم لزوم التعطيل ، فان لزم التعطيل وجب عليهم الحج مرة اخرى حتى لا يلزم التعطيل ، وكلما لزم من عدم حج اهل الجدة تعطيل بيت الله الحرام لزم عليهم ان يحجوا وان كانوا قد اتوا بحجة الاسلام قبل ذلك .

وليس في هذا شيء يخالف الاجماع ، فليس القول بوجوب الحج في كل عام على اهل الجدة مطلقاً ليلزم منه في الاحوال العادية ان يكون من حج اولاً

من اهل الجدة اذا حج مرةً اخرى مؤدياً للواجب الكفائي رغم أن النصوص صرحت بان ما عدا المرة تطوّع ، فإنّ هذه النصوص ناظرة الى القضية الخارجيّة والاحوال المتعارفة خارجاً ، والتي يتقاطر فيها الحجيج الى بيت الله الحرام من كل حد وصوب ، وأما نصوص وجوب الحج على اهل الجدة في كل عام فانما تنظر الى القضية الحقيقية إلى أصل وجوب الحج بشكل عام ، فهي تنظر إلى الفريضة بطبيعتها وعلى نحو القضية الحقيقية .

ثم ان مقتضى الروايات الدالة على حرمة تعطيل بيت الله عن الحجيج الوجوب الكفائي على المسلمين عامة ، وانما قيد الوجوب الكفائي بخصوص اهل الجدة للدالة الدالة على التقييد كقوله تعالى : ﴿من استطاع اليه سبيلاً . . .﴾ . وغير ذلك كالرواية التي دلت على ان الحج فرض على اهل الجدة في كل عام . وأما في صورة عدم وجود المستطيع ، فقد دلت الرواية على أن من واجب الإمام بذل المال للناس ليستطيعوا فحجّوا . وهذا يدل على توجه وجوب آخر على الحاكم الإسلامي يلزمه إقامة هذا الشعار الإلهي العظيم ، وهذا من واجبات الحاكم الإسلامي وهو خارج عن موضوع بحثنا هنا .

هذا ونختم الكلام في هذا الموضوع بما دل على عدم وجوب الحج اكثر من مرة من صحيح مسلم باسناده عن ابي هريرة قال : خطبنا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال : " ايها الناس قد فرض الله عليكم الحج فحجّوا ، فقال رجل : أكلّ عام يا رسول الله؟ فسكت حتى قالها ثلاثاً ، فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : لو قلت نعم لوجبت ، ولما استطعتم ، ثم قال : ذروني ما تركتكم ، فانما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على انبيائهم ، فاذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم ، واذا نهيتكم عن شيء فدعوه " ١٥ .

المسألة الثانية : تجب العمرة على المستطيع — كالحج — في العمر مرة واحدة ، بلا خلاف بين اصحابنا بل ادعى في التذكرة عليه الاجماع ، وقال السيد الخوئي (ره) كما جاء في تقرير بحثه — : " لا خلاف بين الفقهاء في وجوب العمرة على كل مكلف بشرائط وجوب الحج وجوباً مستقلاً كالحج في العمر مرة واحدة ، وقد ادعى صاحب الجواهر الاجماع بقسميه على ذلك " ^{١٦} .

وقال العلامة في التذكرة : " وبه قال علي وعمروابن عباس وزيد بن ثابت وابن عمر وسعيد بن المسيب ، وسعيد بن جبير وعطاء وطاؤس ومجاهد والحسن البصري وابن سيرين والشعبي والثوري واسحق والشافعي في الجديد واحمد في احدى الروايتين " ^{١٧} .

وقال آخرون : ان العمرة ليست واجبة ، وبه قال مالك وابو حنيفة وابو ثور ، وحكاه ابن المنذر وغيره عن النخعي ^{١٨} ، قيل : وروي عن ابن مسعود ^{١٩} ، وبه قال الشافعي في القديم ، واحمد في الرواية الثانية ^{٢٠} .

دليلنا : بعد الاجماع ، من الكتاب قوله تعالى : { **واتموا الحج والعمرة لله** } ^{٢١} فان المراد بالاتمام : الأداء أو الإتيان الكامل غير المنقوص والأمر يدل على الوجوب فتكون الآية دليلاً على وجوب كل من الحج والعمرة .
وقد روى في الصحيح عن أبي عبدالله الصادق (عليه السلام) في قوله تعالى : { **واتموا الحج والعمرة لله** } قال : يعني بتمامهما : اداء هما " ^{٢٢}

وقد ذكر الزمخشري في الكشف ^{٢٣} في معنى الآية : ايتوا بهما تامين كاملين بمناسكهما وشرائطهما لوجه الله من غير توان ولا نقصان يقع منكم فيهما . ثم قال : فان قلت : هل فيه دليل على وجوب العمرة ؟ قلت : ما هو إلا أمر باتمامهما ولا دليل في ذلك على كونهما واجبين او تطوعين ، فقد يؤمر باتمام الواجب والتطوع جميعاً . الا ان نقول : الامر باتمامهما امر بادائهما بدليل قراءة من قرأ واقيموا الحج والعمرة ، والامر للوجوب في اصله الا أن يدل دليل على خلاف

الوجوب كما دل في قوله — فاصطادوا، فانتشروا ونحو ذلك — فيقال لك ، فقد دل الدليل على نفي الوجوب وهو ما روي انه قيل "يا رسول الله العمرة واجبة مثل الحج؟ قال : لا، وان تعتمر خير لك" وعنه "الحج جهاد والعمرة تطوع".

ويرد عليه : ان الامر للوجوب كما ذكر وما استشهد به على نفي ارادة الوجوب لا يحتج به لقصوره دلالة وسنداً، ولمعارضة باحاديث أخرى رواها اصحاب السنن ، والمعارض اقوى سنداً ودلالة ، وعلى فرض التكافؤ يتساقط الدليلان المتعارضان وتبقى الآية حجة على الوجوب .

ام قصور الشاهد — على نفي الوجوب — دلالة ، فلأن النفي في الحديث الأول نفي لمثلية العمرة للحج في الوجوب ، فلا تدل على نفي اصل الوجوب واما الحديث الثاني فليس فيه ما يدل على نفي الوجوب غير التعبير بالتطوع ، وهو غير صريح في نفي الوجوب .

بل ولا اقوى ظهوراً في نفي الوجوب من ظهور الامر في الآية في الوجوب . فلو سلمنا ظهور التطوع في المندوب لزمنا رفع اليد عن هذا الظهور بظهور الآية في الوجوب ، لأن الآية ذكرت الحج الى جانب العمرة ولا شك في وجوب الحج ، ولا يستعمل اللفظ الواحد في معنيين باستعمال واحد، لامتناع ذلك ، فذكر الحج بنفسه قرينة قطعية على ارادة الوجوب من الامر بالإنتمام ، فيكون الامر دالاً على وجوب العمرة ايضاً.

والحاصل ان القرينة الموجبة لرفع اليد عن ظهور ذي القرينة لا بُدَّ ان تكون اقوى دلالة من ذي القرينة ، وفيما نحن فيه ليس الامر كذلك ، فإن دلالة ذي القرينة وهي الآية على وجوب العمرة اقوى من دلالة القرينة وهو الحديث المذكور على نفي الوجوب .

واما قصور الشاهد سنداً فقد روى البيهقي الحديث الأول باسناده عن

الحجاج بن ارطاة عن محمد بن المنكدر عن جابر ان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) سئل عن العمرة أواجبة؟ قال : " لا وان تعتمر خير لك " قال البيهقي : كذا رواه الحجاج بن ارطاة مرفوعاً وقد اخبرنا ابو عبدالله الحافظ ، ثم ذكر اسناده إلى يحيى بن ايوب قال : اخبرني ابن جريح والحجاج بن ارطاة عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه انه سئل عن العمرة اواجبة فريضة كفريضة الحج؟ قال : لا وان تعتمر خير لك — ثم قال البيهقي — : هذا وهو اخفوظ عن جابر موقوف غير مرفوع وروى عن جابر مرفوعاً بخلاف ذلك ، وكلاهما ضعيف .

وقد ذكر البيهقي طرق الرواية المذكورة كلها وقد بين أنهما جميعاً بين منقطع وضعيف وموقوف^{٢٤} وقال النووي في شرحه للمذهب : واما قول الترمذي : ان هذا حديث حسن صحيح فغير مقبول ، ولا يغتر بكلام الترمذي في هذا فقد اتفق الحفاظ على انه حديث ضعيف . ثم قال : ودليل ضعفه ان مداره على الحجاج بن ارطاة لا يعرف إلا من جهته ، والترمذي انما رواه من جهته ، والحجاج ضعيف ومدلس باتفاق الحفاظ ، وقد قال في حديثه عن محمد بن المنكدر ، والمدلس اذا قال في روايته : عن ، لا يحتج بها بلا خلاف . ثم قال : ولان جمهور العلماء على تضعيف الحجاج بسبب آخر غير التدليس^{٢٥} .

واما الحديث الثاني فقد قال الشوكاني : وفي الباب عن ابي هريرة عند الدار قطني وابن حزم والبيهقي ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : "الحج جهاد والعمرة تطوع" واسناده ضعيف ، وعن طلحة عند ابن ماجة باسناد ضعيف ، وعن ابن عباس عند البيهقي قال الحافظ "ولا يصح من ذلك شيء"^{٢٦} .

وهذا سنشير الى الاحاديث التي وردت من طرق الفريقين والتي تدل على وجوب العمرة وفيها الحجّة الكافية .

ومما يدل من الكتاب — ايضاً — على وجوب العمرة قوله تعالى : {ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلاً} فإنَّ الحجَّ معناه : قصد التوجّه إلى البيت بالاعمال المشروعية — كما جاء في اللغة^{٢٧} — وهو مطلق يشمل العمرة المصطلحة كما يشمل الحجَّ المصطلح ، ولا دليل على اختصاصه بالحجَّ حسب المصطلح الفقهي المقابل للعمرة ، خاصّة وأنَّ لفظة الحج في الآية استعملت مضافة إلى البيت ولا شك أنَّ العمرة مشتملة على حج البيت كما هو الحال في الحجّ، ولو كانت لفظة الحج في الآية غير مضافة لأمكن دعوى انصرافها الى الحج المقابل للعمرة لكنّها ليست كذلك .

اضف إلى هذا ما ورد في تفسير الآية بسند صحيح عن عمر بن أذينة قال : كتبت إلى أبي عبدالله (عليه السلام) بمسائل بعضها مع ابن بكير وبعضها مع أبي العباس فجاء الجواب بإملائه : "سألت عن قول الله عزَّ وجلَّ : {ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً} يعني به الحجَّ والعمرة جميعاً لأنهما مفروضان"^{٢٨} .

واما من السنة فما يدلّ على وجوب العمرة كالحج احاديث كثيرة من طرق الفريقين ، اما من طرقنا فقد سبقت الاشارة الى صحيحة عمر بن أذينة عن الصادق ، وروي ايضاً في الصحيح عن الصادق (عليه السلام) انه قال : " العمرة واجبة على الخلق بمزلة الحجّ على من استطاع لأنَّ الله عزَّ وجلَّ يقول : {واتموا الحج والعمرة لله} "^{٢٩} .

واما من طريق اهل السنة ، فقد روى البيهقي بإسناده عن يحيى بن يعمر عن ابن عمر قال سمعت عمر بن الخطاب يقول : بينما نحن جلوس عند رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) اذ جاء رجل عليه سحناء سفر وليس من اهل البلد — الى ان قال — فقال يا محمّد ما الاسلام؟ قال: " تشهد ان لا إله الا الله وأن محمّداً رسول الله وان تقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتحج البيت وتعتمر

وتغتسل من الجنابة وتتم الوضوء وتصوم رمضان ، قال : فإن قلت هذا فأنا مسلم؟ قال: صدقت " — قال البيهقي ورواه مسلم في الصحيح عن حجاج ابن الشاعر عن يونس بن محمد الا انه لم يسق متنه — ٣٠ .

ودلالته على وجوب العمرة من جهة ان الظاهر من سؤال السائل أنه أراد الوقوف على ما يعتبر ويشترط في صدق عنوان الاسلام فإن السؤال بـ "ما" عن الشيء سؤال عن ماهية الشيء ومقتضى التطابق بين السؤال والجواب أن يتضمن الجواب كلما يعتبر في ماهية الشيء المسؤول عنه ، ومعنى اعتبار الشيء في ماهية ما سئل عنه انتفاؤه بانتفائه ، وحينئذ فالجواب يتضمن أموراً ينتفي الإسلام بانتفائها، ومقتضى ذلك وجوب كل ما ذكر في الجواب لكونه شرطاً معتبراً في صدق الإسلام على الفرد المسلم ، إلا ما دلّ الدليل الخارج على عدم انتفاء الإسلام بانتفائه ، أو على عدم وجوبه .

واما سند الحديث : فقد روى الدارقطني هذا اللفظ الذي رواه البيهقي بحروفه ثم قال : هذا اسناد صحيح

ثابت ٣١ .

وروى روى البيهقي أيضاً باسناده عن ابي رزين انه قال : يا رسول الله ان ابي شيخ كبير لا يستطيع الحج والعمرة ولا الظعن قال : "احجج عن ابيك واعتمر" .

ثم قال البيهقي : اخبرنا ابو عبدالله الحافظ ، ثنا علي بن حمشاذ، ثنا أحمد ابن سلمة ، قال : سألت مسلم بن الحجاج عن هذا الحديث — يعني حديث ابي رزين هذا — فقال : سمعت احمد بن حنبل يقول : " لا اعلم في ايجاب العمرة حديثاً أجود من هذا ولا اصح منه " ٣٢ .

وقال النووي بعد نقله لرواية البيهقي : "وحديث ابي رزين هذا صحيح رواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة وغيرهم بأسانيد صحيحة ، قال

الترمذي : هو حديث حسن صحيح" ٣٣ .

ودلالة الحديث على وجوب العمرة ليست من جهة دلالة الامر بالعمرة على الوجوب ليقال : " لا دلالة فيه على وجوب العمرة لانه أمر الولد إن يحج عن ابيه ويعتمر ولا يجبان على الولد عن ابيه إجماعاً " ٣٤ بل من جهة ان الرواية تدل على ان السائل انما يسأل عن وظيفة العاجز عن اداء تكليفه الشرعي ، فهو يفترض في سؤاله سلفاً ان هناك واجباً شرعياً قد توجه الى ابيه وقد عجز عن أدائه ، فماذا عليه بعد العجز عن اداء التكليف؟ هل يسقط عنه التكليف نهائياً، او يسقط عنه شرط المباشرة في الاداء فحسب ، فعليه إذا ان يستتيب؟

فيجيبه الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله وسلم) بأن العجز انما يوجب سقوط المباشرة في اداء التكليف ولا يوجب سقوط التكليف رأساً، فلا بُدَّ للعاجز من أن يستتيب ، ولا يراد من توجيه الأمر إلى الولد بيان تعيين النيابة فيه ، بل انما هو بيان لا قرب مصاديق النيابة امكاناً والصقها بالواقع العملي والتحقق الخارجي ، كما اذا دلَّ الطبيب المريض على اقرب الصيدليات وأسهلها في الحصول على الدواء الناجع لبرئه عن علته .

فلو ان الحج والعمرة المفروضين في سؤال السائل لم يكونا واجبين، لم يكن وجه للسؤال عن التكليف في صورة العجز عنهما لوضوح الحال حينئذٍ فإنَّ العمل المتطوَّع به لا الزام في الاتيان به في حال السلامة والقدرة فكيف بحال العجز وعدم الاستطاعة ! وهذا من واضحات الشريعة التي لا تخفى على المتشرَّعة عامة وليس من احتمال خفاؤه على المتشرَّع العادي ليجتاج الى السؤال .

ولعل هذا هو الوجه فيما حكى عن احمد بن حنبل : " لا اعلم في ايجاب العمرة حديثاً أجود من هذا " ، فإنَّ تصريحاً كهذا لا يصدر عن فقيه مثل احمد إلا فيما لا مجال للتشكيك في دلالة .
هذا ويذكر في الباب احاديث اخرى تدل على وجوب العمرة فقد روى

البيهقي بإسناده عن أبي هريرة عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : "جهاد الكبير والضعيف والمرأة : الحج والعمرة" ^{٣٥} .

وروى أيضاً بإسناده عن جابر أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : "الحج والعمرة فريضتان واجبتان" ^{٣٦} .

وروى أيضاً أن الصبي بن معبد قال لعمر بن الخطاب : " إني وجدت الحج والعمرة مكتوبين عليّ فاهللت بهما ، فقال : هديت لسنة نبيك" ^{٣٧} قال ابن حجر : أخرجه أبو داود ^{٣٨} .

المسألة الثالثة : وجوب الحج والعمرة على المستطيع فوري لا يجوز تأخيرهما عن عام الاستطاعة بغير عذر ، وقد اتفقت على ذلك كلمة أصحابنا ، قال العلامة في تذكرة الفقهاء : " وجوب الحج والعمرة على الفور ، لا يحل للمكلف بهما تأخيرهما عند علمائنا أجمع" ^{٣٩} .

وقال المحقق النجفي في جواهر الكلام : "وتجب — أي حجة الإسلام — بعد فرض إحراز الشرايط على الفور ، اتفاقاً محكياً عن الناصريّات والخلاف وشرح الجمل للقاضي ، وفي التذكرة والمنتهى ، أن لم يكن محصلاً" ^{٤٠} .

وقد ذهب إلى الفور مالك ، وأحمد ، وأبو حنيفة ، وبعض أصحاب الشافعي ^{٤١} ، وأبو يوسف . المزني ^{٤٢} .
وذهب إلى جواز التأخير الشافعي ، والأوزاعي ، والثوري ، ومحمد بن الحسن ، ونقله الماوردي عن ابن عباس وأنس وجابر وعطاء وطاوس ^{٤٣} .

ادلة القول بالفور : وقد استدلل أصحابنا للفور بنوعين من الدليل :

الأول : دليل العقل " فإن الواجب بعدما تحقق شرطه وكان المكلف واجداً لشرائط التكليف ، فلا بُدّ للمكلف من تفريغ ذمته بالاتيان بما امر به ليأمن العقوبة من مغبة العصيان ، ولا عذر له في التأخير مع احتمال الفوت .
نعم ، لو اطمأن بالبقاء وبالتمكّن من اتيان الواجب ولو في آخر الوقت

لا تجب المبادرة حينئذٍ ، ولذا جاز تأخير بعض الواجبات المؤقتة كالصلاة عن اول وقتها، لاجل حصول الاطمئنان والوثوق بالبقاء والتمكن من الاتيان بالمأمور به ولو في آخر الوقت ، لكون الوقت قصيراً لا يحتمل التلف والفوت في هذه المدة غالباً، وهذا الاطمئنان والوثوق غير حاصل في الحج لان الفصل طويل والطوارئ والموانع كثيرة " ٤٤ .

هذا تقرير الدليل العقلي حسبما ذكره السيد الخوئي رحمه الله — وفقاً لما جاء في تقرير بحثه — ويرد عليه :

أولاً : ان المتنازع فيه هو الفورية شرعاً، ولا تثبت بهذا البيان ، واما الفورية عقلاً — فعلى تقدير ثبوتها بهذا التقريب — غير مختصة بفريضة الحج بل تعم الفرائض كلها وهذا ما لم يلتزم به فقهاء المذهب .

وثانياً : ان الفورية التي يشتهها هذا الدليل العقلي انما هي فورية مقيدة وليست فورية مطلقة ، أي انما فورية مقيدة بعدم الوثوق بالبقاء واستمرار القدرة على الامتثال في المستقبل ، وهذه الفورية اخص من المدعى ولا تفي بالمطلوب ، فان المطلوب اثبات الفورية مطلقاً حتى عند الوثوق بالبقاء واستمرار القدرة على الامتثال .

وثالثاً : ان ما ذكره في الدليل من عدم الوثوق بالبقاء غالباً انما يصح في حق الذين تقدمت بهم السن واشرفوا على الشيخوخة او تلبسوا بها، اما غيرهم وخاصة الشباب واهل القوة والغضاضة فالغالب فيهم الوثوق بالبقاء واستمرار القدرة على الامتثال لسنين عديدة ، إذاً فالغالب في الناس هو الوثوق بالبقاء فيبطل ما فرعه على عدم الوثوق من الحكم العقلي بلزوم التعجيل في الامتثال .

ورابعاً : ان الفورية بالمعنى المذكور لا تكون مخالفتها معصية بل تجزئاً على المعصية فلا يترتب على مخالفتها اثر خاص بناءً على عدم العقاب على التجري .

نعم ، اذا أدى التراخي في الامتثال إلى الفوت ثبت استحقاق العقاب لوقوع المخالفة العملية ، ولكنه خارج عما نحن فيه .

الثاني : الاحاديث المروية عن المعصومين (عليهم السلام) وهي كما يلي :

الاول : ما رواه الشيخ الطوسي بسند صحيح عن ابي عبدالله (عليه السلام) قال : " قال الله تعالى : { والله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً } قال : هذه لمن كان عنده مال وصحة ، "وان كان سوفه للتجارة فلا يسعه ، وان مات على ذلك فقد ترك شريعة من شرايع الاسلام اذا هو يجد ما يحج به" ^{٤٥} الحديث .

ودلالة الحديث على وجوب الفور واضحة فان قوله (عليه السلام) : "وان كان سوفه للتجارة فلا يسعه" يدلّ بوضوح على حرمة التسويف ، ولا خصوصية للتجارة قطعاً وانما ذكرت كمثال لما يدعو للتسويف في الغالب مما لا يكون عذراً مانعاً عن اداء فريضة الحج .

الثاني : ما رواه الشيخ ايضاً بسند موثق عن ابي عبدالله (عليه السلام) ، قال : " اذا قدر الرجل على ما يحج به ، ثم دفع ذلك وليس له شغل يعذره به فقد ترك شريعة من شرايع الإسلام " ^{٤٦} .

وعبارة " ثم دفع ذلك " تشمل صورة التأخير بعد الاستطاعة فتدل الرواية على وجوب الفور في اداء فريضة الحج .

الثالث : ما رواه الكليني بسند موثق عن الحلبي عن ابي عبدالله (عليه السلام) ، قال : " قلت له : رأيت الرجل التاجر ذا المال حين يسوف الحج كل عام وليس يشغله عنه إلا التجارة أو الدين ، فقال : لا عذر له يسوف الحج ، ان مات وقد ترك الحج فقد ترك شريعة من شرايع الإسلام " ^{٤٧} .

فان قوله (عليه السلام) : " لا عذر له يسوف الحج " يدل على حرمة تسويف الحج وهو تأخيرها .

وهناك روايات أخرى في هذا المصمار، وفيما ذكرناه الكفاية .

وأما ما استدلل به سائر الفقهاء على وجوب الفور في الحج فهو كما يلي :

١— قوله تعالى : {واتموا الحج والعمرة لله} وهذا أمر، والامر يقتضي الفور .

٢— حديث مهران أبي صفوان عن ابن عباس ، قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : "من أراد

الحج فليتعجل" ^{٤٨} رواه أبو داود بإسناده عن مهران ، ورواه الدارمي في سننه أيضاً ^{٤٩} .

٣— حديث سعيد بن جبير عن ابن عباس : ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : "عجلوا الخروج

إلى مكة ، فان احذكم لا يدري ما يعرض له من مرض أو حاجة " ^{٥٠} .

٤— حديث أبي أمامة قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) "من لم يمنعه عن الحج حاجة ظاهرة ، أو

سلطان جائر، أو مرض حابس فمات ولم يحج ، فليمت ان شاء يهودياً أو نصرانياً " ^{٥١} .

ورواه البيهقي في سننه ثم قال : وهذا وان كان اسناده غير قوي فله شاهد من قول عمر بن الخطاب ، ثم روى

عن عمر بن الخطاب انه قال : " ليمت يهودياً أو نصرانياً — يقولها ثلاث مرات — رجل مات ولم يحج وجد لذلك

سعة وخلت سبيله ، الحديث " ^{٥٢} .

٥— روي عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) انه قال : "من كسر أو عرج فقد حل وعليه الحج من

قابل" ^{٥٣} وهو يدل على الفور بوضوح والا لم يكن وجه لوجوب الحج عليه من قابل .

٦— روي عن الحسن قال : قال عمر بن الخطاب : " لقد هممت أن أبعث رجالاً إلى هذه الامطار فينظروا كل

من كان له جدة ولم يحج فيضربوا عليهم الجزية ما هم بمسلمين ما هم بمسلمين " ^{٥٤} . ودلالته على وجوب الحج

بالفور

عنده واضحة فلو لا وجوبه فوراً لم يكن وجه في عدّهم غير مسلمين فان صرف عدم الحج لمن كان له جدة لا يعد مخالفة للشرع على القول بالتراخي فإن هناك سعة لاداء الواجب ما لم يدركه الموت .

٧— انه كالصوم عبادة تجب الكفارة بإفسادها فوجبت على الفور، كما وجب الصوم على الفور ^{٥٥} .

٨ — انه كالجهاد عبادة تتعلق بقطع مسافة بعيدة ، فتجب على الفور، كما وجب الجهاد فوراً ^{٥٦} .

٩— انه اذا لزمه الحج وأخّره اما ان تقولوا : يموت عاصياً، واما غير عاص ، فان قلتم : ليس بعاص خرج الحج عن كونه واجباً، وان قلتم : عاص ، فاما ان تقولوا عصى بالموت أو بالتأخير، ولا يجوز ان يعصى بالموت اذ لا صنع له فيه ، فثبت انه بالتأخير، فدل على وجوبه على الفور ^{٥٧} .

وقد اعترض القائلون بالتراخي على ما استدلل به هؤلاء الفقهاء لوجوب الفور باعتراضات أهمّها كالتالي :
اما الأوّل : وهو الاستدلال بالآية الكريمة بناءً على دلالة الامر على الفور فقد اعترض عليه أولاً : بأنّ لا نقبل دلالة الامر على الفور .

وثانياً : بأنّه على تقدير دلالته على الفور فإن هنا قرينة تصرفه الى التراخي وهي " أنّ الحج عبادة لا تنال إلا بشق الأنفس ولا يتأتّى الاقدام عليها بعينها بل يقتضي التشاغل بأسبابها والنظر في الرفاق والطرق ، وهذا مع بعد المسافة يقتضي مهلة فسيحة لا يمكن ضبطها بوقت ، وهذا هو الحكمة في اضافة الحج إلى العمر " ^{٥٨} .

والجواب عنه : أن ما ذكر قرينة على التراخي يفيد عكس المدعى فإنه على الفور أدلّ منه على التراخي ، بل إنّه يدلّ على الفور بالتعيين ، فإنّ المراد بالفور أوّل عام الاستطاعة ، والاستطاعة تتضمن كلّ ما ذكر من المقدمات التي يتوقف

عليها الحج ، فإذا كانت الاستطاعة وفق ما ذكر لا تحصل إلّا بتهيئ هذه المقدمات الكثيرة ، فإذا حصلت لزم العجيل في أداء الواجب خوفاً من فوات الفرصة ، وعروض ما يمنع أو زوال بعض المقدمات التي لا تتوفر بسهولة . والحاصل أنّ المقدمات التي يتوقف عليها أداء فريضة الحج إذا كانت من التعدّد وصعوبة الحصول بحيث لا تتوفر للكثيرين إلّا مرة واحدة في العمر ممّا يقتضي وجوب الحج مرة واحدة في العمر — كما أشار المعارض في كلامه — فإن هذا يقتضي لزوم اغتنام فرصة توفر المقدمات وحصول الأسباب وعدم جواز تفويت الفرصة وهذا يستلزم وجوب الفور، لا جواز التراخي .

ومن هنا يمكن أن يقال : إنه على فرض التسليم بعدم دلالة الأمر على الفور لكن القرينة تقتضي دلالة على الفور هنا، والقرينة ما ذكرناه .

أما الثاني : فقد اعترض عليه أولاً : " بآئه ضعيف ، وثانياً : بآئه حجة للقائل بالتراخي ، لآئه فوض فعله إلى إرادته واختياره ، ولو كان على الفور لم يفوض تعجيله إلى اختياره ، وثالثاً : انه امر ندب جمعاً بين الأدلة " ^{٥٩} .

والجواب عن الأوّل : أنه على فرض ضعفه يتأيد بسائر الاحاديث الواردة في هذا الباب ، وبمجموعها تفيد الاطمينان بصدور مضمونها عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) .

وعن الثاني : أنه ليس في الحديث تفويض الفعل إلى ارادة المكلف ليكون حجة للقائل بالتراخي ، بل الحديث يفترض إرادة الحج مفروغاً عنها ويثبت وجوب التعجيل لمن يحمل هذه الصفة وهي (إرادة الحج) ، وبما أن الامر بالتعجيل انما يناسب من اراد الحج الواجب ، فإن المتطوع بالحج لا يجب عليه اصل فعله ، فكيف بالتعجيل فيه ، فيكون معنى الحديث ، ان من توفرت فيه شرايط الحج الواجب فعزم على أداء الفريضة فعليه التعجيل في الأداء ، وهذا يعني وجوب الفور بالحج .

وعن الثالث : ان الحمل على الندب انما يصحّ عند وجود القرينة على خلاف الوجوب أو المعارض ، وكليهما منتفیان ، فلا وجه للحمل على الندب .

أما الثالث والرابع : فيعترض عليهما بضعف السند تارة واخرى بأنّ المراد النهي عن تأخير الحج الى حين الموت ، ولا نزاع في حرمة .

والجواب عن ضعف السند نفس ما اجبنا به عن الاعتراض بضعف السند على الحديث السابق ، مع زيادة ان حديث أبي امامة مروي بطرق متعدّدة يقوّى بعضها ببعضاً ، قال الشوكاني في تعليقه على هذا الحديث : وهذه الطريق يقوي بعضها بعضاً ، وبذلك يتبين مجازقة ابن الجوزي في عدّه لهذا الحديث من الموضوعات ، فان مجموع تلك الطرق لا يقصر من كون الحديث حسناً لغيره ، وهو محتج به عند الجمهور ، ولا يقدر في ذلك قول العقيلي والدارقطني : " لا يصحّ في الباب شيء ، لأنّ نفي الصّحة لا يستلزم نفي الحسن " ٦٠ .

وامّا عن الدّلالة ، فدلالة حديث ابن عبّاس على الوجوب واضحة ، فانّ فيها الامر بالتعجيل والامر يفيد الوجوب ، ولم يعلّق التعجيل فيه على خوف عروض الموت ، فيدلّ على وجوب الفور بالحج . واما الحديث أبي امامة فدلالته على وجوب الفور من جهة الاطلاق فانه باطلاقه شامل لمن أخر الحج بغير عذر — رغم استطاعته — مع عزمه على الاتيان بالحج في السنين المقبلة ، فانه مشمول لقوله : من لم يمنعه عن الحج حاجة ظاهرة — الى قوله — فليمت إن شاء يهودياً أو نصرانياً ، فيكون دالاً على عدم جواز التأخير في اداء فريضة الحج بغير عذر .

واما الخامس والسادس : فقد يعترض عليهما بضعف السند أيضاً وجوابه نفس ما ذكرناه سابقاً ، وبالمعارضة مع ما دلّ على جواز التأخير ، وسوف نبين فيما يأتي عند البحث عن ادلة القائلين بالتراخي قصور ما ادّعى كونه معارضاً عن المعارضة .

واما السابع : فقد اعترض عليه بأن قياس الحج بالصوم قياس مع الفارق ، فان الصوم وقته مضيق فكان فعله مضيقاً بخلاف الحج ^{٦١} .

والجواب عنه : انه ان أريد من التضيق في وقت الصوم أن له وقتاً معيناً فالحج كذلك أيضاً، فليست الاوقات سواء بالنسبة إلى فعل الحج بل المتعين ايقاعه في ايام خاصة . وان أريد منه عدم جواز تأخيره فهذا عين المدعى في الحج ، ففيه عن الحج مصادرة للمطلوب .

واما الثامن : فقد اعترض عليه أولاً : " بعدم التسليم بوجوب الجهاد فوراً بل الفور والتراخي فيه موكول إلى ما يراه الامام بحسب المصلحة . وثانياً : ان في تأخير الجهاد ضرراً على المسلمين بخلاف الحج " ^{٦٢} .

والجواب عن الأول من الاعتراضين :

أن الكلام مبني على القول بالفور في الجهاد، اما على تقدير انكاره في الجهاد فلا كلام . واما الجواب عن ثاني الاعتراضين ، فبأن القائل بالفور في فريضة الجهاد لا يرى ذلك مختصاً بما اذا لزم الضرر من التأخير، بل يرى الفور حتى في صورة القطع بعدم الضرر في التأخير، فيقاس به التكليف بالحج .

واما التاسع : " فقد اعترض عليه باننا نختار انه اذا أخرّ حتى مات يكون عاصياً، ولكن عصيانه من جهة تفريطه بالتأخير إلى الموت ، وانما جاز له التأخير بشرط سلامة العاقبة كما اذا ضرب ولده او زوجته أو المعلم الصبي أو عزّر السلطان انساناً فمات ، فانه يجب الضمان ، لانه مشروط بسلامة العاقبة " ^{٦٣} .

والجواب عنه : أن الفور لو لم يكن واجباً لم يكن وجه لعصيانه بالتأخير حتى الموت ، وسلامة العاقبة ليس تحت الاختيار ليعتبر شرطاً في التكليف، اما الضمان فإنه حكم وضعي ، ولا بأس بان يناط الحكم الوضعي بما لا يقع تحت الاختيار بخلاف الحكم التكليفي المتنازع فيه .

أدلة القول بالتراخي :

واحتج القائلون بالتراخي بعدة أدلة وهي :

أولاً : ان فريضة الحج نزلت سنة ست من الهجرة وقد حجّ النبي سنة عشر، وقد كان هو واصحابه موسرين بما غنموه من الغنائم الكثيرة ولا عذر لهم ، فلم يكن تأخيرهُ للحج إلا لبيان جواز التأخير ^{٦٤} .

اما ان فريضة الحج نزلت سنة ست فلحديث كعب بن عجرة قال : "وقف عليّ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بالحديبية ، ورأسي يتهافت قملاً، فقال : يؤذيك هوامك ؟ قلت : نعم ، يا رسول الله . قال : فاحلق رأسك . قال : ففيّ نزلت هذه الآية : {فمن كان منكم مريضاً أو به أذى من رأسه ففديه . . } الى آخرها وبذلك يثبت ان قوله تعالى : {واقيموا الحج والعمرة لله} الى آخرها نزلت سنة ست من الهجرة " ^{٦٥} .

ثانياً : جاء في حديث انس عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) حينما جاءه رجل من اهل البادية فسأله قال : "يا محمد اتانا رسولك فرعم لنا أنك تزعم أن الله أرسلك ، قال : صدق ، الى ان قال : وزعم رسولك ان علينا حج البيت من استطاع إليه سبيلاً، قال : صدق" رواه مسلم في صحيحه في أوّل كتاب الايمان بهذه الحروف وروى البخاري أصله ، وفي رواية البخاري "ان هذا الرجل ضمام بن ثعلبة ، وقدم ضمام بن ثعلبة على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كان سنة خمس من الهجرة ، قاله محمد بن حبيب وآخرون ، وقال غيره : سنة سبع ، وقال ابو عبيد : سنة تسع " ^{٦٦} .

وهذا الحديث يدل ايضاً على وجوب الحج قبل سنة عشر وقد اخر رسول الله الحج الى سنة عشر، فيدل على جواز التأخير وعدم وجوب الفور بالحج .

ثالثاً : جاء في الاحاديث المستفيضة "ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)

وسلم) امر في حجة الوداع من لم يكن معه هدي ، الاحرام بالحج ، ويجعله عمرة " وهذا صريح في جواز تأخير الحج مع التمكن ^{٦٧} .

رابعاً : أن المكلف إذا أخر الحج — بعد الاستطاعة — من سنة الى سنة أو أكثر ، ثم فعله ، يسمى مؤدياً للحج لا قاضياً بإجماع المسلمين ، ولو حرم التأخير لكان قضاء لا أداء ^{٦٨} .

خامساً : اذا تمكن المكلف من الحج وأخره ثم فعله ، لا ترد شهادته فيما بين تأخيره وفعله بالاتفاق ، ولو حرم لردت لارتكابه المسيء ^{٦٩} .

وكل هذه الأدلة التي تمسك بها القائلون بالتراخي علية والتوضيح كالتالي :

أما الدليل الأول ، فالجواب عنه بوجهين :

الأول : انه لم يثبت عندنا نزول فريضة الحج سنة ست ، وقد روي أنها نزلت سنة عشر فلم يتخلل بينها وبين حج رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) زمان تفوت معه الفورية .

واما حديث كعب بن عجرة فلا دلالة فيه على زمان النزول ، وإنما الذي دل عليه الحديث قول كعب ان الآية نزلت فيه ، ويمكن ان يريد بذلك أن الآية حينما نزلت — وان كان نزولها متأخراً عن الحديبية بسنين — نزلت فيه وفي امثاله ممن يصابون بالعذر الذي أصيب به . وبعبارة اخرى ان الظرف لا يدل على خصوص الظرفية الزمانية بل يصح ان يراد به الظرفية الموردية ، بل لعل الظرف بمعنى المورد هو الظاهر في اكثر الروايات التي تحكى شأن النزول ، وان كانت الظرفية الموردية كثيراً ما تقترب بالظرفية الزمانية لكن لا ملازمة بينهما .

الثاني : سلمنا نزول اصل فريضة الحج قبل عام حجة الوداع بسنة أو سنين ، لكن تشريع اصل فريضة الحج لا يعني وجوبها الفعلي على المسلمين .

بل يتوقف وجوبها الفعلي على تشريع تفاصيل مناسكه واجزائه وأركانه ،

ولم يكن يمكن الاكتفاء في بيان تفاصيل مناسك الحج بتفسيرها النظري ، لكثرة مناسكه ودقة أحكامه وكثرة فروعها وأهمية الآثار المترتبة عليه بل كان من الضروري في تشريع تفاصيل مناسك الحج وتعليمها للمسلمين أن يقوم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ، بتفسير الحج تفسيراً عملياً تطبيقياً، وذلك بأن يحج بنفسه صلوات الله عليه وآله ومعه المسلمون عامة ليتعلموا احكام الحج وفروعه الدقيقة الكثيرة من خلال المشاهدة العملية والمعايشة الميدانية .

وهذا ما قام به رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في حجة الوداع ، ولم يكن من الممكن القيام بهذا الحج التشريعي قبل التطهير البيت والبقاع التي يراد اقامة الحج فيها لله من رجس وجود المشركين ، ولم يطهر البيت والبقاع المباركة الا في سنة تسع عندما نزلت آية البراءة .

فقد روى الشعبي عن محرز بن أبي هريرة عن أبي هريرة قال : كنت اناذي مع علي (عليه السلام) حين اذن المشركين ، فكان اذا صحل صوته فيما ينادي دعوت مكانه قال: فقلت يا أبت أي شيء كنتم تقولون؟ قال: كنا نقول: لا يحج بعد عامنا هذا مشرك ولا يطوفن بالبيت عريان ، ولا يدخل البيت إلا مؤمن ، ومن كانت بينه وبين رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) مدة فان أجله إلى اربعة أشهر، فاذا انقضت الاربعة أشهر فان الله بريء من المشركين ورسوله ^{٧٠} .

ورواه مع شيء من الاختلاف الدارمي في سننه ^{٧١} .

وقد جاء في الكتاب العزيز قوله تعالى مخاطباً إبراهيم وولده اسماعيل {أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ} ^{٧٢} . مما يؤكد أن الحج الكامل متوقف على طهارة بيت الله من كل ما يدنس طهارته ، والمشركون نجس حسبما ورد في الكتاب العزيز فهم لما يجب تطهير بيت الله سبحانه منهم ، مقدّمة

لطواف الطائفين وصلاة المصلين .

إذا فقد حجّ رسول الله في أول سنة تمكن فيها من الحج من غير تأخير، وليس في حجّه (صلى الله عليه وآله وسلم) ما يقوم حجة للقول بالتراخي .

واما الدليل الثاني :

فالجواب عنه : أولاً : أنه لم يثبت كون قدوم ضمام بن ثعلبة على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) سنة خمس أو سبع ، بل قيل : إنه كان سنة تسع ، وقد حجّ رسول الله سنة عشر فلم يثبت تأخر حجّ رسول الله عن أول عام الاستطاعة بعد التشريع .

وثانياً : ما ذكرناه في وجه الثاني من الجواب على الدليل الأول يرد في الجواب على هذا الوجه أيضاً.

واما الدليل الثالث :

فجوابه واضح ، فإنّ امر رسول الله من لم يكن معه هدي ان يجعل حجّه عمرة لا دلالة فيه على جواز تأخير الحج فضلاً عن صراحته في ذلك ، بل الوجه في امر رسول الله — كما يبدو من ظاهر الحديث — فقدان من لم يكن معه هدي لشرط الاستطاعة .

واما الدليل الرابع :

فالجواب عنه : ان الوجه في تسمية من اخر الحج عن عام الاستطاعة ثم حج بعد ذلك مؤدياً للحجّ ، أنّ الحج فيما بعد عام الاستطاعة اداء لفريضة الحج في وقتها بعد فوات الوقت الأول فإنّ الواجب هو اداء الحجّ في العام الأول من الاستطاعة فان عصى وجب عليه اداؤه في العام الثاني وإلا ففي الثالث وهكذا، وليس ذلك من باب القضاء لان معنى فوريّة الوجوب انحلال الواجب إلى عنصرين تعلّق بهما الأمر: **الأول:** ذات الواجب ووقته مدى العمر، والثاني : ايقاعه في الزمن الأول بعد الاستطاعة ، وهذا الثاني ينطبق على

كل عام أول بعد تعلّق التكليف وقبل الامتثال ، فما لم يمثل يبقى وجوب ايقاع الفريضة في أول عام باقياً متوجهاً إليه ، فإذا أدى الفريضة سقط الوجوب بكلا عنصره لتحقيق المطلوب .

وأما الدليل الخامس :

إنّ الفرض المذكور في الدليل يتضمّن افتراض العزم على الاداء في المستقبل ، وفي هذا الفرض وإن كان التأخير أثماً يعاقب عليه لو لم يجبر بالتوبة ، ولكن ليس كل اثم يوجب ردّ شهادة مرتكبة ، فلا يتوقف قبول الشهادة على عدم ارتكاب الاثم مطلقاً ، وإنما الاثم المانع عن قبول الشهادة هو الاثم المقترن بالاصرار أو ما يعدّ كبيرة موبقة وعد عليها بالتأثر أو غير ذلك من القيود المعتبرة في الاثم الموجب لردّ الشهادة .

وقد تحصل من مجموع ما ذكرناه ان الحق كون الحج واجباً فورياً يأثم من توفرت فيه شرائط الوجوب بتأخيره عن اول عام الاستطاعة بغير عذر .

الهوامش :

- (١) آل عمران : ٩٧.
- (٢) راجع وسائل الشيعة ابواب مقدمة العبادات باب ١ ، وصحيح مسلم باب قول النبي بني الاسلام على خمس
١ : ٣٤.
- (٣) جواهر الكلام ١٧ : ٢٢٠.
- (٤) المغني ٣ : ٢١٧.
- (٥) علل الشرائع : ٤٠٥.
- (٦) العلل : ٤٠٥.
- (٧) الوسائل ٨ : ابواب وجوب الحج ، الباب ٣ ، الحديث ١.
- (٨) نفس المصدر ، الحديث ٢.
- (٩) نفس المصدر ، الحديث ٣.
- (١٠) نفس المصدر ، الباب ٤ ، الحديث ١.
- (١١) نفس المصدر ، الباب ١ ، الحديث ٢.
- (١٢) الوسائل ، ابواب وجوب الحج ، الباب ٥ ، الحديث ١.
- (١٣) نفس المصدر ، الباب الحديث ٢.
- (١٤) الجواهر ١٧ : ٢٢٢ — ٢٢٣.
- (١٥) صحيح مسلم ٤ : ١٠٢ ، باب فرض الحج مرة في العمر.
- (١٦) المعتمد في شرح المناسك ٣ : ١٩٨.
- (١٧) تذكرة الفقهاء للحلي ١ : ٢٩٦ ، ط حجرية .
- (١٨) شرح المذهب للنووي ٧ : ١٢.
- (١٩) المغني لابن قدامة المقدسي ٣ : ٢٢٣.
- (٢٠) تذكرة الفقهاء للحلي ١ : ٢٩٦ ، ط حجرية .
- (٢١) البقرة : ١٩٦.
- (٢٢) الوسائل ٨ : ٣ ، ابواب وجوب الحج ، الباب ١ ، الحديث ٢.
- (٢٣) تفسير الكشاف ١ : ٣٤٣.
- (٢٤) السنن الكبرى للبيهقي ٤ ، باب من قال ان العمرة تطوع : ٣٤٨.
- (٢٥) المجموع في شرح المذهب ٧ : ١٠.
- (٢٦) نيل الاوطار للشوكاني ٤ : ٢٨١.
- (٢٧) راجع : لسان العرب ، مادة حجج .
- (٢٨) الوسائل ٨ : ٣ ، ابواب وجوب الحج ، الباب ١ ، الحديث ٢.

- (٢٩) نفس المصدر، الحديث ٥.
- (٣٠) السنن الكبرى — للبيهقي ٤ : ٣٤٩.
- (٣١) شرح المذهب للنووي ٧ : ٩.
- (٣٢) السنن الكبرى ٤ : ٣٥٠.
- (٣٣) شرح المذهب ٧ : ٩.
- (٣٤) الجواهر النقي ، لابن التركاني ، ذيل سنن البيهقي ٧ : ٣٥٠.
- (٣٥) السنن الكبرى ٤ : ٣٥٠.
- (٣٦) نفس المصدر ٤ : ٣٥٠.
- (٣٧) نفس المصدر ٤ : ٣٥١.
- (٣٨) فتح الباري ٣ : ٥٩٧.
- (٣٩) تذكرة الفقهاء ١ : ٢٩٦ ، ط حصرية .
- (٤٠) جواهر الكلام ١٧ : ٢٢٣.
- (٤١) نيل الاوطار ٤ : ٢٨٥.
- (٤٢) شرح المذهب ٧ : ٨٦.
- (٤٣) نفس المصدر ٧ : ٨٦.
- (٤٤) المعتمد في شرح المناسك ٣ : ١٢ .
- (٤٥) الوسائل ٨ : ١٦ ، ابواب وجوب الحج ، الباب ٦ ، الحديث ١.
- (٤٦) الوسائل ٨ : ١٧ ، ابواب وجوب الحج ، الباب ٦ ، الحديث ٣.
- (٤٧) نفس المصدر ، الحديث ٤.
- (٤٨) السنن الكبرى للبيهقي ٤ : ٣٤٠.
- (٤٩) سنن الدارمي ٢ : ٢٨ .
- (٥٠) السنن الكبرى للبيهقي ٤ : ٣٤٠.
- (٥١) سنن الدارمي ٢ : ٢٨ ، والبيهقي في سننه ٤ : ٣٣٤ .
- (٥٢) سنن البيهقي ٤ : ٣٣٤ .
- (٥٣) نيل الاوطار ٤ : ٢٨٤ .
- (٥٤) نفس المصدر .
- (٥٥) شرح المذهب ٧ : ٨٧ .
- (٥٦) نفس المصدر .
- (٥٧) نفس المصدر .
- (٥٨) نفس المصدر : ٩٠ .
- (٥٩) شرح المذهب ٧ : ٩١ .

- (٦٠) نيل الاوطار للشوكاني ٤ : ٢٨٥ .
- (٦١) شرح المذهب ٧ : ٩١ .
- (٦٢) نفس المصدر .
- (٦٣) شرح المذهب ٧ : ٩٢ .
- (٦٤) نفس المصدر : ٨٨ .
- (٦٥) نفس المصدر : ٨٨ .
- (٦٦) شرح المذهب ٧ : ٨٩ .
- (٦٧) نفس المصدر .
- (٦٨) نفس المصدر .
- (٦٩) نفس المصدر .
- (٧٠) مجمع البيان للطبرسي ٥ : ٣ .
- (٧١) سنن الدارمي ٢ : ٦٨ .
- (٧٢) البقرة : ١٢٥ .

الحجاز والحرمَان الشَّريفان في القرن الثالث عشر

تأليف : جعفر شهيدى

لقد كان للشعب الإيراني — ولا يزال بحمد الله — منذ اعتنق الاسلام ؛ اهتمام كبير بالمواظبة على إقامة شعائر هذا الدين الحنيف وأداء مناسكه ، والقيام بفرائضه بشوق بالغ وإيمان راسخ وقلب سليم . وأداءُ فريضة الحجَّ أحد هذه المناسك المحببة إليهم ، فقد شدّوا الرحال وتحملوا أعباء السفر، واقتحموا المهالك والمخاطر، وجادوا بأموالهم وجاهدوا بأنفسهم عن طيب خاطر، ولذة مفرحة في سبيل الله ، وإقامة أركان الشرع الحنيف ، وبلوغهم صورة المسلم الكامل .

وكان من الطبيعي — أن نرى على مدى التاريخ الإسلامي — أن يحمل هذا التيار المتصل ، عدّة من العلماء والشعراء والكتاب ، الذين نالوا هذا الفوز الكبير، وأنهم سجلوا هذه الرحلات ، وقيدوا تلك المذكرات ونظموا القصائد عن أسفارهم وما شاهدوه في الطريق ، أو من التقوا به ، ودار بينهم وبينه الحوار، حول شتى المسائل : من المباحث الدينية أو الاجتماعية أو الاقتصادية أو الانسانية ، أو ما حلّت بهم من المكاره والأخطار في الطريق ، أو من أثر رؤية هذه المشاهد الشريفة في نفوسهم وما تحتويه من رموز التوحيد والاخلاص ، أو تعارف المسلمين بعضهم على بعض . ولما كانت هذه الرحلات أو بعبارة أخرى

هذه الوثائق والمستندات التاريخية ، من شأنها أن تلقي أضواء على زوايا تاريخنا الاسلامي ، فتمدنا بالكثير من المعلومات الهامة في مناحي العلم المختلفة وخاصة عن الحياة الاجتماعية أو الثقافية أو التجارية ، التي كان يقضيها هذا القطر الإسلامي الشقيق في ذلك الوقت ، هذا مضافاً إلى الناحية الفنية ، التي تصورها الصورة الرائعة التي يمثلها الشاعر منهم في قصيدته ، أو الأديب في رسائله ، مما تهبج الطباع وتمزج النفوس ، وتحقق لها القلوب . ولعل كثيراً من المطلعين خبير بما نظمه الشاعر الإيراني " خاقاني الشرواني " في منظومته التي سماها " تحفة العراقيين " التي يصف فيها رحلته إلى مكة المكرمة ؛ فيقدم لنا معلومات من حياة العرب الاجتماعية في القرن الخامس من الهجرة ، حيث يصف الركب في ترحاله ونزوله ، وموارد الماء التي يُستقي منها للإنسان والدواب ، ويصف الطبائع ووقوف النوق عليها، والمواقيت والحرمين ، ومعنى وعرفات والمشعر، والكعبة — شرفها الله — وكسوتها، والحجر والأركان ، وزمزم وازدحام الحاج عليها، كما أنه يصف مدينة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ومسجد الرسول ، وإقامة الجمعة والخطبة والخطباء ، مما يطول بنا ذكره . فيأخذ بيد القارئ ويطوف به في أجواء من عالم القدس ، ويريه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، فيتوق قلب كل مسلم إلى زيارة هذه الأماكن ، ويكاد المستمع يطير إلى الحرمين الشريفين جرياً وراء فؤاده . أو بما كتبه الرحالة "ناصر خسرو القبادياني" الشاعر الفارسي ، الذي زار الحرمين الشريفين في القرن الخامس من الهجرة النبوية ، حيث يصف لنا المسجدين بأدق صورة ، ويبين مساحتهما، ويصف الكعبة وكسوتها والحجر ومعنى وزمزم ، وشوارع مكة وحماماتها، وسوق العطارين ، وعدد سكان البلد، وسعر القمح ، والقحط الذي أصاب البلد في تلك السنة .

هذا ولا يخلو كلُّ قرن من القرون من رحلات ، أو مذكرات كتبها الرحالة أو الحجاج من إيران ، لم تنزل مخطوطاتٍ تحزن في مكتباتنا بطهران

ومشهد وتبريز وغيرها من البلدان ، مما نتمنى — بإذن الله تعالى — أن تقدم في صورة جيدة لآخواننا العرب المسلمين . فهذا التراث العظيم — كما قلت — يحتوي على معلومات هامة مما يتعلق بالحجاز عامة ، وبالحرمين الشريفين خاصة .

وحيث إن بحثي المتواضع يتعلق بالقرن الثالث عشر الهجري — التاسع عشر الميلادي — فلا أجد لي الحق أن أتجاوز عما كتبه الرحالة في هذا القرن . فإن في أيدينا من رحلات هذا القرن أكثر من عشر رحلات مخطوطة في المكتبة الأهلية ومكتبة مجلس النواب وإليك أسماء بعضها :

١— الرحلة التي ألفها ضياء الدين آل كيوان قارئ ، كتبها عام ١٢٢٩هـ . ق ، (مكتبة مجلس النواب) .

٢— الرحلة لـ محمد حسن خان اعتماد السلطنة ١٢٦٣هـ . ق ، (المكتبة الرضوية ، مشهد) .

٣— الرحلة ، لـ محمد علي فراهاني عام ١٢٦٣هـ . ق (مكتبة مجلس النواب) .

٤— الرحلة التي كتبها سيف الدولة محمد بن فتح علي شاه القاجار عام ١٢٧٩هـ . ق ، (المكتبة الأهلية) .

٥— الرحلة ، لأحد أقرباء ناصر الدين شاه القاجار ، دونها عام ١٢٨٨هـ . ق ، (المكتبة الأهلية) .

٦— الرحلة ، لأحد مقربي ناصر الدين شاه القاجار أيضاً ، كتبها عام ١٢٩٦هـ . ق ، (المكتبة الأهلية) .

وهناك رحلات منظومة أيضاً كرحلة ميرزا جلاير (المكتبة الأهلية) ، ورحلة مشنري الخراساني وغيرها (١) .

وهناك رحلتان أخريان كُتبتا في مستهل القرن الرابع عشر، إحداهما

لميرزا علي خان أمين الدولة ، والأخرى لمخير السطنة هدايت ولهاتين الرحلتين أهمية خاصة ، حيث إن مؤلفيهما من الأدباء الفضلاء ومن رجال الدولة والسياسة . وقد تقلد كل منهما منصب الوزارة ، كما أن كلا منهما تولى رئاسة الحكومة أيضاً . وهاتان الرحلتان مطبوعتان ، ولكن لم تترجما إلى اللغة العربية بعد .

كل هذه الرحلات التي قدمناها في مجموعها، صورة من الحياة الاجتماعية في القرن الثالث عشر لسكان الحجاز، فتصف لنا أول ما تصف مثلاً لقاءات الحجاج بمطالع المروعة ، واستقبال أهل الأحياء لهم ، كالنساء اللاتي يستقبلن القوافل ، ويعرضن عليهم الخبز والليمون ، وتصف أزياء هن بأنها شملة زرقاء من الأبريسم مطرزة بالذهب و"جلابتون" ، أو الأطفال الذين ينشدون حول القوافل :

سيدي اعط من زادك الله يعطي مرادك

أو تصف طائفة تستقبل الحجاج حين دخولهم مكة ، فتعطي لكل واحد تمرتين وفنجان من ماء زمزم ، كما أنها تصف هجوم الأشرار على القوافل ونهبهم الأموال وقتلهم الأنفس أحياناً كما أنها تسجل أسعار الأمتعة والأرزاق وأجرة الدور، مما يدل على الوضع الاقتصادي ، ومصدر الدخل لطبقة معينة ، ومستوى معيشتهم في ذلك العصر . أو ما يصفون به مياه "ينبع" أنها من ماء المطر الذي يخزن في سرايب ، فينقلب لونه إلى الزرقة ، وريحه إلى العفونة ، فينصرف الضمآن إلى شرب القازوز بدل الماء . وتذكر وصف الدراويش الذين يتجولون في شوارع مكة ليلاً، وينشدون القصائد بصوت عالٍ فلا يتمكن الإنسان أن ينام من أصواتهم التي تشق أجواء الفضاء .

كل هذا لا بد من أن يدرس ؛ لكي يعلم مدى ما وصل إليه هذا القطر الشقيق المبارك ، من السعة في العيش والرغبة في الحياة ، وبلوغ الحضارة في ظل الأمن والسلام . ونتعرض الآن إلى بعض ما جاء في رحلة أمين الدولة ورحلة

مخبر السلطنة هدايت :

جدة : الغالب في أبنية جدة بنايات ذات ثلاثة طوابق مبنية من الحجارة ، وصحن العمارات مفروشة بالرخام وفيها حياض يجري فيها الماء من النافورات . واعتقد أن بعض هذه الدور يقارن الدور التي رأيتها في البلاد الغربية . ومن المعالم الأثرية ، التي زرناها في جدة ، قبر طوله خمسون خطوة ، يقال إنه قبر أمنا حواء ، وإلى جانبها صورة ، ومن الغريب أن هذه الصورة هي صورة لنصف جسدها من ظهرها إلى رأسها، وإنني كدت أظير فرحاً وشوقاً لما نزلت من البحر إلى هذه الأراضي المقدسة ، واغرورقت عيناى بالدموع حينما دخلت جدة ، ولكن لما أراني دليلى شكل هذا القبر وتلك الصورة المضحكة زال عن قلبي كل الخضوع وغلبي الضحك من رؤية تلك الخرافة ..

مكة : أرض مكة مكسوة بالرمال فيصعب على الدواب السير عليها، ولذلك عبدوا بعض الممرات ، التي يصعب العبور منها، بالحجارات المنحوتة .

تقع مكة في الجنوب الشرقي من البحر الأحمر، بينها وبين المدينة ٨٠ فرسخاً، ويبلغ عدد سكانها — من القاطن والمجاور — ستين ألفاً، ولها ثلاثة أسوار كل سور داخل الآخر، وشوارع البلد متسعة ، ولكن البيوت لا صحن لها . ويصف أمين الدولة دور مكة فيقول : الدار التي نزلنا فيها دار جميلة ولها أزرق من الرخام المصنوع ، وفيه حياض عليها رؤوس الأسود وسائر الحيوانات ، يجري منها الماء في الحوض ، ولا يوجد في كثير من البلدان الإسلامية دور جميلة كهذه ولا في بعض البلدان الغربية أيضاً .

المسجد : يقع المسجد في وسط البلد ، وطوله ٤٠٠ ذراع وعرضه ٣٠٤ ، فتبلغ كل المساحة ١٢١٦٠٠ ذراع ، والكعبة — شرفها الله — في وسط البيت . والمسجد غير مسقوف ، إلا أنه يحاط بالأيوانات المسقوفة من كل جانب ، والسقف قائم على ١٣٤ أسطوانة . وجدران المسجد مبنية من الحجارة السوداء . وللمسجد ١٨ باباً، منها باب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) على الجانب الشرقي ، وعلى

الجانب الأيسر منه زمزم ومقام حنبل ، ومقام مالك وراء البيت ، ومقام الحنفي على جانب الشمالي ، وأما الشافعي فلا مقام له .

كسوه الكعبة : وهي من الحرير الأسود مزركشة ، تمدى كل سنة من جانب الموكب المصري ، ففي يوم عيد الأضحى ، يدخل أمير الحج المصري في المسجد وتدق الطبول أمامه وينفخ في الأبواق ، فيقف عند الكعبة ويأتي عشرون خادماً سوداً فيخلعون الكسوة القديمة ويعقلون الجديدة عليها، وتهدى الخليفة القديمة للشريف ، وهو يهدي قطعاً منها لذوي الشخصيات . يقول هدايت أهدي لي الشريف قطعة منها، وعليها صورة وردة كتبت من سورة الاخلاص وهي الآن زينة مكنتي .

الصفاء والمروة : وهما فهدان على طريق باب النبي ، بينهما سبعون خطوة(*)، والأرض غير مسطحة ، فالساعي لا بد من ان يتحمل مشقة كثيرة لا محالة . ولما كان بعض الحجاج يسعى على ظهر الدابة فكثيراً ما ترى الأرض ملطخة بالأرواث والقذارات ، والروائح الكريهة هنا لا يمكن أن تتحمل .

عرفات : والحق أنها عرصات من كثرة الازدحام واللغط والضوضاء والضجيج . وفيها قناة تجري على وجه الأرض ؛ والشجر الطرفاء هناك كثير . وفي جبل عرفات قرود كثيرة ، سمعت أن بعض الحجاج يصطادون صغارها ليذهبوا بها إلى أوطانهم وهذا أمر غريب ؛ لأن الصيد في مكة محرم وخاصة للمحرم في عرفات .

منى : تقع منى بين الجبلين وفيها ميدان فسيح يضرب الحجاج فيه خيامهم . وهناك ماء يجري من قناة تعرف بقناة زبيدة ، يقال إن زبيدة زوجة هارون الرشيد العباسي أجرتة فيها . وفي منى تقام أسواق الهند والمغرب والروم لمدة ثلاثة أيام تعرض فيها أمتعة هذه البلاد .

ونحرناء منى في يوم العيد، ومسألة النحر هناك مؤسفة جداً، حيث إن هناك يذبح حوالي ألف من غنم وجهل ، ثم تدفن جثثها تحت التراب لنالا

تفسد . فلماذا لا يقوم فقهاء المسلمين وزعمائهم باتخاذ تدبير بشأن هذا؟ .

والقدارة هنا شيء لا يوصف . والحقيقة أن المسلم لابد من أن يخجل حينما يرى أن معبداً من معابد المسلمين يكون بهذه الصورة ، أفٍ للحجاج لقصورهم وأفٍ لزعماء المسلمين لتقصيرهم .

وفي منى يوقدون المصابيح ليلتين ؛ ليلية الحادي عشر من ذي الحجة ، وهذه الليلة تختص بالشيعة ، وليلة الثاني عشر منه وهي تختص بالسنة . ويقف العسكر الشامي في هذه الليلة في منى بجانب ، والعسكر المصري بجانب آخر ، ويبلغ عددهم أربعمئة خيال . ووراء العسكرين يقف ألفا جندي يطلقون البنادق والمدافع والمسدسات لمدة ساعتين . أعتقد أن البارود الذي يصرف في هاتين الليلتين ، لا يصرف في أي ميدان من ميادين الحرب .

المدينة : قطعنا المسافة بين مكة والمدينة في عشرة أيام . وفي اليوم العاشر من محرم ، لما عبرنا عقبة صغيرة بدا سواد المدينة . وكان على جانبنا الأيسر مسجد الشجرة ، ويقع في أرض سهلة وهو ميقات أهل المدينة وتستحب فيه ركعتان ، ويقول أمين الدولة : ورأيت قبة من بعيد ، فسألت دليلي : هل هناك مسجد الشجرة؟ قال : لا . لأنه واقع في الطريق السلطاني ، ولكن القبة الخضراء التي تراها هي قبة مسجد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) . فأمرت أن يوقف العماري فترلت وأعطيت ليرات للمكاري شكراً ، وأخذت أمشي ، فقال دليلي الطريق بعد ولعلك تتعب ، قلت : كلا . فكأنني الآن أمشي على الحرير والاستبرق . وفي المدينة أجرتنا بيتا بثلاثة ريالات فرنسية لكل يوم ، وذهبنا إلى المسجد قبل الغروب بنصف ساعة ، فقبل لنا لا يسمح للأعاجم أن يدخلوا المسجد بعد العصر . فذهبنا إلى البقيع فلم يؤذن لنا هناك بالدخول أيضاً .

مسجد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أقصر من المسجد الحرام بكثير ، والقسم الأعظم منه مسقوف ، والمسجد مبني من الحجارة والآجر . بناه الملك الأشرف "قايتباي" من سلاطين الشركس . وللمسجد تسعة أبواب منها باب

الرحمة ، وباب التوسل ، وباب النساء ، وباب جبرئيل ، وباب قاييتاي . وفي المدينة ذهبنا إلى سفح جبل أحد، فهناك كان مقتل حمزة عم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) والشهداء الذين استشهدوا في الغزوة المعروفة بغزوة أحد . وذهبنا إلى مسجد قبا وفيه تحولت القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة . وفي طول الطريق من المدينة إلى قبا كانت بساطين النخل تتوالى ، وهذا الطريق يقطعه الراكب في عشرين دقيقة . والأراضي حول المدينة قريبة إلى الماء ، حيث يحفر البئر فيها في أكثر المواقع . ولما أردنا أن نرحل من المدينة حفروا في أحد المنازل الأرض وظهر الماء في عمق لم يكن أكثر من ذراع ، حيث تمكنوا من الاستسقاء لثلاثة آلاف بعير وأخذوا الماء لطريقهم أيضاً.

الهوامش :

(١) راجع فهرس المخطوطات (فهرست نسخه هاي خطي) ، أحمد متزوي ، ٦ : ٤٣٠ — ٤٣٤ .

(*) كذا بالأصل ، والمعروف أن المسافة بين الصفا والمروة أكثر بكثير من "سبعين" خطوة . (الخرور) .

حدود عرفات . مزدلفة . منى

تأليف : حسن الجواهري

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خير خلقه محمد وآله الطيبين الطاهرين وصحبه الميامين .
إنّ البحث الذي نريد الكتابة عنه هو بحثٌ تاريخيٌّ جغرافيٌّ يكون موضوعاً لأحكام شرعيةٍ كثيرة، ألا وهو تحديد (عرفات، مزدلفة ، منى) وقد ذكر الفقهاء الأحكام الكثرة الواردة على هذه الموضوعات الثلاثة ، ولأن كان الموضوع قد حدّده الشارع المقدّس في الروايات الواردة عن المعصوم (عليه السلام)، إلّا أنّ المصداق لهذا المفهوم لا بدّ من أخذه من أهل الخبرة في تعيين ما حدّده الشارع، وعلى هذا فنحن بحاجة: أولاً: إلى ما حدّده الشارع المقدّس كمفهوم لهذه الألفاظ الثلاثة .
وثانياً: إلى تعيين هذه المواضع إمّا من شيعاء أهل الخبرة إذا اختلفوا في تعيين المصداق، أو لم يختلفوا حيث أنّه يفيد علماً أو اطمئناناً.
ولا يخفى أنّ القاعدة عند الشكّ في تعيين المصداق تقتضي الاقتصار على القدر متيقّن؛ لقاعدة الاشتغال اليقيني الذي يستدعي الفراغ اليقيني، بمعنى أنّ مشكوك الموقفيّة أو الموضعيّة يوجب الشكّ في الامتنال الذي حدّد في هذه الأمكنة ، فتجري القاعدة .
ولا بأس بالتنبيه إلى أنّنا لا نخل ببعض الاشكالات والأبحاث الفقهيّة

التي تتعلق بهذه الدراسة . فنقول وبالله التوفيق.

أولاً — حدود عرفات :

إنَّ عرفات منطقة تقع شرقيَّ مكَّة بحوالي ٢٢ كم وهي سهل واسع منبسّط مُحاط بقوس من الجبال يكون وتره وادي عَرَفَة ، فمن الشمال الشرقي يُشرف عليها جبل أسمر شامخ وهو (جبل سعد) ومن مطلع الشمس يشرف عليها جبل أشهب أقلَّ ارتفاعاً من سابقه ويتّصل به من الجنوب وهذا يسمى (ملّحه) ، ومن الجنوب تشرف عليه سلسلة لاطية سوداء تسمّى (أمّ الرضوم) أمّا من الشمال إلى الجنوب فيمرّ وادي عَرَفَة (١).

وقد ذكرت الروايات حدود عرفات ممّا يلي الحرم، حيث إنّه هو الذي يحتاج إلى تحديد، أمّا الجهات الثلاث الأخرى فكأنّها لا تحتاج إلى تحديد؛ لوجود سلسلة الجبال التي تقطع بين عرفات وغيرها. فقالت الروايات وتبعها الفقهاء : بأنّ الحاج لو وقف "بنمِرة أو عَرَفَة ، أو ثوية أو ذي الحجاز أو بجانب الأراك أو غير ذلك ممّا هو خارج عن عَرَفَة لم يجزه" ، فمن الروايات:

١— صحيح معاوية بن عمّار عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال : "إذا أنتهيت إلى عَرَفَات فاضرب قبلك بنمِرة وهي بطن عُرّة دون الموقف ودون عُرّة . . . وحدّ عَرَفَة من بطن عُرّة وثوية ونمِرة إلى ذي الحجاز، وخلف الجبل موقف" (٢).

٢— خبر سماعة عن الإمام الصادق (عليه السلام) : "واتقِ الأراك ونمِرة وهي بطن عُرّة، وثوية وذي الحجاز فإنّه ليس من عَرَفَة ولا تقف فيه" (٣).

٣— خبر إسحاق بن عمّار عن الإمام الكاظم (عليه السلام) . قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : "ارتفعوا عن وادي عُرّة بعرفات" (٤).

أقول : إنّ هذه الأماكن الخمسة هي حدود عَرَفَة من ناحية الغرب (الحرم) وهي

راجعة إلى أربعة كما هو المعروف من الحدود، لأنَّ نَمِرَةَ هي بطن عَرَفَةَ كما روي في حديث معاوية المتقدم عن الإمام الصادق (عليه السلام)

شرح الألفاظ :

١— نَمِرَةَ :

بفتح النون وكسر الميم وفتح الراء المهملة (وهي بطن عَرَفَةَ) كما ذكرت الروايات المتقدمة .

وقد ذكر ابن تيمية عن نَمِرَةَ كانت قرية خارجة عن عرفات من جهة اليمن، فيقيمون فيها إلى الزوال كما فعل النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) ثُمَّ يَسِيرُونَ مِنْهَا إِلَى بطن الوادي، وهو موضع النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) الذي صَلَّى فِيهِ الظُّهْر والعَصْر وخطب ، وهو في حدود عَرَفَةَ لبطن عَرَفَةَ وهناك مسجد يُقال له مسجد إبراهيم ، وأُتِمَّ بُنْيَانُهُ فِي أَوَّلِ دَوْلَةِ بَنِي الْعَبَّاسِ .

وقال ابن القَيِّم : "نَمِرَةَ قرية غربيَّ عرفات، وهي خراب اليوم، نزل بها النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) حَتَّى إِذَا زَالَتِ الشَّمْسُ أَمَرَ بِنَاقَتِهِ الْقِصْوَاءَ فَرَحَلَتْ لَهُ، ثُمَّ سَارَ حَتَّى أَتَى بطن الوادي من ارض عَرَفَةَ فخطب الناس، وموضع خطبته لم يكن من الموقف، فإنه خطب بَعْرَةَ، وليس من الموقف، فهو (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) نَزَلَ بِنَمِرَةَ وخطب بَعْرَةَ ووقف بَعْرَةَ" (٥).

والمراد من المسجد الذي يسمَّى مسجد إبراهيم فيما ذكره ابن تيمية، هو المسجد القديم الذي اختلف فيه أَنَّهُ من عرفات أو خارجها على ثلاثة أقوال :

١— فقد ذكر إمام الحرمَين الجويني والقاضي حسين والرافعي وجماعة من الخراسانيين قالوا: إِنَّ مَقْدَمَ الْمَسْجِدِ — الْقَدِيمِ — فِي وَادِي عَرَفَةَ وَمُؤَخَّرُهُ فِي عَرَفَاتٍ، وَيَتَمَيَّزُ ذَلِكَ بِصَخْرَاتٍ كِبَارٍ فُرِشَتْ هُنَاكَ .

٢ — قال في البحر العميق نقلاً عن الطبرالسي وغيره : "إن جميع المسجد — القديم — من عَرَفَة وإن جداره الغربي لو سقط، لسقط على بطن عَرَفَة".

صرّح كثير من علماء الإسلام بعدم دخول المسجد القديم في عَرَفَة تبعاً للروايات المشتملة على صفة حجّ رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) فقد روى معاوية بن عمّار حجّ النبي (صلّى الله عليه وآله وسلم) فقال: حتى انتهى إلى نَمِرَة وهي بطن عَرَفَة بحيال الأراك، فضرب قبته وضرب الناس أخبيتهم عندها، فلمّا زالت الشمس خرج رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) ومعه قريش وقد اغتسل وقطع التلبية حتّى وقف بالمسجد، فوعظ الناس وأمرهم ونهاهم، ثمّ صلّى الظهر والعصر بأذانٍ واحد وإقامتين ، ثمّ مضى إلى الموقف فوقف به " (٦). وقد قال الشافعي (وهو مكّي قرشي) في الأمّ : "وعَرَفَة ما جاوز وادي عَرَفَة الذي فيه المسجد، وليس المسجد ولا وادي عَرَفَة من عَرَفَة". وقال النووي في الايضاح: "واعلم أنّه ليس من عرفات وادي عَرَفَة ولا نَمِرَة ولا المسجد المسمّى مسجد إبراهيم — يُقال له أيضاً مسجد عَرَفَة — بل هذه المواضع خارجة عن عرفات على طرفها الغربيّ ممّا يلي مُزْدَلِفَة".

أقول : إنّ القاعدة التي ذكرناها في أوّل البحث في خصوص ما إذا اختلف أهل الخبرة في كون المسجد من عَرَفَات أو خارج عنها، فإنّ المدار على الشيعاء الذي يفيد الاطمئنان بأنّ المسجد ليس من عَرَفَة، على أنّ ظاهر الصحيحة المتقدّمة أنّه خارج عن موقف عرفات ، كما هو الأحوط لهذه العبادة العظيمة .

ومساحة ضلع هذا المسجد القديم من مبتدئه من الناحية الغربيّة إلى منتهاه من الناحية الشرقيّة (مئة ذراع وثلاث وستون ذراعاً) كما ذكره الأزرق في تاريخ مكّة ، وأنّ مساحة ضلعه من ركنه الشمالي الشرقي إلى الركن الجنوبي

الشرقي (مثنان وثلاث عشرة ذراعاً) (٧).

ولكن حصلت زيادات على القدر القديم للمسجد . فإن كانت هذه الزيادة لجهة المشرق فقد دخلت هذه الزيادة في عَرَفَة كما قال البعض وهو القشيري، فقد قال: " والمسجد — أي القديم — الذي يصلي فيه الإمام اليوم يوم عَرَفَة هو في بطن عُرَّة فإذا خرج منه الإنسان يريد الوقوف فقد صار في عَرَفَة".

ولكن إذا أخذنا بهذا القول الشائع والمشهور، وقلنا: إنَّ المسجد القديم ليس من عرفات، وقد صلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) الظهر والعصر فيه، فسوف تواجهنا مشكلة ينبغي حلها، وهذه المشكلة عبارة عن القول بعدم وجوب الوقوف في عَرَفَة من أوَّل الزوال إلى الغروب اختياراً، بل يكفي الوقوف بعَرَفَة بعد الزوال بمقدار ما يغتسل ويصلي ويخطب ويذهب إلى الموقف . بينما ذكر أنَّ وقت الاختيار في الوقوف بعَرَفَة هو من زوال الشمس إلى غروبها وأنَّ الركن هو المسمَّى وكأنَّ هذا من البديهيَّات، فقد ذكر الشهيد الأوَّل والثاني في كتاب اللُّمعة الدمشقيَّة وشرحها بأنَّ من الواجبات "الوقوف بمعنى الكون بعَرَفَة من زوال التاسع إلى غروب الشمس مقروناً بالنية المشتملة على قصد الفعل المخصوص متقرباً بعد تحقُّق الزوال بغير فصل، والركن من ذلك أمر كلي وهو جزء من مجموع الوقت بعد النية ولو سائراً، والواجب الكل" (٨). وقد صرَّح غير واحدٍ من الفقهاء بذلك ، بل في المدارك نسبته إلى الأصحاب، فيجب مقارنة النية للزوال ليقع الوقوف بأسره بعد النية ، وإلاَّ فات جزء منه ، ثمَّ لو أحرَّ أتمَّ إلاَّ أنه يجزي كما صرَّح به في الدروس (٩).

وهذه المشكلة وإن لم تُحلَّ بناءً على وجوب الوقوف من الزوال إلى الغروب، إلاَّ أنَّها لا تعيّن القول القائل بوجوب مسمّى الوقوف في عَرَفَات فقط، فإنَّ هذا القول يدفعه وجوب البقاء إلى الغروب وحُرمة الخروج من

عَرَفَات قبله، والكفّارة لِمَن تعمّد ذلك، ووجوب العود إلى الموقف لو خرج إذا كانت الشمس لم تغرب .

وقد تحلّى هذه المشكلة بأحد حلّين :

الحلّ الأوّل : (بناءً على وجوب الوقوف ما بين الحدين) بقولنا: إنّ المراد من الوقوف في عَرَفَة هو الوقوف العرفي الذي تكون مقدّماته المشرقة على الوقوف محسوبة منه، وعلى هذا تكون مقدّمات الوقوف المشتملة على الغسل والصلاة والخطبة والتهيؤ للوقوف من الوقوف .

الحلّ الثاني : عدم وجود دليل يثبت وجوب الوقوف ما بين الحدين، بل ذكر ذلك بعض الفقهاء ، وأمّا الدليل الذي ذكر لنا حجّ النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) فهو يدلّ على أنّ الوقوف يكون بعد الظهر بساعة مثلاً إلى غروب الشمس، وهذا الحلّ الثاني هو الأوفق، إذ إنّ الحلّ الأوّل وإن كان يثبت أنّ مقدّمات الوقوف من الوقوف، إلّا أنّه لم يثبت أنّ الوقوف كان في عَرَفَات .

قرائن على أنّ نَمِرَة من عَرَفَات :

وإلى هنا كنّا نوّيد القول القائل بأنّ نَمِرَة هي خارجة عن حدود عَرَفَات كما ذكرت ذلك الروايات، ولكنّ هناك قولٌ آخر يبيّن أنّ نَمِرَة من عَرَفَات لكنّها خارج موقف الدعاء ، وسوف نذكر بعض القرائن على ذلك :

١— ما قاله في القاموس : "إنّها (أي نَمِرَة) موضعُ بعَرَفَات، أو الميل الذي عليه أقطاب الحرم" وحينئذ يكون المراد بمضميّة الرواح إلى الموقف، ميسرة الجبل الذي يستحبّ الوقوف فيه .

٢— إطلاق عَرَفَات في بعض الأخبار على ما يشمل (نَمِرَة) أيضاً كما ورد في صحيح معاوية بن عمّار وأبي بصير جميعاً عن الإمام الصادق (عليه السلام) ، حيث قال : "وحدّ عَرَفَات من المأزمين إلى أقصى الموقف" (١٠). وهذا

الحديث صريحٌ في أنَّ ما بعد المأزَمين إلى أقصى الموقف اسمه عرفات، ونَمِرَة داخلَة في عرفات حيث إنها واقعةٌ على يمين مَنْ خرج مِنَ المأزَمين وأراد الموقف، وعلى هذا فيكون إطلاق عرفات على ما بعد نَمِرَة في بعض الأخبار لأجل أفضليّة هذه القطعة، أو لكونه محلًّا للاعتراف بالذنوب، لا أنَّ عرفات هي هذه القطعة فقط .

٣— ما ذُكر من استحباب الجمع بين الصلاتين بعَرَفَة، قال في التذكرة : "ويجوز الجمع لكلِّ مَنْ بعَرَفَة من مكِّي وغيره، وقد اجمع علماء الإسلام على أنَّ الإمام يجمع بين الظهر والعصر بعَرَفَة" (١١). وعلى هذا يظهر أنَّ صلاة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كانت بعَرَفَة ، ويشهد لهذا ما رُوِيَ عن دعائم الإسلام عن الإمام الصادق (عليه السلام) عن عليّ (عليه السلام) : "أنَّ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) غدا يوم عَرَفَة من منى فصلى الظهر بعَرَفَة ، لم يخرج من منى حتّى طلعت الشمس" (١٢).

كما يظهر من خبر جذاعة الأسدي معروفة إبقاء الصلاتين بعَرَفَة في ذلك الزمان حيث قال : "قلت للإمام الصادق (عليه السلام) : رجلٌ وقف بالموقف فأصابته دهشة الناس فبقى ينظر إلى الناس ولا يدعو حتّى أفاض الناس . قال (عليه السلام) : يجزيه وقوفه . ثمَّ قال : أليس قد صلى بعرفات الظهر والعصر وقت ودعا؟ قلت : بلى . قال (عليه السلام) : فعرفات كلّها موقف وما قرب من الجبل فهو أفضل" (١٣).

٤— لقد ذكر بعض الفقهاء أنَّ نَمِرَة من عَرَفَة، فقد قال الصدوق في المقتنع : "ثمَّ تلبّي وانت مارًّا إلى عرفات، فإذا ارتقيت إلى عرفات فضرِب خباءك بنَمِرَة، فإنَّ فيها ضَرَب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) خباءه وقبته، فإذا زالت الشمس يوم عَرَفَة فاقطع التلبية وعليك بالتهليل والتحميد والثناء على الله . . . ثمَّ قال : إياك أن تفيض منها قبل غروب الشمس . . . " .

وقال ابن بابويه في الفقيه: "فإذا أتيت إلى عرفات فاضرب خباءك بنمرة قريباً من المسجد، فإنّ تمّ ضرب رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) خباءه وقبّته . . .".

وفي المنعة: "ثمّ يُلبّ وهو غادٍ إلى عرفات، فإذا أتاها ضرب خباءه بنمرة قريباً من المسجد، فإنّ رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) ضرب قبّته هناك . . .". (١٤).

وقد ذكر عن بعض الحنفية: أنّه قيل حدّ عرفات ما بين الجبل المشرف على بطن عرنة إلى الجبال المقابلة لعرنة ممّا يلي حوائط بني عامر وطريق الحصّ . . .

وعن الأزرقى: عن ابن عباس أنّ حدّ عرفات من الجبل المشرف على بطن عرنة بالنون إلى جبال عرفات إلى وصيق إلى ملتقى وصيق ووادي عرنة .

وعن بعضهم أنّ مقدّم مسجد إبراهيم (عليه السلام) أوّل ليس من عُرنة ومقتضاه أنّ ما عدا الأوّل من عرفات فيمكن أن تكون صلاة النبي (صلّى الله عليه وآله وسلم) فيما كان منه من عرفات، ويشهد لذلك ما يُحكى عنهم من الجواب لأبي يوسف (عن إشكاله بمنافاة الصلاة للوقوف من أوّل الوقت إلى الزوال) بأنّه لا منافاة، فإنّ المصلّي واقف . وهذا كالصريح في كَوْن المسجد من عرفة . وقد تقدّم ممّا عن الرافعي الجزم بذلك مع شدّة تحقيقه وإطلاعه (١٥).

أقول: إذا أخذنا بهذه القرائن على أنّ نَمرة التي فيها المسجد الذي يُقال عنه أنّه مسجد إبراهيم، وقُلنا إنّ النبي (صلّى الله عليه وآله وسلم) قد صلّى فيه الظهر والعصر جمعاً، فيجب أن نفسر الروايات القائلة بذهاب النبي (صلّى الله عليه وآله وسلم) إلى الموقف بعد الصلاة، بإرادة موقف الدعاء في ميسرة الجبل الذي يُستحبّ فيه الوقوف أو التشاغل بما يقتضيه من الدعاء والتحميد والتمجيد والتلهيل والتكبير والدعاء لنفسه ولغيره ممّا جاءت به النصوص في ذلك الموقف .

والتحقيق : إن هذه القرائن كلّها لا تقف في وجه الروايات القائلة بأنّ الوقوف في (نَمِرَة) التي هي بطن عرنة لا يجزي .
ولا بأس بالتنبيه في آخر كلامنا عن نَمِرَة، بأنّ في حدود عرفات يوجد جبل اسمه (جبل نَمِرَة) وهو غير قرية نَمِرَة التي هي بطن عرنة
وأما عَرَفَة البلادي "بأنّه جبلٌ صغير بارز تراه غربك وأنت واقفٌ بعرفة بينك وبينه سيل وادي عرنة، وإذا كنت تؤمّ عرفة عن طريق ضب
تمرّ بسفحه الشمالي" (١٦).

وهذا الجبل خارج عن حدود عرفة كما هو واضح .

٢ — عُرْنَة :

— بضمّ العين المهملة وفتح الراء المهملة وفتح النون — هي وادي ما بين عرفات والحرم عرضاً وهو حدّ عرفات من الناحية الغربيّة،
حيث يتندى من الجهة الشماليّة من مُلتقى وادي وصيق بوادي عُرْنَة وينتهي من الجهة الجنوبيّة عندما يُحاذي أوّل سفح الجبل الواقع بين طريق
المأزمين وطريق ضب والذي بطرفه الشمالي قرية نَمِرَة من الجهة الشرقيّة غربيّ الواقف هناك وغربيّ سفح الجبال التي في منتهى عَرَفَة من الجهة
الجنوبيّة الشرقيّة بخطّ مستقيم، وقد قُدِّرَت المسافة بين وصيق بوادي عُرْنَة من الجهة الشماليّة إلى مُنتهاه من الجهة الجنوبيّة بخمسة آلاف
متر (١٧).

وبين وادي عُرْنَة المذكور وبين الموقف علّمان كبيران يقعان شمالي شرقي مسجد إبراهيم، وهما الحدّ الفاصل بين وادي عُرْنَة وبين عَرَفَة
كما ذكر ذلك تقيّ الدين الفاسي في كتابه (شفاء الغرام) حيث قال: "وكان ثمة ثلاثة أعلام سقط احدها وهو الذي إلى جهة المغمّس وأثره
بين ورأيت عنده حجراً مُلقى مكتوباً فيه: أمر الأمير الأصفهسلار الكبير مظفرّ الدين صاحب إربل حسان أمير المؤمنين بإنشاء هذه الأعلام
الثلاثة بين منتهى أرض عَرَفَة ووادي عُرْنَة، لا يجوز

لحاج بيت الله العظيم أن يجاوز هذه الأعلام قبل غروب الشمس، وفيه كان ذلك بتاريخ شعبان من شهور سنة (٦٠٥)، ورأيت مثل ذلك مكتوباً في حجرٍ مُلقًى في أحد العَلَمِينَ الباقيين، وفي هَذَيْنِ العَلَمَيْنِ مكتوب: أَمَرَ بَعْمَارَةَ عَلَمِي عَرَفَات، وأضاف كاتب ذلك: هذا الأمر للمستظهر العباسي، ثم قال: وذلك في شهر . . . سنة أربع وثلاثين وستمئة " (١٨).

وقد تقدّم منّا ذكر الحديث عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في خبر إسحاق الذي يقول: "ارتفعوا عن وادي عرنة بعرفات" وهو يدلّ دلالة واضحة على أنّ عرنة ليس من موقف عرفة، للأمر بالارتفاع عنه الذي لازمه النهي عن الإتيان بالوقوف فيه . وبعبارة أخرى أنّ وادي عُرْنَةَ لما كان ملاصقاً لموقف عُرْفَةَ، بل ومشابهاً له احتاج إلى أن يُنبّه على عدم إجزاء الوقوف فيه والأمر بالوقوف حين الارتفاع عنه . أقول : إنّ الأحاديث المتقدّمة التي ذكرت أنّ عُرْنَةَ ليست من عرفات، قد شخّصت منذ قدم الزمان بأعلام تفصل بين عُرْفَةَ ووادي عُرْنَةَ، وبهذا التحديد وبيان المصداق تخلصنا من مشكلة التعيين التي لا بدّ فيها من الرجوع إلى أهل الخبرة التي يضعف الاعتماد عليها كلّما تمادي الزمان .

إشكال في تعيين صُغرى عَرَفَات :

قلنا فيما تقدّم إنّ الروايات التي ذكرت بأنّ عُرْنَةَ ليست من عرفات قد شخّصها المتقدّمون علينا بزمنٍ ليس بالقليل، فقد ارتفع إشكال تحديد معنى عرفات من ناحية المصداق، ولكن مع هذا بقيّ إشكالٌ واحد هو: إذا كانت عُرْنَةَ هي وادي بين عرفات والحرم عرضاً، فينبغي أن يكون بانتهاء الوادي العرضي موقف عرفات، ولكننا نرى الآن بين العَلَمَيْنِ الذين وضَعَهُمَا ملك إربل في عام (٦٠٥) وبين مجرى وادي عُرْنَةَ مسافة لا يقلّ عرضها عن مئة متر

وهي مرتفعة عن وادي عُرَّة، فكيف لا تكون داخلية في موقف عُرَّة؟

الجواب:

أنَّه لا بدَّ من الرجوع فيه إلى أهل الخبرة، فقد ذكروا أنَّ مجرى وادي عُرَّة آنذاك هو بداية وضع الأعلام، ولكن بما أنَّ سهول عُرَّة كلّها رمالٌ تنتقل فقد تراكمت الرمال في هذا الجانب من الوادي، وقد ذكر القاطنون في تلك الأماكن بأنَّ سيل الوادي قد يشتد في بعض الأحيان فيعلو على هذه الأتربة ويُزيلها (١٩). وعلى هذا فيبقى أنَّ حدَّ عُرَّة هو ما أثبت بواسطة الأعلام منذ قديم الزمان وأنَّ الأحكام الشرعية لا تبدل ولا تتغير بتراكم الأتربة في أحد جانبي الوادي .

٣ — ثَوِيَّة:

— بفتح الفاء وتشديد الباء — لقد ذكر الطريحي في مجمع البحرين قول: "الثَوِيَّة: حدُّ من حدود عُرَّة، وفي الحديث: ليست منها". وقد ذكر في كتاب الحجاز بين اليمامة والحجاز ما نصّه: "عرفات: إذا ترك الطريق ثنية (الجليلة) خلفه ووادي نعمان يساره، دلف إلى منطقة عرفات ماراً بجنوبيها غربيها" (٢٠).

وقال البلادي في (معجم معالم الحجاز) معرّفاً الجليلة — وهي بالتصغير وتشديد الباء المثناة — شعب يسيل من جبل ملحّة فيصبّ في عُرَّة من الجنوب الشرقي مجتمعاً مع الأحوم، في رأسه ريع (يعني ثنية) بهذا الاسم يطلعك من عُرَّة على نعمان" (٢١). وقد ذكر محقق كتاب هداية الناسك هذا الاستنتاج: "وهذا يعني أنَّ هذه الثنية أو الريع حد من حدود عُرَّة، وعليه فمن المظنون قوياً أنَّ كلمة (ثنية) دخلها تحريف النسخ فعادت ثَوِيَّة" (٢٢).

أقول: إذا كانت ثَوِيَّة أو ثنية هي حدَّ عُرَّة من ناحية الجنوب الغربي،

فإنَّ جنوب عَرَفةَ جبالٍ ممتدَّةٍ من المشرق إلى الجنوب، وقد اخترق فيها قبل فترة طريقٌ للسيَّارات الذاهبة إلى الطائف، فما أدخله هذا الحدّ من حوائط ابن عامر وقرية عَرَفة داخلٌ في عرفات . وقد نقل الطبري في القرى نقلاً عن البلخي في معرفة حائط بني عامر فقال: "حائط بني عامر غير عُرَّة، وبقره المسجد الذي يجمع فيه الإمام الظهر والعصر، وهو حائط نخل وفيه عين تُنسب إلى عبد الله ابن عامر بن كريز، قلت: وهي الآن حراب". وقد شوهد أخيراً الآثار لتلك الحوائط من الجهة الجنوبيَّة عندما كشفت الرياح من آثار المصانع والبرك الكبار والأساسات القويَّة التي تشير إلى أنَّه كان في الموضع المذكور قصورٌ وحوائط وجواري واسعة تليق بمكانة هذا الرجل الشهير والذي قال ابن الأثير عنه: "إنَّه أوَّل مَنْ اتخذ الحياض بعَرَفة وأجرى فيها العين" (٢٣).

وقال ياقوت في (معجم البلدان) نقلاً عن البشاري: "قرية عرفة: قرية فيها مزارع وخضر ومباطخ وبها دورٌ حسنة لأهل مكَّة يزولونها يوم عَرَفة والموقف منها على صيحة" (٢٤). فإذا كانت قرية عَرَفة داخلية في حدود عرفة . فالمراد من الموقف هنا هو الوقوف في سفح الجبل للدعاء الذي يكون مستحباً .

٤— ذو الحجاز:

قال الأزرق في أخبار مكَّة: "و ذو الحجاز: سوقٌ هُذيل عن يمين الموقف من عَرَفة قريب كبكب على فرسخ من عَرَفة" (٢٥). وقال حمد الجاسر: "يسمى الحجاز الآن، وهو وادي عظيم يحفّ كبكب من غربيّه ثمَّ يمرَّ بعرفات، وفيه مياه ومزارع على المطر، وسكّانه هذيل" (٢٦).

وقد اختصره صاحب الجواهر بقوله: "وهو سوق كانت على فرسخ من عرفة بناحية كبكب" (٢٧).

وفي الوافي: "وفي النهاية: ذو الحجاز موضعٌ عند عرفات كان يُقام فيه

سوقٌ من أسواق العرب في الجاهليّة، والحجاز موضع الجواز والميم زائدة، سُمّي به لأنّ إجازة الحاج كان فيه" (٢٨).
أقول: إذا كان ذو الحجاز هو السوق فهو بعيدٌ من عرفات وليس حدًّا لها، وإذا كان هو الوادي العظيم الذي يمرّ بعرفات فتكون إحدى جهاته حدًّا لعرفات وهي الجهة الملاصقة لعرفات منه، ولما كان هذا الوادي شبيهٌ بعرفات نهي الشارع المقدّس عن الوقوف فيه .
— الأراك :

والمقصود به نعمان الأراك .

قال البلادي: "واديّ فحل من أودية الحجاز التهاميّة . . وينحدر غرباً، فيمرّ جنوب عرفات عن قرب ثمّ يجتمع بعرّة فيطلق عليه اسم عرّة، يمرّ بين جبليّ كُساب وحَبشيّ جنوب مكّة على أحد عشر كيلاً، ويكون هناك حدود الحرم الشريف، ويتّسع الوادي بين كبكب والقرضة فيسمّى خبت نعمان لفياحه وسعته" (٢٩).

وقال الجاسر: "ونعمان : واديّ عظيم يقطعه القادم من الطائف إلى مكّة من طريق كرا إذا أقبل على عرفات، وهو يحفّ جنوب عرفات، فيه مزارع ومياه كثيرة" (٣٠).

وقال في مجمع البحرين: "الأراك كسحاب شجر يُستاك بقضبان له حمل كعناقيد العنب يملأ العنقود الكفّ، والمراد به هنا موضعٌ بعرفة من ناحية الشام قرب نيرة" (٣١).

أقول: يبدو كما ذكرنا سابقاً أنّ الأراك ليس من حدود عرفة لعدم ملاصقته للحدود وإنّما نُهي عن الوقوف فيه وصرّح بعدم الإجزاء لاحتمال الاشتباه في الوقوف فيه .

وقد ذكر الدكتور الفضلي أنَّ عين زبيدة الشهيرة تتبع منه (٣٢).

والخلاصة: فعرفة من جهة الشمال الشرقي حدّها جبل سعد (جبل عرفات) .

ومن جهة الشرق سلسلة جبال .

وكذا من جهة الجنوب .

ومن الغرب وادي عُرّة .

وعلى هذا فسيكون ذو المجاز (إذا لم يكن هو السوق) فهو حدّها من جهة الشمال الغربي .

وأما الأراك فهو ليس حدّاً لعُرّة كما هو واضح .

وجوه الجبال المحيطة بعُرّات داخلية في الموقف:

قد يقال: إنّ الجبال المحيطة بعرفات بما أنّها حدّ لعرفات فهي خارجة عن الحدود فلا يجوز الوقوف بها، مثلها مثل الحدود التي ذكرت في

الرواية لعرفة فإنّها خارجة عن الحدود .

ولكن نقول: إنّ الروايات التي ذكرت حدود عُرّة مثل (نَمِرَة وعُرّة وثَوِيّة وذِي المجاز والأراك) قد صرّحت بخروجها عن عُرّة للنسهي

الذي ورد في الوقوف بها أو الأمر بالالتقاء .

أمّا الجبال المحيطة بعُرّة فالمفهوم الارتكازي أنّ واجهاتها من عُرّة . بالإضافة إلى وجود القرائن الكثيرة الدالة على دخول واجهات الجبال

في عرفة منها:

١— مؤثقة إسحاق بن عمّار، قال سألت الإمام موسى بن جعفر (عليه السلام) عن الوقوف بعرفات فوق الجبل أحبّ إليك أم على

الأرض؟ فقال: "على الأرض" (٣٣). ووضح أنّ على الجبل يكون محبوباً إليه، إلّا أنّ الأرض أحبّ

إليه، وهو معنى الجواز.

٢— صحيح معاوية بن عمار عن الإمام الصادق (عليه السلام) في حديث قال: "وَحَدَّ عَرَفَةَ مِنْ بَطْنِ عُرْنَةٍ وَنَوِيَّةٍ وَنَجْرَةٍ إِلَى ذِي الْحِجَازِ، وَخَلْفَ الْجَبَلِ مَوْقِفٌ" (٣٤) ومراده خلف الجبل الذي يكون وجهه إلى عرفات وهو يشمل كل ما يكون خلفه حتى جهته التي تكون إلى عرفات .

٣— استحباب الوقوف في ميسرة الجبل: ومعنى ذلك على أكثر تقدير كراهة الوقوف على واجهة الجبل وهو معنى الجواز، فقد روى معاوية بن عمار في الصحيح عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: "قَفْ فِي مَيْسَرَةِ الْجَبَلِ، فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) وَقَفَ بِعَرَفَاتٍ فِي مَيْسَرَةِ الْجَبَلِ، فَلَمَّا وَقَفَ جَعَلَ النَّاسُ يَبْتَذِرُونَ أَخْفَافَ نَاقَتِهِ فَيَقْفُونَ إِلَى جَانِبِهِ، فَنَحَّاهَا، ففعلوا مثل ذلك، فقال: أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّهُ لَيْسَ مَوْضِعُ أَخْفَافِ نَاقَتِي الْمَوْقِفِ، وَلَكِنْ هَذَا كُلُّهُ مَوْقِفٌ وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى الْمَوْقِفِ" (٣٥).

٤— عدم وجود أي رواية ولو ضعيفة في النهي عن الصعود على واجهة الجبال سواء كانت في عَرَفَةَ أو الْمَزْدَلِفَةَ أو مَنَى، وما ذاك إلا لأَوْضَحِيَّةِ جَوَازِ الْوُقُوفِ عَلَيْهَا وَدُخُولِهَا فِي الْحَدِّ .

٥— ما قاله الماوردي عن الشافعي: "حيث وقف الناس من عرفات في جوانبها ونواحيها وسهولها وبطاحها وأوديتها . . . إلخ" فإن هذا الكلام إذا ثبت تتم دليلية بعدم الردع من قبل الإمام (عليه السلام) .

فتبين من هذه الأدلة إجزاء الوقوف على واجهة الجبل المطلّة على عرفات أو مَنَى أو مزدلفة على كراهية فيها.

ثانياً — حدود المزدلفة :

ويقال لها جُمُوع (كما في بعض مناسك الحج) .

ويقال لها المشعر الحرام، أو المشعر اختصاراً، أخذاً بقوله تعالى {فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ} ولكن يُطلق المشعر على نفس المسجد القائم في المزدلفة، ويؤيده العنصرية المذكورة في الآية، كما يطلق على جبل فُزَح أيضاً، فقد ورد استحباب وطء الصلوة المشعر برجله، فقد حُكي عن الشهيد الأول في الدروس: "والظاهر أنه المسجد الموجود الآن"، وورد استحباب الصعود على فُزَح (بضم القاف وفتح الزاي المعجمة)، قال الشيخ الطوسي رحمه الله: "هو المشعر الحرام، وهو جبلٌ هناك يستحب الصعود عليه وذكر الله عليه" (٣٦).

وعلى هذا الذي تقدّم يكون إطلاق المشعر على المزدلفة كلّها إطلاقاً مجازياً من باب تسمية الشيء باسم الجزء .
وأما جمع: التي ضُبِطَتْ في بعض مناسك الحجّ — بضم الجيم وفتح الميم — ، فقد ضُبِطَتْ عند الجغرافيين والبلدانيين وأهل اللغة والمعاجم (بفتح الجيم وسكون الميم) فقد قال الشريف الرضي:

أَجِبْكَ مَا أَقَامَ مِنِّي وَجَمْعُ وَمَا أَرَسَى بِمَكَّةَ أَخْشِبَاهَا

وقد سُمِّيَتْ بذلك لاجتماع الحجاج فيها بعد الإفاضة من عرفات .
وأما تسميتها بالمزدلفة : وبدون أل على صيغة اسم الفاعل على زَنَةِ (مُفْتَعِل) وقد جاءت هذه التسمية من الازدلاف بمعنى التقادّم والإفاضة كما جاء في حديث معاوية بن عمّار عن الإمام الصادق (عليه السلام): "وَأَمَّا سُمِّيَتْ مَزْدَلْفَةً لِأَنَّهُمْ اازْدَلَفُوا إِلَيْهَا مِنْ عَرَفَاتٍ" (٣٧). ومقتضى مفاد هذا الحديث أن يكون لفظها بصيغة اسم المفعول (مزدلفة) بفتح اللام لأنّها اسم مكان .
حدود المزدلفة: لقد ذكرت الروايات حدود المزدلفة (ما بين المأزمين إلى الحياض إلى وادي محسر" (٣٨).

وفي زراة عن الإمام الباقر (عليه السلام) قال: "حُدُّها ما بين المأزمين إلى الجبل إلى حياض مُحَسَّر" (٣٩).

وقال الصادق عليه السلام في خبر أبي بصير: "حدّ المزدلفة من وادي مُحَسَّر إلى المأزمين" (٤٠).

وفي خبر إسحاق بن عمار عن أبي الحسن (عليه السلام): قال: "سألته عن حدّ جَمْع، قال: ما بين المأزمين إلى وادي مُحَسَّر" (٤١).

وفي صحيحة الحلبي عن الإمام الصادق (عليه السلام) في حديث قال: "ولا تجاوز الحياض ليلة المزدلفة" (٤٢).

شرح الحدود :

١— المأزمان : بكسر الزاء وبالحمز "ويجوز التخفيف بالقلب ألفاً"، وهما جبلان بينهما مضيق يدلّف إلى عرفات، وهو حدّ المزدلفة من الشرق، فقد ذكر الجوهري: "أنّ المأزم : كلّ طريقٍ ضيّقٍ بين جبلين ، ومنه سُمّي الموضع الذي بين جمع وعرفة مأزَمين". وفي القاموس: "المأزم ويقال له المأزمان مضيق بين جمع وعرفة وآخر بين مكّة ومِنى". وظاهرهما: أنّ المأزم اسمٌ لموضعٍ مخصوص وإن كان بلفظ التثنية .

حياض مُحَسَّر (وادي مُحَسَّر) : مُحَسَّر — بضمّ الميم وفتح الحاء المهملة وكسر السين المهملة وتشديدها — على زنة اسم الفاعل . قال البلادي : مُحَسَّر: وادٍ صغير يجرّ بين منى ومزدلفة وليس منها، يأخذ من سفوح ثبير إلى الأثرية الشرقية، ويدفع إلى عرفة ماراً بالحسينيّة، ليس به زراعة ولا عمران والمعروف منه ما يمرّ فيه الحاجّ على طريق بين منى ومزدلفة، وله علامات هناك منصوبة" (٤٣).

وقال ابن حميس في مجازة : "وَمُحَسَّر: وادٍ يقبل من الشمال إلى الجنوب من

فج يفصل بين منى وجبالها وبين مزدلفة وجبالها وهو منخفض يسيل عليه ما والاه منهما، وما يسيل من منى أكثر، وعرض وادي محسّر خمسمئة وأربعون ذراعاً" (٤٤)، أي ما يساوي ٢٧٠ متراً تقريباً .

وذكر في وجه تسميته بمحسّر من التحسير أي الإيقاع في الحسرة أو الإعياء ، سُمي به لأنه قيل إن أبرهة أوقع أصحابه في الحسرة أو الإعياء لما جهدوا أن يتوجّه إلى الكعبة فلم يفعل" (٤٥).

ثم إن الظاهر أن المراد من الحياض هي وادي محسّر لا أنه مكان آخر من المزدلفة، وأن الحياض جمع حوض وهو الوادي الذي قد يكون فيه مجموعة حياض، وقد تقدّم من الروايات التعبير (بحياض محسّر) فيكون التعبير بوادي محسّر بعد كلمة الحياض في بعض الروايات لبيان معنى الحياض .

ووادي محسّر هو حدود مزدلفة من ناحية الغرب، فضفة وادي محسّر الشرقيّة هي الحدّ الفاصل بين مزدلفة ومنى .

أقول: هذا التحديد الذي ذكر، هو تحديد للمزدلفة من ناحية طولها .

أمّا تحديد مزدلفة العرضي، فيوجد جبلان كبيران مطلّان على المزدلفة أحدهما من الجهة الشماليّة يقال له (جبل المزدلفة)، والآخر من الجهة الجنوبيّة، وقد ذكرهما صحيحة زرارة المتقدّمة عن الإمام الباقر (عليه السلام) بقولها إلى الجبل، والمراد به جنس الجبل هناك فيشمل الشمال والجنوب . إذن تبين أن ما بين حدّي مزدلفة طولاً وما بين حدّيها عرضاً من الشعاب والمضاب والقلاع والروابي ووجوه الجبال كلّها تابعة لمشعر مزدلفة وداحلة في حدودها، فعن الإمام الباقر (عليه السلام) قال: "ووقف النبيّ (صلّى الله عليه وآله وسلم) بجمع، فجعل الناس يتندرون أحفاف ناقتة، فأهوى بيده وهو واقف فقال: إني وقفت وكلّ هذا موقف" (٤٦).

وعلى هذا التحديد لمزدلفة، فلا يجوز الوقوف في المأزمين وقبلها إلى

عرفات ولا في وادي محسّر وبعده إلى مني، فإنّ هذه الحدود ليست من المزدلفة، فلا يجزي الوقوف فيها، وقد ورد في صحيح هشام بن الحكم عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال في حديث: "ولا تجاوز وادي محسّر حتّى تطلع الشمس" (٤٧).
وصحيح الحلبي عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال في حديث: "ولا تجاوز الحياض في ليلة المزدلفة" (٤٨).
وقد جوّزت الروايات الارتفاع إلى المأزمين الذي هو حدّ المزدلفة خارجاً عن الحدود عند الضرورة لازدحام الناس وضيق مزدلفة عليهم، فقد روى سماعة في الموثّق قال، قلت للإمام الصادق (عليه السلام): "إذا كثر الناس بجمع وضائق عليهم كيف يصنعون؟ قال: يرتفعون إلى المأزمين" (٤٩).

ثالثاً — حدود مني :

— بكسر الميم والتنوين — ، سُميت بذلك لما يُمنى فيها من الدماء .
وقيل: إنّها سُميت لما يُمنى فيها من الدعاء .
وقيل: لما رُوي عن ابن عباس: "أنّ جبرئيل (عليه السلام) لما أراد أن يفارق آدم (عليه السلام) قال له: تَمَنَّ . قال: أَتَمَنَّى الجَنَّةَ، فُسُمِّيَتْ بذلك لأمنيته" (٥٠).

وقيل: "سُميت مني لأنّ جبرئيل أتى إبراهيم (عليه السلام) فقال له تَمَنَّ على ربّك ما شئت". فسُمِّيَتْ مني، واصطلح عليها الناس، وفي الحديث "أنّ إبراهيم تَمَنَّى هناك أن يجعل الله مكان ابنه كبشاً يأمره بذبحه فديةً له" (٥١). فأعطاه الله مَنَاه .
وقد اتّفقت الروايات على أنّ حدّ مني من جهة الطول من العقبة إلى وادي محسّر على صيغة اسم الفاعل، فقد ذكر صحيح معاوية لأبي بصير عن

الإمام الصادق (عليه السلام) أنه قال: "حدّ مني من العقبة إلى وادي محسّر" (٥٢). وجمرة العقبة هي حدّ مني من جهة مكّة، ووادي محسّر حدّها من جهة مزدلفة، وهذا الحدّ قد ذكره المؤرّخون والجغرافيون أيضاً . فقد قال الأزرقى في أخبار مكّة بسنده عن ابن جريح: "قال: قلت لعطاء بن أبي رباح، أين مني؟ قال: من العقبة إلى محسّر، قال عطاء: فلا أحبّ أن يتّزل أحد إلاّ فيما بين العقبة ومحسّر . . ." (٥٣).

أقول: هذا الذي تقدّم هو حدّ لجنّ من ناحية الطول، أمّا حدّها من ناحية العرض، فهو ما بين الجبلين الكبيرين بامتدادهما من العقبة حتّى وادي محسّر، وقد ذكر الفاسي في شفاء الغرام: "أنّ ما أقبل على مني من الجبال المحيطة بها من كِلا جانبيها فهو منها وما أدبر من الجبال فليس منها" (٥٤). وقد قال النووي في المجموع: "واعلم أنّ مني شعبٌ ممدودٌ بين جبلين أحدهما ثبير والآخر الصابح . قال الأصحاب: ما أقبل على مني من الجبال فهو منها وما أدبر فليس منها" (٥٥).

أقول: كأنّ مني لا تحتاج إلى أن تحدّد من ناحية العرض لوجود هذين الجبلين الكبيرين المفروض أنّهما حدّ للمنطقة، فكأنّ السؤال في الروايات عن حدّ خاص من ناحية مكّة ومزدلفة فذكرته الروايات.

العقبة هل هي من مني؟

الجواب: بقرينة اتّفاقهم على أنّ (محسّرًا) ليس من مني، وإنّما هو حدّها لها فكذلك العقبة، لافتراءها هي الأخرى بأداة التحديد وهي (من)، ولكن حكى عن بعض الفقهاء: أنّ العقبة من مني وليست حدّها لها .

وسُمّيت بالعقبة لأنّها مدخل مني من الغرب، وسُمّيت الجمرة هنا بجمرة العقبة.

مشكلة الذبح : وعلى ما تقدّم من حدود ميني، تواجهنا مشكلة حالية بناءً على ما اتفقت عليه الإمامية من وجوب الذبح في ميني، حيث إن المذبح الذي أوجدته الحكومة السعودية يكون خارج ميني حسب العلامات التي نصبت هناك، وتمنع الحكومة الذبح في غير هذه الأماكن التي أعدتها للذبح حتى في الأيام الأخرى بعد يوم النحر وأيام التشريق، فهل من مخرج لهذه المشكلة العويصة؟

وتشتدّ هذه المشكلة على الناس فيما إذا علمنا أنّ الذبح خارج ميني لا يجزي، إذ ليس المورد من موارد التقية، فإنّ مورد التقية فيما إذا كان المكلف غير معروف المذهب، فلا يعمل بما هو الحقّ عنده خوفاً من الظالم، والواقع القائم الآن بخلافه تماماً، لأنّ المكلف معروف المذهب، ومعلوم أنّه لا يعتقد صحّة الذبح خارج ميني، وأنّه يريد الذبح في ميني، إلّا أنّ المنع الحكومي الناشئ من أنّ من يخالف ويشقّ عصا طاعة وليّ الأمر لا يجوز إقراره على مخالفته من أيّ مذهب كان .

وعلى هذا يكون المورد إذا كان هناك إجبار على الذبح في المسلخ على المكلف، من باب ارتكاب أحفّ المخطوئين وأقلّ الضررين (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر)، {وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ}، فهو من باب قوله (عليه السلام): "لإن أفطر يوماً ثم أقضيه أحبّ إليّ من أن تضرب عنقي"، وأمّا إذا لم يكن إجبار على الذبح وذبح خارج ميني فهو لا يجزي أيضاً . وعلى هذا فيجب القضاء على المكلف لهذا النسك إذا تمكّن بعد ذلك في بقيّة أيام ذي الحجة، أو أن يخلف ثمنه عند عدل ليشتري له هدياً ويذبحه في شهر ذي الحجة .

فهل توجد طريقة للتخلّص من هذه الطريقة وتقول بالاكتفاء بالذبح في المذبح الحالي الذي هو خارج ميني؟

الجواب: توجد عندنا روايات معتبرة تقول: إذا ازدحمت ميني بالناس ارتفعت إلى وادي محسّر، فيكون وادي محسّر حكمه حكم ميني، وحينئذ يكون الذبيح في المذبح الحالي مجزياً، ففي معتبرة سماعة قال: "قلت للصادق (عليه السلام): إذا كثرت الناس ميني وضاعت عليهم كيف يصنعون؟ فقال: يرتفعون إلى وادي محسّر . . ." (٥٦).

فهل يمكن الاكتفاء بهذه الرواية للذبيح خارج الحدّ والوقوف كذلك؟!

إذا كان الجواب بالإيجاب فتنحل مشكلة مهمة .

والخلاصة لكلّ البحث : تمكن في أنّ نَمِرَةَ التي هي (بطن عُرْنَةَ) هل من عرفات أو لا؟ وكذا مسجد إبراهيم القديم الذي يكون في نَمِرَةَ؟ فإن قلنا: أنّها خارجة من عرفات كما هو ظاهر الروايات التي شرحت لنا حجّ النبي (صلّى الله عليه وآله وسلم)، وكذا بقية الروايات التي أخرجت نَمِرَةَ عن حدود عرفات، تواجهنا مشكلة أنّ الوقوف في عُرْنَةَ ليس من الزوال إلى الغروب .

وإن قلنا: أنّ نَمِرَةَ من عرفات كما هو رأي يقال تخلصنا من هذه المشكلة، ولكن تبقى مشكلة ثانية وهي مخالفة ظاهر الروايات بل صريح بعضها، وأقوال أهل الخبرة الذين حدّدوا عرفات بإخراج نَمِرَةَ من عرفات لأنّها بطن وادي عُرْنَةَ وهذا الوادي كلّهُ حدّ عرفات من جهة الغرب، وقد صرّحت الروايات بالارتفاع عنه .

أقول: ألا نختل وجود منطقة في داخل عرفات كانت تسمّى نَمِرَةَ قد صلّى النبي (صلّى الله عليه وآله وسلم) فيها ووضع رحله؟ وأمّا قرية نَمِرَةَ التي هي بطن عُرْنَةَ فهي خارجة عن حدّ عرفات، فإن ثبت ذلك انحلت مشكلة عدم وجوب الوقوف من أوّل الزوال إلى الغروب في عُرْنَةَ .

ويكون حكاية حجّ النبي (صلّى الله عليه وآله وسلم) مطابقة لوجوب

الوقوف في عرفة من أول الزوال إلى الغروب، وأما الموقف الذي يُذكر في الروايات فالمراد به الوقوف في سفح الجبل الذي يستحب فيه الدعاء والوقوف .

وإن لم يثبت ذلك، فلا بدّ من القول بعدم وجوب الوقوف من الزوال إلى الغروب بل الواجب هو الوقوف بعد الظهر بساعة إلى الغروب .

وأما بالنسبة للمزدلفة : فلا يوجد خلاف في حدودها، وقد وقع تعيين هذه الحدود طبقاً لما قرّره الشارع المقدّس بين المأزمين ووادي محسّر، وأما التحديد العرضي فهو الجبلان المطلّان عليها من الجبهة الشماليّة والجنوبيّة .

وأما مئى: فأيضاً لا يوجد خلاف في حدّها الذي هو من وادي محسّر إلى العقبة طولاً وما بين الجبلين المطلّين عليها عرضاً، وقد عرضنا مشكلة الذبح التي هي مشكلة معاصرة لوجود المذابح خارج مئى والحكومة السعوديّة تمنع من الذبح في مئى وأوجدنا حلاً قد يكون مقبولاً من الناحية الفنيّة .

وأخيراً نبتهل إلى الله سبحانه وتعالى أن يجعلنا من العاملين في سبيل إعلاء دينه، وأن لا يحرمنا من الحضور في هذه الأماكن المقدّسة، وأن يغفر لنا خطايانا وسيئاتنا ويوفّقنا لما يحبّ ويرضى إنّه سميعٌ مجيب، والحمد لله ربّ العالمين، وصلى الله على محمّد وآله وصحبه الميامين .

الهوامش :

- معالم مكة التاريخية والأثرية: ١٨٢، البلادي (عاتق بن غيث)، مكة المكرمة، دار مكة، ١٤٠٠هـ — ١٩٨٠م .
- الوسائل: ١٠، الباب ٩ من أبواب إحرام الحاج، الحديث ١، وذيل الحديث باب من أبواب إحرام الحاج، الحديث ١ .
- نفس المصدر، الباب ١٠، الحديث ٦ .
- نفس المصدر، الباب ١٠، الحديث ٤ .
- هامش كتاب الإرتسامات اللطاف، أرسلان (الأمير شكيب بن حمود ١٣٦٦هـ)، تعليق عبدالرزاق محمد سعيد حسن (الطائف: مكتبة المعارف): ٥٨ — ٦٥، عن هداية الناسكين، تحقيق الدكتور الفضلي: ١٧٥ .
- الوسائل ٨، الباب ٢ من أبواب أقسام الحج، الحديث ٣ .
- مجلة العرب السعودية، الجزء ٥، السنة السادسة، ١٣٩١هـ — ١٩٧٢م، تحت عنوان تحديد عرفات، عن هداية الناسكين: ١٧٣ .
- نفس المصدر: ٢٦٩ .
- جواهر الكلام، الجزء ١٩: ١٥ .
- الوسائل الجزء ١٠، الباب ١٠ من أبواب الإحرام بالحج والوقوف يعرفه، الحديث ٨ .
- جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام، للمحقق صاحب الجواهر ١٩: ٢٣ .
- مستدرک الوسائل، الباب ٧ من أبواب إحرام الحج، الحديث .
- نفس المصدر ١٩: ٢٠ .
- نفس المصدر ١٩: ٢٠ و ٢٣ — ٢٤ .
- نفس المصدر: ٢٦، ٢٧ .
- معجم معالم الحجاز ٩: ٩٢ .
- و (١٨) جاء ذلك في قرار اللجنة الحكومية السعودية المنشور في مجلة العرب السعودية، الجزء ٥، السنة السادسة، ١٣٩١هـ — ١٩٧٢م، من الصفحات ٣٧٥ — ٣٨٤، تحت عنوان: تحديد عرفات عن هداية الناسكين: ١٧٢. (١٩) هكذا جاء في قرار اللجنة الحكومية السعودية المنشور في مجلة العرب، عن هداية الناسكين .
- (٢٠) الحجاز بين اليمامة والحجاز، ابن خميس: ٢٩٠
- (٢١) معجم معالم الحجاز، البلادي، الجزء الثاني: ١٦٦ .
- (٢٢) هداية الناسكين، للدكتور الفضلي: ١٦٩ .

(٢٣) راجع مجلّة العرب السعديّة، الجزء ٥، السنة السادسة، ٣٧٥ — ٣٨٤ .

(٢٤) نفس المصدر .

(٢٥) أخبار مكّة، الأزرقى ١: ١٩١ .

(٢٦) راجع الحجاز بين اليمامة والحجاز، لابن خميس : ٢٨٤ .

(٢٧) جواهر الكلام ١٩: ١٨ .

(٢٨) كتاب الوافي للفيض الكاشاني ١٣: ١٠٢١ .

(٢٩) معجم معالم الحجاز ٩: ٦٩ .

(٣٠) انظر الحجاز، لابن خميس: ٢٨٧ .

(٣١) مجمع البحرين، للطريحي، مادّة أراك .

(٣٢) هداية الناسكين : ١٦٩ .

(٣٣) الوسائل ١٠، الباب ١٠ من أبواب إحرام الحجّ والوقوف بعرفة، الحديث ٥ .

(٣٤) نفس المصدر، الحديث ١ .

(٣٥) نفس المصدر، الحديث ١ .

(٣٦) شرح اللمعة الدمشقيّة ٢: ٢٧٦ .

(٣٧) الوسائل ١٠، الباب ٤ من أبواب الوقوف بالمشعر، الحديث ٥ .

(٣٨) نفس المصدر، الحديث ١ .

(٣٩) نفس المصدر، الحديث ٢ .

(٤٠) نفس المصدر، الحديث ٤ .

(٤١) نفس المصدر، الحديث ٥ .

(٤٢) نفس المصدر، الحديث ٣ .

(٤٣) معجم معالم الحجاز، البلادي ٨: ٤٢ .

(٤٤) الحجاز، لابن خميس : ٣٠١ .

(٤٥) جواهر الكلام ١٩: ١٢ .

(٤٦) الوسائل ١٠، الباب ٨ من أبواب الوقوف بالمشعر، الحديث ٧ .

(٤٧) نفس المصدر، الباب ١٥ من أبواب الوقوف بالمشعر، الحديث ٢ .

(٤٨) نفس المصدر، الباب ٨ من أبواب الوقوف بالمشعر، الحديث ٣ .

(٤٩) نفس المصدر، الباب ٩ من أبواب الوقوف بالمشعر، الحديث ١ .

(٥٠) جواهر الكلام ١٩: ١٠٠ .

(٥١) راجع مجمع البحرين، مادّة مئى .

(٥٢) الوسائل ١٠، الباب ٦ من أبواب إحرام الحجّ، الحديث ٣ .

(٥٣) مجلّة العرب، السنة الثامنة ١: ٧٨ — ٨٠، عن هداية الناسكين : ١٦٤ .

- (٥٤) نفس المصدر، عن هداية الناسكين : ١٦٣ .
- (٥٥) نفس المصدر، عن هداية الناسكين : ١٦٤ .
- (٥٦) الوسائل ١٠، الباب ١١ من أبواب إحرام الحجّ، الحديث ٤ .

يومُ الحجِّ الأكبر

تأليف: علي قاضي عسكر

يصادف "يوم عرفة" من أيام الحج في بعض السنين "يوم الجمعة".
وتعرف تلك السنة بين الحجاج — ولا سيما أهل السنة — بـ "الحج الأكبر"، وقد دعاني هذا الأمر، للبحث في الآيات والروايات وفي التاريخ — أيضاً — عن ماضيه وحقيقته، وما سأورده هو نتيجة دراسة، وإن كانت مختصرة، غير أنني أأمل أن تكتمل بما يُبديه الباحثون والعلماء من آراء حول ذلك .

يقول — الله تعالى — في القرآن الكريم :

{وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ} (١).

وقد اختلف أهل الحديث والتفسير القدماء والجدد حول يوم الحج الأكبر، أيَّ يوم هو؟ واعتقد بعضهم :

١— أن المراد من الحج الأكبر يومُ عرفة، فقد روي عن ابن عباس وطاوس وعمر وعثمان ومجاهد وعطاء، وسعيد بن المسيب وابن الزبير وأبي حنيفة والشافعي: أن يوم عرفة هو يوم الحج الأكبر(٢).

ويقول عطاء: "الحج الأكبر الذي فيه الوقوف بعرفة، والأصغر العمرة"(٣).

وروى اسماعيل القاضي ي حديث لمخرمة عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) انه قال: "يوم الحج الأكبر يوم عرفة" (٤).
وروى ابن أبي حاتم وابن مردويه عن مسور بن مخرمة أنه قال: خطب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عشية عرفة، فقال: أما بعد
فإن هذا يوم الحج الأكبر" (٥).

وروى ابن سعد وابن أبي شيبه، وابن جرير وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ عن عمر بن الخطاب انه قال: "الحج الأكبر يوم عرفة" (٦).
وأورد جرير رواية أخرى عن أبي الصهباء البكري: أن علي بن أبي طالب (عليه السلام) سئل عن الحج الأكبر فقال: يوم عرفة (٧).
وروى أبو الشيخ عن ابن عباس أيضاً قوله: إن يوم عرفة يوم الحج الأكبر، وهذا اليوم يوم المباهاة. واليوم الذي افتخر فيه الله بأهل
الأرض أمام ملائكة السماء وقال:

"جاءوني شعناً غيراً آمنوا بي ولم يروني وعزني لاغفرن لهم" (٨).

ويستدل بعض الذين يقبلون هذا القول بالحديث المعروف "الحج عرفة" ويقولون:
لما كان الوقوف في عرفة من أكبر أعمال الحج، ومن أدركه أدرك الحج، ومن لم يدركه فحجّه باطل، فقد سمي يوم عرفة يوم الحج
الأكبر (٩).

٢- وترى فئة أخرى، أن يوم الحج الأكبر أيام الحج كلها، وتعتقد بأنه كما يقال لـ "وقعة الجمل" و "حرب صفين" و "حرب بعث"
رغم أنها استمرت أياماً طويلة "يوم صفين" و "يوم الجمل" و "يوم بعث" ومرادهم من "يوم" مدة الحرب كلها، فالمراد هنا من "يوم الحج
الأكبر" أيام الحج كلها أيضاً (١٠).

ويقول الشيخ التهانوي: "الحج نوعان: الحج الأكبر وهو حج الإسلام، والحج الأصغر وهو العمرة" (١١).

٣— وترى فئة ثالثة: أن الحج الأكبر هو الوقوف في عرفات والأعمال، المتعلقة بمنى .

يقول عمر بن أذينة: كتبتُ عدّة مسائل للإمام الصادق (عليه السلام) . ووصلني جوابه بعد مدّة بخطه المبارك: " . . . وسألته عن قوله — تعالى — (الحجّ الأكبر)، ما يعني بالحجّ الأكبر؟ فقال: الحجّ الأكبر الوقوف بعرفة، ورمي الجمار، والحجّ الأصغر العمرة" (١٢).

فبناءً على هذه الرواية اعتبرت أعمال عرفة ومنى، الحجّ الأكبر. وروى زرارة عن الامام الصادق (عليه السلام) الجواب نفسه أيضاً حيث قال: "الحجّ الأكبر الوقوف بعرفة، ويجمّع، ورمي الجمار بمنى، والحجّ الأصغر العمرة" (١٣).

٤— ويرى سفيان الثوري وابن جرير . . . أن يوم الحج الأكبر كل أيام منى" (١٤).

٥— ويروي مجاهد رواية أخرى فيقول: "الحجّ الأكبر القران، والأصغر الأفراد" (١٥). ويروي ابن أبي حاتم عن سعيد بن المسيب قوله: الحجّ الأكبر اليوم الثاني من يوم النحر. ألا ترى أن الإمام يخطب في ذلك اليوم (١٦)؟ ٧— ويقول ابن سيرين :

"يتعلّق يوم الحج الأكبر بالسنة التي أدى فيها الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) حجة الوداع . وحج معه عدد كبير من الناس" (١٧). ويمكن لهذا القول أن يعتبر تأييداً لأولئك الذين يعتبرون يوم الحج الأكبر يوم الأضحى؛ ذلك أن الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) خطب في هذه السنة بالناس في منى، وسألهم أيّ يوم يومكم؟ قالوا: يوم النحر، ثم قال: اليوم يوم الحج الأكبر. ويرى ابن عري أن هذا الحديث حسن وصحيح (١٨).

٨ — ويروي الطبراني عن سمرة بن جندب قوله: "يتعلّق يوم الحج الأكبر بالسنة التي أذى فيها المسلمون والمشركون الحج في ثلاثة أيام، لم يؤد مثل هذا الحجّ قبل ذلك ولن يؤدى بعده" (١٩).

ويروي فضيل بن عياض عن الإمام الصادق (عليه السلام) أيضاً قوله: ان سبب تسمية الحج الأكبر: أن المسلمين والمشركين أقاموا الحج في تلك السنة معاً. ولم يحج المشركون بعدها أبداً (٢٠).

ويروي ابن أبي شيبة الزايد عن ابن عون أيضاً: أن محمداً سئل عن الحج الأكبر فقال: اليوم الذي صادف فيه حج رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) مع حجّ أهل الملل (٢١).

ويرى كثير من المحدثين والمفسرين — بالاعتماد على روايات مختلفة — أن الحجّ الأكبر يوم الأضحى . فبالإضافة إلى أن رأي هذه الفئة أصح وأقوى . فإنه يتفق أيضاً مع الآية {فسبحوا في الأرض أربعة أشهر} ومع ما ورد في الروايات التاريخية أن "عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) قرأ آيات البراءة بعد ظهر عيد النحر".

يقول ابن أبي أوفى: "يوم العيد الأضحى يوم الحج الأكبر، ففي ذلك اليوم تسكب الدماء . وتحلق الرؤوس، وتزال الاوساخ والاقذار، ويحلّ الحرام" (٢٢).

وهذا ما يعتقد به مالك فيقول: لا نشك في أن الحج الأكبر يوم عيد الأضحى؛ وذلك لأن أكثر أعمال الحج تقام فيه . وفي ليلة العيد يقف الحجاج في منى، وفي الغد يقام الرمي والتضحية والحلق والطواف" (٢٣).

ويقول أبو بكر محمد بن عبد الله المعروف بابن عربي مؤيداً قول مالك: "وغاص مالك على الحقيقة" (٢٤).

ويقول معاوية بن عمّار: سألت الإمام الصادق (عليه السلام) عن يوم

الحج الأكبر فقال: "هو يوم النحر، والأصغر هو العمرة" (٢٥).

ويروي صفوان بن يحيى في موضع آخر عن ذريح المخاري عن الإمام الصادق (عليه السلام) أنه قال: "الحج الأكبر يوم النحر" (٢٦). ويقول فضيل بن عباس: سألت الإمام الصادق (عليه السلام) عن الحج الأكبر وقلت: يرى ابن عباس أنه يوم عرفة، فقال: يقول علي (عليه السلام) الحج الأكبر يوم عيد الأضحى، ثم يستدلّ بقول الله عزّ وجلّ: {فسيحوا في الأرض أربعة أشهر} (٢٧) ويقول: الأشهر الأربعة عبارة عن عشرين يوماً من شهر ذي الحجة، ومحرم وصفر وربيع الأول، وعشرة أيام من ربيع الآخر. وإذا كان الحج الأكبر يوم عرفة سيكون أربعة أشهر ويوماً" (٢٨).

ولا بدّ من القول هنا: أن عليّ بن أبي طالب (عليه السلام)، قرأ آيات البراءة على الناس بمنى كما أمره رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) في اليوم العاشر من ذي الحجة (يوم عيد الأضحى)، وقد أمهل المشركين كما أمر الله أربعة أشهر ليُسَلِّمُوا أو يبقوا على الكفر والشرك فيقتلوا. وكانت الأشهر الأربعة عبارة عن عشرين يوماً من شهر ذي الحجة، ومحرم وصفر وربيع الأول، وعشرة أيام من ربيع الثاني، حيث تنتهي مهلة الأشهر الأربعة في اليوم الحادي عشر من ربيع الآخر. وبناء على هذا فإن الذين يعتبرون يوم الحج الأكبر يوم عرفة يضيفون يوماً إلى الأشهر الأربعة. وهذا لا يتفق مع الآية.

ويقول صاحب المنار أيضاً، تبدأ الأشهر الأربعة هذه من اليوم العاشر (عيد الأضحى) من ذي الحجة في السنة التاسعة (حيث قرئت آيات البراءة) وتنتهي في العاشر من ربيع الآخر من السنة العاشرة" (٢٩).

وورد في رواية أخرى: بينما كان علي بن أبي طالب (عليه السلام) على فرس أبيض في يوم عيد الأضحى، وكان يسير نحو الجبانة، جاء رجل وأمسك بلجام فرسه وسأله: أيّ يوم يوم الحج الأكبر؟ فأجاب "هذا اليوم" ثم قال:

"اترك اللحام" (٣٠).

وتروي مصادر أهل السنة، عن عدد من الأفراد، كابن عباس وسعيد بن جبير وابن زيد، والنخعي والشعبي والسدي وابن أبي أوفى وابن مردويه . . أن "المراد من يوم الحج الأكبر يوم عيد الأضحى" (٣١).

وذكرت رواية عن مجاهد أيضاً أن الحج الأكبر يوم النحر (٣٢).

وذكر الترمذي وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن علي بن أبي طالب (عليه السلام) أنه قال: سئل الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) "أي يوم يوم الحج الأكبر؟ قال: يوم عيد الأضحى" (٣٣).

وروى أبو الشيخ عن علي أيضاً قوله: "يوم الحج الأكبر يوم عيد الأضحى" (٣٤).

وروى ابن مردويه عن ابن أبي أوفى، وهذا عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قوله: "يوم الأضحى هذا يوم الحج الأكبر" (٣٥).

وروى ابن داود وابن ماجه . . . وابو نعيم في حليته عن ابن عمر أنه قال: وقف رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يوم عيد الأضحى في حجة الوداع بين الجمار وسأل الناس: ما هذا اليوم؟ قالوا: يوم عيد الأضحى، فقال الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم): "هذا يوم الحج الأكبر" (٣٦).

وروى البخاري وغيره، هذا عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) أيضاً (٣٧).

ويقول أبو هريرة . بعثني أبو بكر في هذه السنة مع المؤذنين الذين أرسلهم يوم عيد الأضحى . ثم بعث الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) علياً لقراءة آيات البراءة (٣٨).

وتبين هذه الرواية أيضاً أن اليوم الذي قرأ فيه علي (عليه السلام) آيات البراءة على الناس هو يوم عيد الأضحى، ولذلك فإن يوم الحج الأكبر هو ذلك

اليوم .

ويقول ابن أبي شيبة: يرى أبو حنيفة أيضاً أن الحج الأكبر يوم عيد الأضحى، وروى عطاء وابن جرير هذا عن ابن عباس أيضاً (٣٩).
ويروي ابن جرير عن المغيرة بن شعبة: أنه خطب في يوم عيد الأضحى وقال: هذا يوم الحج الأكبر (٤٠).
ويروي ابن أبي شيبة عن أبي إسحق أنه قال: سألت عبدالله بن شداد عن الحج الأكبر فأجاب: يوم عيد الأضحى، والحج الأصغر العمرة (٤١).

ويقول سيّد قطب في تفسيره، في ظلال القرآن :
" ويوم الحج الأكبر اختلفت الروايات في تحديده: أهو يوم عرفة أم يوم النحر؟ والأصح أنه يوم النحر " (٤٢).
ويقول ابن كثير في تفسيره: " يوم الحج الأكبر يوم عيد الأضحى وهو أفضل أيام إقامة مناسك الحج وأكبرها " (٤٣). وهذه عقيدة صاحب تفسير المراغي أيضاً حيث يقول:

"يوم الحج الأكبر يوم النحر الذي فيه تنهى فرائض الحج، ويجتمع الحجاج لإتمام مناسكهم وستهم في منى" (٤٤).
ويقول محمد رشيد رضا في المنار ضمن تفضيله: إنّ الحج الأكبر يوم عيد الأضحى [اليوم الذي] تنهى فيه مناسك الحج (٤٥).
وبعد أن يورد الطبري أقوالاً مختلفة عن الحج الأكبر يقول: أفضلها وأصحها عندنا قول من يقول: يوم الحج الأكبر يوم النحر. وذلك لوجود أخبار كثيرة عن جماعة من صحابة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) تقول: إن علي بن أبي طالب قرأ آيات البراءة في يوم عيد الأضحى . وبالإضافة إليها، ذكرنا روايات عديدة عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) تقول: "يوم

عيد الأضحى يوم الحج الأكبر" . ثم يقول تأييداً لهذا الحديث: تكتسب "يوم" معناها في مثل هذه العبارات مما تضاف إليه، فحينما يقول الناس "يوم عرفة" فالمراد هو اليوم الذي يقفون في عرفات . و"يوم الأضحى" اليوم الذي يضحون فيه، و"يوم الفطر" اليوم الذي يفطر الناس فيه . وكذلك "يوم الحج" اليوم الذي يؤدّون فيه الحج . فالناس ينهون مناسكهم في يوم عيد الأضحى وينتهي حجهم وأخيراً فإن انتهاء الحج يوم عيد الأضحى(٤٦).

وورد في رواية أخرى: أن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) كان على ناقه حمراء فقال: " أتدرون أيّ يوم يومكم؟ قالوا: يوم النحر، فقال: صدقتم، يوم الحج الأكبر" (٤٧).

ويقول أبو بشر: اختصم علي بن عبد الله بن العباس مع رجل من آل شيبه في يوم الحج الأكبر، وكان علي بن عبد الله يقول: إنه يوم عيد الأضحى، والثاني يقول: يوم عرفة، فأرسل شخصاً إلى سعيد بن جبير وسأله فقال: يوم عيد الأضحى(٤٨) . . .

وكانت قراءة علي (عليه السلام) لآيات البراءة في منى، وفي يوم عيد الأضحى .

ويروي أبو الصباح الكناني عن الإمام الصادق (عليه السلام) أنه قال: "بعد أن رجع الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) من غزوة تبوك، عزم على الحج فقال: إنه يحضر البيت مشركون، يطوفون عراة، فلا أحب أن أحج حتى لا يكون ذلك(٤٩)." .

فتزلت إثر ذلك سورة براءة، وبعث الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) علياً (عليه السلام) إلى مكة لقراءة الآيات على المشركين، ويشرح الإمام الصادق (عليه السلام) هذه المهمة بقوله: لم يمنع الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) المشركين من إقامة مناسك الحج بعد فتح مكة، وكان المشركون قد

امتهنوا هذه المناسك بأعمالهم السيئة وعقائدهم الخرافية، ولم يكن لهذا أن يدوم . ومن أعمالهم هذه: كانت إحدى سنن عرب الجاهلية في الحج، اعتقادهم بأن من يدخل مكة يطوف بثيابه، لا يجوز له أن يحتفظ بثوبه هذا بعد الطواف، ويستفيد منه؛ ولذلك كان يتصدق به بعد طوافه . أو أنه كان يكتري ثوباً يطوف به ثم يعيده إلى صاحبه، والذين كانوا لا يملكون القدرة على الاكتراء ولا يملكون سوى ثوب واحد، كانوا يخلعونه ويطوفون عراة . وقد حدث يوماً أن جاءت امرأة جميلة للطواف في المسجد الحرام وكانت لا تملك غير ثوب ولم يُكرها أحد ثوباً، فطافت عارية والناس يتفرجون عليها. وبعد انتهاء الطواف، طلب بعضهم الزواج منها، فردّتهم المرأة وقالت: إن لي زوجاً . ولم يكن لهذا العمل السيء والمهين أن يدوم ويسيء إلى حرمة بيت الله .

وحينما نزلت الآيات الأول من سورة براءة على رسول الله، أعطاها إلى أبي بكر، وأمره أن يذهب إلى مكة، وأن يقرأها على الناس بمنى يوم عيد الأضحى، وما إن ذهب أبو بكر حتى نزل جبرائيل على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وقال: "لا يؤدي عنك إلاّ رجل منك".

وقد أورد ابن عربي هذه الجملة ضمن رواية بقوله: "إنه لا يؤدي عني إلاّ رجل من أهل بيتي . . ." (٥٠).

ثم إن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) اختار علي بن أبي طالب (عليه السلام) لهذه المهمة وبعث به خلف أبي بكر، فلحقه علي (عليه السلام) في منطقة الروحاء (٥١) (أو كما ورد في بعض الروايات، في ذي الحليفة) (٥٢)، وأخذ منه الآيات، فعاد أبو بكر إلى الرسول خائفاً وجللاً وقال: هل نزل في شيء؟ فقال الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم): لا إن الله أمرني أنه "لا يؤدي عنك إلاّ أنت أو رجل منك" .

وقال علي (عليه السلام): لقد أمرني الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) أن أبلغ الناس أمر الله بالألّا يطوف بالبيت عريان، ولا يحج بعد العام مشرك" (٥٣).

ويتبين من هذه الرواية: أن إبلاغ أمير المؤمنين (عليه السلام) آيات البراءة كان في يوم عيد الأضحى وفي منى، وعلى هذا فإن يوم الحج الأكبر يوم عيد الأضحى أيضاً .

ويروي حرير عن الإمام الصادق (عليه السلام) قوله: قرأ علي بن أبي طالب (عليه السلام) آيات البراءة بعد ظهر يوم عيد الأضحى(٥٤).

ويروي الترمذي عن زيد بن يُثيعة أنه سئل: ما كانت مهمتك في الحج؟ فقال: أربعة أمور:

١— لا يطوف بالبيت عريان .

٢— من كان بينه وبين النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عهد فعهدده إلى مدته .

٣— من لا عهد له يمهل أربعة أشهر.

٤— لا يدخل الجنة إلاّ نفس مؤمنة(٥٥).

ويروي ابن عربي نقلاً عن أبي سعيد محمد بن طاهر، وهذا عن الاستاذ أبي مظفر طاهر بن محمود شاهبور، أنه قال: إنّ أحد الأدلة على إرسال علي (عليه السلام) في هذه المهمة، أن العرب في الماضي كانوا لا يتقضون عهداً إلاّ بحضور صاحب العهد أو رجل من أهل بيته، وأراد الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ألاّ يدع للمشركين حجة، وأن يسكت ألسنتهم في المستقبل . فأرسل ابن عمه الذي كان من بني هاشم، ومن بيت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى مكة لنقض هذا العهد(٥٦).

ويؤيد محمد رشيد رضا في تفسير المنار وجود مثل هذه العادة، دون أن

يشير إلى مصدره، ويبدو أنه نقل عن هذه الرواية أيضاً (٥٧).

ويظهر أن مثل هذا الموضوع ليس صحيحاً لأن:

أولاً: كان الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) مطلعاً على عادات عرب الجاهلية، ولو وجدت هذه العادة لما كان من الواجب أن يختار أبا بكر أولاً. ثم يعهد بالمهمة إلى علي (عليه السلام) بعد نزول الآيات .

ثانياً: يعتقد المفسرون أن اختيار علي (عليه السلام) لهذه المهمة كان من قبل الله، أبلغها جبرائيل الأمين رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، وأن هذا الاختيار الإلهي أهم من العمل بعادة جاهلية .

ثالثاً: تم إبلاغ آيات البراءة والرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) في أوج قدرته، وبعد فتح مكة، وفي الوقت الذي كان المشركون فيه أذلاء، ولم تكن لديهم القدرة على الاعتراض في المستقبل على الرسول لنقضه العهد .

وعلى كل حال لا شك في أن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) أمر أبا بكر في البدء بإبلاغ الآيات، ثم ألغى هذه المهمة وعهد بها لعلي بن أبي طالب (عليه السلام) .

وقد سعى بعضهم ومنه محمد رشيد رضا إلى إثبات أن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) أرسل أبا بكر إلى مكة أميراً للحج، وأمر عليّ

بن أبي طالب (عليه السلام) بإبلاغ الحجاج سورة براءة (٥٨).

ولكن لا يمكن لهذا الكلام أن يكون صحيحاً لأن إبلاغ : "لا يحجّ بعد العام مشرك" يتعلق بأمر الحاج مباشرة . كما ورد في الروايات، ثانياً أنه "لا يبلغها إلا أنا أو رجل من أهل بيتي" (٥٩).

والأعجب من هذا أن السادة حينما يواجهون هذه المشكلة، ولا يجدون جواباً لها يلجأون إلى القول أن أبا بكر أمر علياً (عليه السلام) بقراءة آيات سورة براءة (٦٠).

بينما كان إبلاغ هذه الرسالة بأمر من الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ولم تكن هناك حاجة لأمر جديد من أبي بكر. ويسعى أبو هريرة لأثبات إبلاغ آيات البراءة في يوم عيد الأضحى لنفسه ويذكر أن علياً (عليه السلام) كان أحد الذين عُهد إليهم بهذه المهمة أيضاً؟! (٦١).

وقد طغى التعصب على عيني وأذن السيد محمد رشيد رضا بشكل جعله يهاجم الشيعة بعد روايته لهذه المسائل بشدة متسائلاً لماذا يستفيدون من هذه القضية لاثبات فضيلة لعلي بن أبي طالب (عليه السلام)؟! فكيف لانسان يعتبر نفسه مفسراً للقرآن بمنح نفسه مثل هذه الجرأة فيعمل على تحريف الحقائق، ويتمادى ليطلب الموت والقتل للشيعة أو كما يقول الروافض (٦٢)؟ .

ومما يؤسف له أنهم تبادوا لإنكار هذه الفضيلة، إلى حدّ دعا محمد رشيد رضا — بعد أن تبين كون أبي بكر أميراً للحاج — لنقل رواية عن أهل السنة هي: إن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) اختار أبا بكر أميراً للحاج، وعلياً (عليه السلام) مبلغاً آيات البراءة، لأن أبا بكر مظهر الرحمة والجمال الإلهي، وعلياً (عليه السلام) أسد الله ومظهر الجلال الإلهي (فصفة القهر من صفات الجلال)، ولما كان الأمر هنا نقض عهد المشركين [أي أن الشدة ضرورية]، فقد عهد بهذه المسؤولية لعلي بن أبي طالب (عليه السلام) (٦٣)!

ويسعى ابن كثير بتعصبه للغرض من فضيلة علي بن أبي طالب الكبيرة هذه، باضعاف حديث رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) الذي قال فيه "لا يبلغها إلا أنا أو رجل من أهل بيتي" فيصفه بالضعف وأنه غير صحيح (٦٤)!

ويقول فضلاً عن ذلك: وما جاء في الرواية، أن أبا بكر عاد إلى المدينة، بعد أن أبلغ رسالة الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم)، فليس معناه أن أبا بكر رجع من فوره، بل بعد قضائه للمناسك التي أمره بها رسول الله

(صَلَّى الله عليه وآله وسلم) (٦٥).

والأسوأ من هذا، أن ابن كثير يذكر نقلاً عن مسند أحمد بن حنبل: أنه حين أمر الرسول (صَلَّى الله عليه وآله وسلم) علياً (عليه السلام) بإبلاغ آيات البراءة، أجاب علي (عليه السلام): يا رسول الله لست باللسن ولا بالخطيب!! فقال له الرسول (صَلَّى الله عليه وآله وسلم): لا بد لي أن أذهب بما أنا أو تذهب بما أنت، فقال علي (عليه السلام) فإن كان ولا بد فساداً ذهب أنا! ودعا الرسول (صَلَّى الله عليه وآله وسلم) لعلي، ووضع يده على فيه (٦٦).

فواعجبا ما يفعل التعصب وكيف ينحرف بالإنسان ويضله! فعلي (عليه السلام) ذلك الخطيب المصقع، والمحدث المبدع، الذي تنجس الأنفاس في الصدور ببذاء كلامه، ويكلّ لسان العاشقين أمثال (همام) بسماع بيانه، يوصف بضعف اللسان، وعدم القدرة على الكلام .
وبديهي أن مثل هذه التعصبات لا يمكن أن تلقي ستاراً على الحقائق وأن تخفي الوقائع . فالحق ما قيل: من أن احتيار علي (عليه السلام) لهذا الأمر المهم، ينم عن فضيلة كبرى، لا يقدر على القيام بها سوى من كان من أهل بيت رسول الله (صَلَّى الله عليه وآله وسلم) ونفسه وروحه .

يقول المرحوم العلامة الطباطبائي — رضوان الله تعالى عليه — في ذيل الآية الشريفة: {وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ . . .} :
"المراد بيوم الحج الأكبر منها أنه يوم النحر من السنة التاسعة للهجرة لأنه كان يوماً اجتمع فيه المسلمون والمشركون، ولم يحج بعد ذلك العام مشرك . ثم يضيف: وهو المؤيد بالأحاديث المروية عن أئمة أهل البيت (عليهم السلام)، والأنسب بأذان البراءة، والاعتبار يساعد عليه؛ لأنه أكبر يوم اجتمع فيه المسلمون والمشركون من أهل الحج عامة. بمعنى، وقد ورد من طرق أهل السنة

روايات في هذا المعنى، غير أن مدلول جلّها أن الحج الأكبر اسم يوم النحر، اليوم العاشر من كل سنة وليس العام التاسع للهجرة فقط . ويتكرر على هذا كل سنة، ولم يثبت عن طريق النقل أن اسم اليوم العاشر هو يوم الحج الأكبر" (٦٧).

ويتابع كلامه في ذيل تلك الآية الكريمة فيقول:

"وكيف كان فالاعتبار لا يساعد على هذا القول؛ لأن وجود يوم بين أيام الحج يجتمع فيه عامة أهل الحج، يتمكن فيه من أذان براءة كل التمكن كيوم النحر يصرف قوله: "يوم الحج الأكبر" إلى نفسه، ويمنع شموله لسائر أيام الحج التي لا يجتمع فيها الناس ذلك الاجتماع" (٦٨). وورد في "معجم دهنخدا" نقلاً عن مهذب الأسماء أن الحج الأكبر هو عيد الأضحى وعيد النحر(٦٩). ويستنتج مما مرّ أن :

١— المراد من يوم الحج الأكبر: يوم عيد الأضحى .

٢— استعملت عبارة "يوم الحج الأكبر" لأول مرة ليوم عيد الأضحى في السنة التاسعة للهجرة . وكررت هذه العبارة بعد سنة في حجة الوداع ؛ لذلك يمكن القول: يوم الأضحى من كل سنة هو يوم الحج الأكبر.

٣— حينما يرد "الحج الأكبر" بدون كلمة "يوم" فالمراد الحج مقابل العمرة .

ويقول الطبري، بعد نقله للآراء المختلفة عن سبب تسمية هذا اليوم بالحج الأكبر: إن أصبح هذه الأقوال عندي قول من يقول:

الحج الأكبر. بمعنى الحج، والحج الأصغر. بمعنى العمرة، لأن أعمال الحج أكثر من أعمال العمرة(٧٠).

٤— وكما ورد في بعض المصادر، فإن يوم عرفة صادف في السنة التي حج

فيها رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يوم الجمعة، وكذلك قول صاحب كتاب الفقه الإسلامي وأدلته "قد ثبت في الصحيحين أن يوم عرفة الذي وقف فيه النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كان يوم الجمعة" (٧١).
ولكن ليس من دليل في الروايات والمصادر التاريخية يثبت أن مصادفة عرفة في ذلك الزمن ليوم الجمعة، ما يدل على أن حج تلك السنة هو الحج الأكبر، ويبدو أن اعتقاد العوام بذلك أصبح مع مرور الزمن حقيقة ثابتة .
ويقول صاحب تفسير المنار: كان يوم عرفة في حجة الوداع يوم الجمعة، وكلما صادف الوقوف في عرفات يوم الجمعة سمي العوام تلك السنة الحج الأكبر (٧٢).
وورد في "معجم دهخدا" أيضاً: يبدو أن العوام يقولون للعام الذي يصادف فيه عيد الأضحى يوم الجمعة، الحج الأكبر، ويظنون أن ثواب هذا الحج أكثر (٧٣).

الهوامش :

التوبة: ٣.

القرطي ٨: ٦٩.

نفس المصدر ٨: ٧٠.

نفس المصدر.

تفسير الفخر الرازي ١٥: ٢٢١.

الدر المثور ٣: ٢١٣.

نفس المصدر.

نفس المصدر.

تفسير الفخر الرازي ١٥: ٢٢١.

مجمع البيان ٥: ٥.

كشاف اصطلاحات الفنون ١: ٢٨٣، وكذا في جامع الرموز.

- الوسائل ١١، الحديث ١٤١٠٨، ط: آل البيت .
- نفس المصدر ١٤، الحديث ١٩٢٣٨ .
- مجمع البيان ٥ : ٥؛ تفسير القرطبي، ص ٧٠ .
- تفسير القرطبي ٨ : ٧٠ .
- الدر المنثور ٣ : ٢١٢ .
- القرطبي ٨ : ٧٠ .
- أحكام القرآن، ابن عربي ٢ : ٤٥٣ .
- الدر المنثور ٣ : ٢١١ .
- الوافي ١٤ : ١٤٣١٨ .
- الدر المنثور ٣ : ٢١١ .
- تفسير القرطبي ٨ : ٦٩ .
- نفس المصدر: ٨٠؛ أحكام القرآن، ابن عربي ٢ : ٤٥٢؛ نور الثقلين ٢ : ١٨٥ .
- أحكام القرآن ٢ : ٤٥٣ .
- الوسائل ١٤ : ١٩٢٣١/٢٦٩؛ الوافي ١٤ : الحديث ١٤٣١٥ .
- الوافي ١٤ : الحديث ١٤٣١٦ .
- التوبة: ٢ .
- الوافي ١٤ : الحديث ١٤٣١٧؛ نور الثقلين ٢ : ١٨٥ .
- تفسير المنار ١٠ : ١٥٢ .
- تفسير روح البيان ٣ : ٣٨٥ .
- تفسير الفخر الرازي ١٥ : ٢٢١ .
- مجمع البيان ٥ : ٥ .
- الدر المنثور ٣ : ٢١١ .
- نفس المصدر .
- نفس المصدر .
- نفس المصدر .
- أحكام القرآن، ابن عربي ٢ : ٤٤٩ .
- نفس المصدر: ٤٥٠ .
- تفسير الفخر الرازي ١٥ : ٢٢١ .
- الدر المنثور ٣ : ٢١١ .
- نفس المصدر: ٢١٢ .
- في ظلال القرآن ٤ : ١٣٦ .

- تفسير ابن كثير ٢: ٥٢١.
- تفسير المراغي ١٠: ٥٥.
- تفسير المنار ١٠: ١٥٣.
- تفسير الطبري ٦: ٧٥.
- نفس المصدر: ٥٣.
- نفس المصدر: ٧١.
- تفسير القمي ١: ٢٨١.
- أحكام القرآن ٢: ٤٥٣.
- الروحاء: موضع بين مكة ومدينة، يبعد عن المدينة حوالي ٣٠ ميلاً.
- نور الثقلين ٢: ١٧٨.
- نفس المصدر: ١٨١؛ تفسير الصافي ٢: ٣١٩.
- نور الثقلين ٢: ١٧٩.
- تفسير القرطبي ٨: ٦٨؛ أحكام القرآن، ابن عربي ٢: ٤٥٤.
- القرطبي ٨: ٦٨.
- تفسير المنار ١٠: ١٥٨.
- نفس المصدر: ١٥٥.
- نفس المصدر: ١٥٧.
- نفس المصدر: ١٥٦.
- تفسير ابن كثير ٢: ٥٢١.
- نفس المصدر: ١٦٤.
- تفسير المنار ١٠: ١٦٢.
- تفسير ابن كثير ٢: ٥٢٢.
- نفس المصدر.
- نفس المصدر، مسند أحمد ١: ١٥٠.
- تفسير الميزان ٩: ١٤٩.
- نفس المصدر.
- معجم دهخدا . الحج الأكبر: ٣١٥.
- تفسير الطبري ١٠: ١٦٠.
- الفقه الاسلامي ٣: ٢١٢.
- تفسير المنار ٩: ٢٢٩.
- معجم دهخدا الحج الأكبر: ٣١٥.

أسماء مكة

دراسة تاريخية تحليلية في المعاني والدلالات

تأليف : محمد مهدي الفقيهي

موقع مكة وحدودها:

تقع مدينة مكة المكرمة في غرب الجزيرة العربية من ناحية قمامة (١)، على بُعد حوالي (٨٠) كيلومتراً شرقي البحر الاحمر؛ يحدها من الشمال المدينة المنورة ومن الشرق نجد، ومن الغرب جدة، فيما تنتهي من الجنوب بعسير واليمن (٢).

تقع مكة على خط طول (٤٠) درجة و (٩) دقيقة، وعلى خط عرض (٣١) درجة و (٢٨) دقيقة من خط الاستواء؛ فيما يتراوح عدد سكانها الدائمين ما يقارب (٣٥٠٠٠٠) نسمة، وترتفع عن مستوى سطح البحر (٣٣٠) متراً (٣).

يمتد الجزء الأساس من المدينة حول أطراف المسجد الحرام، في منخفض تحيطه الجبال من كل ناحية (٤). وإلى هذا السبب بالذات يعزو ياقوت الحموي أحد أسباب تسميتها بهذا الاسم، حيث يقول ما نصه: "سميت مكة لأنها بين جبلين مرتفعين عليها، وهي في هَبْطَة بمزلة المكوك" (٥).

أما الآن فقد اتسعت المدينة وامتد عمراتها الى اطراف الجبال التي تحيط بها، بل سطحت بعض الجبال لتحل محلها الأبنية والعمارات المرتفعة .

وحول أسماء الجبال التي تحيط بمكة فقد ذكر ابراهيم رفعت باشا، أنه

يحيطها من جهة الشمال والشمال الشرقي جبال: الفلج، قعيقعان، الهندي، لعلع، وكداء . أما من جهة الجنوب والجنوب الشرقي فتحدها مرتفعات وجبال: أبو حديدة، كُدَي، كُدَي، أبو قبيس، وخدمة(٦).

إنَّ رحلة ناصر خسرو تُعدّ من بعد رحلة ابن فضلان (كتبها في القرن الثالث الهجري) من أقدم كُتب الرحلات في التأريخ الاسلامي، وقد توفّر ناصر خسرو على وصف مكة بالشكل التالي: "تقع مكة بين جبال عالية بحيث لا تستطيع رؤية المدينة حتي تصل اليها. أما جبل أبو قبيس فهو يشرف على مكة ويظلّلها كالقبة، لانه اقرب أعلى الجبال اليها. والمدينة تمتد في المساحة الواسعة بين الجبال، حيث يقع المسجد الحرام، تحيط به الاسواق والازقة والمخلات(٧).

أما بطليموس فقد ذكر مكة باسم "ماكورابا" (٨) ومعناها: المكان المقدّس .
ومما يجدر الاشارة اليه بعد هذه المقدمات العامة، ان لمكة اسماء كثيرة حتى بلغ من كثرتها ان صنّف الفيروزآبادي رسالة مفصّلة في ذكرها(٩).

وفي اشارة الى كثرة اسماء مكة ذكر النووي: اننا لا نعرف من بين المدن ما يضاهي مكة والمدينة بكثرة الاسماء(١٠).

اما كاتب هذه السطور فقد انتهى به التقصي — في حدود هذا البحث — للوقوف على سبعين اسماً من أسماء مكة، هي كما يلي:

- ١— مكة، ٢— بكة، ٣— أم القرى، ٤— القرية، ٥— معاد، ٦— الوادي، ٧— البلدة، ٨ —
- البلد، ٩— البلد الأمين، ١٠— حرم امن، ١١— حرم، ١٢— المسجد الحرام، ١٣— البيت العتيق،
- ١٤— مخرج صدق، ١٥— بساسة، ١٦— أم رحم، ١٧— صلاح، ١٨— الرأس، ١٩— العرش،
- ٢٠— النساسة، ٢١— الباسة، ٢٢— الناسة، ٢٣— العروض، ٢٤— كوثة،

٢٥— ام كوثر، ٢٦— فاران، ٢٧— المقدسة، ٢٨— قرية النمل، ٢٩— الحاطمة، ٣٠— الحرم،
٣١— برة، ٣٢— طيبة، ٣٣— القادس، ٣٤— المذهب، ٣٥— العرش، ٣٦— القادسة، ٣٧—
المعطشة، ٣٨— الرتاج، ٣٩— ام زحم، ٤٠— ام صح، ٤١— ام روح، ٤٢— بساق، ٤٣—
المكتان، ٤٤— النابية، ٤٥— ام الرحمة، ٤٦— الناشئة، ٤٧— سيوحة، ٤٨— السلام، ٤٩— نادرة،
٥٠— العرويش، ٥١— الحرمة، ٥٢— الحرمة، ٥٣— قرية الخمس، ٥٤— أم راحم، ٥٥— نقرة
الغراب، ٥٦— البنية، ٥٧— ناشة، ٥٨— تاج، ٥٩— كبيرة، ٦٠— ام رحمن، ٦١— السيل،
٦٢— البلد الحرام، ٦٣— حرم الله تعالى، ٦٤— بلد الله تعالى، ٦٥— العذراء، ٦٦— النجر، ٦٧—
العرش، ٦٨— العرش، ٦٩— العروش، ٧٠— القادسية .

إنَّ بين هذه الأسماء السبعين تميّز الأربعة عشر الأولى انّها ذُكرت في القرآن الكريم كما سنشير
لذلك بأسهاب .

سبب تسمية مكّة بهذه الأسماء :

يقوم منهج البحث على ذكر كل اسم، أو مجموعة من الأسماء وبيان وجه التسمية ومعناها وما
تدل عليه، وفق ما يلي:
١ : مكّة:

قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ
وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا} (١١).

قبل ان ندخل في التفاصيل نجد من الضروري ان نوّفر الإجابة على السؤال التالي : ما هي البقعة
التي يُطلق عليها مكّة على وجه التحديد؟

ثمّة في الإجابة خمسة آراء نستعرضها كما يلي:

١— أن مكّة تُطلق على تمام منطقة الحرم، وجميع الحرم داخل في العنوان،

كما هو عليه نظر الروايات الوصلة عن أهل البيت (ع)، وكما ذهب لذلك غيرهم أيضاً (١٢).
٢— أن مكة تشمل حدود المدينة وحسب، فما يدخل في نطاق المدينة يُطلق عليه مكة كما تطرح ذلك روايات من الفريقين (١٣).

٣— مكة هي أطراف الكعبة وحسب (١٤).

٤— مكة هي اسم يشمل المسجد والمطاف (١٥).

٥— مكة هي منطقة في ذي طوى (١٦).

هذه خمس نظريات قيلت فيما يُطلق عليه عنوان مكة، أما سبب التسمية فقد ذكروا لها وجودها عشرة، هي:

أ: أنَّ الباعث على التسمية هو وقوعها في هضبة يابسة، بحيث حُرمت المدينة من مهرِ جارٍ، ومن عيون ماء تتدفق المياه منها بصورة طبيعية، بحيث اضطروا الى استخراج المياه من آبار عميقة تغوص في باطن الارض . وبتعبير ياقوت الحموي: "لأنهم كانوا يمتلكون الماء اي يستخرجونه" (١٧). في حين ذكر البعض أنَّ السبب في هذا الوجه هو أنَّ أرضها كانت تمتك الماء ؛ أو بتعبير الفخر الرازي: "كأن أرضها امتكت ماءها" (١٨).

ب: إنّما سميت مكة "لأنها تُملك الجبارين ؛ أي تذهب نخوتهم" (١٩). وتستأصل عرورهم .

ج: سُميت كذلك "لأنها تمكّ الذنوب ؛ أي تستخرجها وتذهب بها كلّها" (٢٠).

د: "لأنها تجذب الناس اليها؛ من قول العرب: امتك الفصيل ضرع أمه" (٢١) والباعث لهذا الجذب دعوة الخليل ابراهيم (عليه السلام) وتوفّرها على وجود ضروب من الآيات الإلهية البينات فيها.

هـ : قيل لها مكة "لازدحام الناس بها؛ من قولهم: امتك الفصيل ضرع

أُمّه اذا مصّه مصّاً شديداً" (٢٢). لقد ذكر هذا الوجه ياقوت الحموي، بيد أنه ظهر وكأنه لا يرضاه، إذ لم يصح عنده التشبيه بين ازدحام الناس بمكة وبين مصّ الفصيل لضرع أمّه مصّاً شديداً. أما ابن منظور في لسان العرب، ومؤلف تاج العروس، فقد ذكرا هذا الوجه (٢٣).

و: "سميت مكة لأنها تمكّ مَنْ ظلم ؛ أي تنقصه" (٢٤) وفي ذلك ينشد بعضهم:

يا مكة الفاجر مكي مكا ولا تمكي مدحجاً وعكاً

وربما استطعنا ان نتمثل قصة أصحاب الفيل مصداقاً لهذه التسمية، حيث يقول تعالى: {ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل * ألم يجعل كيدهم في تضليل * وأرسل عليهم طيراً أبابيل * ترميهم بحجارة من سجيل * فجعلهم كعصفٍ مأكول} .

ز: وسميت مكة: "لأنها تمكّ الفاجر عنها؛ أي تخرجه" (٢٥).

وقد عدّ البعض كابن ظهيرة الوجهين الآخرين وجهاً واحداً .

ح: قيل لها ذلك: "لأنها تجهد اهلها، مأخوذ من قولهم : تمككت العظم اذا اخرجت مخه"

(٢٦).

الّا أنّ الراغب الاصفهاني علّل التشبيه بقوله: "سميت بذلك لأنها وسط الارض، كالمخ الذي هو

أصل ما في العظم" (٢٧).

ط: ان سبب التسمية يرتبط بموقعها، وفي ذلك قالوا: "لأنها بين جبلين مرتفعين عليها، وهي في

هبطّة بمزلة المكوك" (٢٨).

ي: يرتبط سبب التسمية بما كان يقوم به عرب الجاهلية أثناء الحج، وفي ذلك قالوا: "لإنّ العرب

في الجاهلية كانت تقول لا يتمّ حَجُّنا حتى نأتي مكان الكعبة، فنمكّ فيه؛ أي نصفر صفير المكاء"

(٢٩).

لقد وردَ شبيه هذا القول في جواب للإمام علي بن موسى الرضا (عليه السلام) كتبه الى محمد بن سنان: "إنَّ ابا الحسن الرضا — عليه السلام — كتبَ فيما كتب من جواب مسائله: "سميت مكة لأنَّ الناس كانوا يمكنون فيها، وكانَ يقال لمن قصدَها قد مكا، وذلك قول الله — عزَّ وجلَّ — : {وما كان صلاحهم عندَ البيت إلاَّ مكاءً وتصدية} (٣٠).

ك: أنَّ مكة مشتقة من "مكَّ" بمعنى "بسط" ؛ ووجه التسمية أنَّ الله — سبحانه — بسط الأرض وبدأ بها من مكة (٣١). وثمة ما يؤيد ذلك من روايات "دحو الأرض" (٣٢).
٢: بكة :

يقول تعالى: {إنَّ أولَ بيت وضع للناس للذي ببكةً مباركاً وهدى للعالمين} (٣٣).
قبل ان ندخل في بحث علل التسمية يحسن بنا أولاً أن نحدّد المقصود من بكة وعلى أيّ الاماكن يطلق هذا الاسم .

في معرض الإجابة أمامنا ثمانية آراء، الأولان منها ينقلان عن أهل البيت (عليهم السلام)، والآراء هي:

- ١— أنَّ بكة هي موضع الحجر حيث يبك الناس بعضهم بعضاً؛ أي يتزاحمون (٣٤).
- ٢— أنَّ بكة هي موضع الكعبة (٣٥)، كما نقل ذلك الأزرقى عن ابن انيسة (٣٦).
- ٣— ذكر عكرمة أنَّ المقصود من بكة هي الكعبة نفسها .
- ٤— بكة هي اسم لتمام الحرم .
- ٥— المقصود منها خصوص الحجر.

٦— أن المراد منها خصوص المطاف (٣٧).

٧— أن بكة هي نفسها مكة، وقد قلبت: "الميم" الى "باء" من قول العرب: "ما هذا بضربة لازب ولازم" (٣٨) وهو شائع في لغة العرب (٣٩).

٨ — ذهب البعض للقول بأن بكة هي المساحة الفاصلة بين جبلي مكة وفيها ساحة المسجد الحرام (٤٠).

٩— ورد في روايات الفريقين أن بكة اسم من أسماء مكة (٤١).
بواعث التسمية وعللها:

في بواعث التسمية ثمة أسباب وعلل نعرض لها كما يلي:

أ: يعود السبب الى انّ الناس يتباكون فيها من كلّ وجه؛ أي يبك بعضهم البعض ويدفع أحدهم الآخر بيده . وهذا الرأي ينقل مع فوارق بسيطة عن الامام محمد الباقر (٤٢)، والإمام جعفر الصادق (٤٣)، والإمام موسى الكاظم (٤٤) (عليهم السلام) .

وهناك آخرون قالوا به، منهم ياقوت الحموي والماوردي (٤٥).

ب: أن الباعث على التسمية هو ازدحام الناس فيها رجالاً ونساءً ، وقد نقل ذلك عن الامام محمد الباقر (٤٦)، والامام جعفر الصادق (٤٧) (عليهما السلام) . ومن ذكر هذا الوجه ايضاً هو الازرقعي عن ابن عباس (٤٨).

ج: ذكر البعض انّ الباعث على التسمية هو بكاء الناس في مكة وحول الكعبة (٤٩).

د: وقيل: إنّها سميت كذلك "لأنها تبك أعناق الجابرة" (٥٠) وتذهب بغرورهم . وقد ذكر الكليني في الكافي رواية يقترب مضمونها من هذا المعنى اذ روي ان مكة: "كانت تسمّى بكة لأنّها تبك اعناق الباغيين اذا بغوا فيها" (٥١).

هـ : ان جهة التسمية تعود لاصطدام أرجل الناس بعضها ببعض من

شدة الازدحام(٥٢).

والذي يمكن ان يقال في هذه الآراء، اننا اذا استثنينا الوجهين (ج) و (د) فان بقية الوجوه ترد الى معنى واحد هو: الازدحام .

٣: أم القرى:

ذكر هذا الاسم لمكة في موردين من كتاب الله، حيث يقول تعالى :

{وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها} (٥٣).

{وكذلك أوحينا إليك قرءاناً عربياً لتنذر أم القرى ومن حولها . . . } (٥٤).

وثمة في روايات اهل البيت (عليهم السلام) ما يفيد ايضاً ان أم القرى أحد أسماء مكة .

وفي سبب التسمية وبواعثها وجوه، وهي:

أ: لكونها اصل جميع المدن من بعدها، فهي أول مدينة على سطح الأرض . وفي هذا رايات تؤكد أن مكة اول بقعة من اليابسة، ثم امتدت الأرض منها. ذكر هذا الوجه الفخر الرازي في التفسير الكبير(٥٦)، وقد نسب مؤلف "جامع اللطيف" إلى ابن عباس وابن قتيبة .

ب: سميت كذلك "لانها اعظم القرى شأناً" . وقد نسب قطب الدين هروالي هذا الرأي لابن

عباس(٥٧).

ح: سميت ام القرى لأنها قبلة جميع الناس يؤمونها.

د: انها اصبحت ام القرى لوجود بيت الله الحرام فيها، فالبقعة التي تشرّفت بوجود البيت، يكون

لها السبق على ما سواها من المدن وتقدم عليها، فهي لها أم (٥٨).

هـ : وذهب البعض للقول؛ إنما سميت كذلك لانها أمان لأهل باقي

المدن، والمآكث فيها يأمل رحمة الله — سبحانه — (٥٩).

٤ : القرية:

يقول تعالى: {وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ} (٦٠).
والقرية في لغة العرب، هي المكان الذي يجتمع فيه عدد كثير من الناس؛ لذا يقال للماء حين يجتمع بكثرة في مكانٍ واحد: "قَرْيَ الماء".

وقد ذكر الفاكهي نقلاً عن مجاهد أن المراد من القرية في الآية الكريمة، هي مكة (٦١).

٥ : معاد:

يقول تعالى: {إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ} (٦٢).
فقد ذهب أكثر المفسرين إلى أن {معاد} هي مكة المكرمة، كما ذكر ذلك الفخر الرازي في تفسير الآية، حيث رجح هذا الرأي على جملة من الاحتمالات التي ذكرها، واعتبره أقرب للواقع (٦٣).

أما الطوسي في التبيان فقد نسب القول بهذا الرأي لابن عباس (٦٤).

والعلامة الطباطبائي، ذكره في الميزان إلى جوار احتمالات أخرى (٦٥).

أما البخاري والنسائي فقد رفعاه بأكثر من طريق لابن عباس (٦٦).

٦ : الوادي:

يقول تعالى: حكاية على لسان خليله إبراهيم: {رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ} (٦٧).

ليس ثمة شك في أن المراد من الوادي في الآية الكريمة، هو المنخفض من

الأرض الذي يعبر عنه بمكة . وقد أجمع المفسرون على هذا الرأي .

أما موضع الشك فهو: هل سبق وأن سميت مكة في عصر من عصورها التاريخية باسم "الوادي"؟
بين يدينا رسالة من الخليفة الثاني الى عامله على مكة يذكر هذه المدينة باسم "الوادي" (٦٨).

٧ — ٨ — ٩ : البلدة، البلد، البلد الأمين :

البلد في اللغة هو المصدر والأول والأرفع، وبذلك فالبلد هو: صدر القرى (٦٩).

عبر القرآن عن مكة باسم {البلد} في أربع آيات (٧٠) وعبر عنها بـ {البلدة} في آية واحدة (٧١)، وبـ {البلد الأمين} في آية واحدة أيضاً (٧٢).

وقد اقترن ذلك في المواطن كافة باسم الإشارة، فقال: {هذا البلد}، {هذه البلدة}، {وهذا البلد الأمين} وبهذه القرينة شخّص تعالى مراده وأوضح مقصوده .

ومع اجتماع الكلمة على أنّ المقصود بجميع هذه المواطن المشار إليها، هو مدينة مكة المكرمة، إلّا أنّ الله شاء أن لا يذكر اسمها مباشرة لبواعث تبحث في مضائتها، وإنما اكتفى بالإشارة إليها دون ذكر الاسم الصريح .

على أنّ كلمة {البلد} لوحدها لم تكن ولن تكون دلالة على اسم مكة، وإنما غاية ما نستطيع أن نركن إليه أنّ الله — سبحانه — أشار إلى مكة بهذه الصيغة التعبيرية بقرينة {الأمين} في قوله: {وهذا البلد الأمين} .

نعم، يمكن أن يُحمل {البلد} على اسم مكة دائماً، إذا ثبت لنا أنها كانت تسمى في مقطع من المقاطع التاريخية باسم {البلد} و {البلدة} كما ذكر

ذلك القاضي الفاسي نقلاً عن أبي يحيى (٧٣).

١٠ — ١١ : حرم آمن، حرم :

يقول تعالى: {أولم تمكن لهم حرماً آمناً يُجبي إليه ثمرات كل شيء} (٧٤).

ويول تعالى: {أولم يروا أننا جعلنا حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم} (٧٥).

ليس ثمة خلاف في أن مكة هي جزء من المنطقة الحرام، وقد ذهب البعض للقول أن "حرم آمن" هو اسم مكة، وذلك من باب إطلاق الكل والمراد منه الجزء . ثم إنَّ اشتهاار مكة بكونها {حرماً آمناً} يمكن أن يُعدّ دليلاً على تسمية مكة بـ "حرم آمن" .

أما {حرماً} فلا يمكن أن يفيد لوحده دون قرينة أن المراد به اسم مكة . ومع ذلك فقد ذهب بعض اللغويين إلى أن "حرم" هو اسم لمكة (٧٦).

١٢ — ١٣ : المسجد الحرام، البيت العتيق:

من بين الآيات التي تنطوي على ذكر {المسجد الحرام} ثمة ما لا يختص بالمسجد الحرام نفسه، وإنما يمكن أن يكون مصداقاً للحرم أو لمكة . وبذلك اضحى تفسير {المسجد الحرام} بالحرم ومكة باعثاً للبعض على أن يعدّ المسجد الحرام اسماً في عداد أسماء مكة؛ والآيات التي تعنيها:

أ: {لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلّقين رؤوسكم ومقصرين . . .} (٧٧).

ب: {ولا تُقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه} (٧٨).

ج: {ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام} (٧٩).

فقد ذهب أبرز المفسرين الى أنَّ المقصود بالمسجد الحرام في الآيات الثلاث لا يختص بـ {المسجد الحرام} وإنما جاءت صيغة التعبير من باب إطلاق الجزء وإرادة الكل — خصوصاً وأنَّ ما يؤيد ذلك أنَّ المسجد الحرام هو أسمى جزء واشرفه — إذ المراد هو مكة أو الحرم .

ولكن مع ذلك لا يعدو أنَّ يكون هذا الاستعمال — على فرض التسليم بالتقرير الأنف — استعمالاً مجازياً؛ ومعنى ذلك أنَّ ذكر {المسجد الحرام} لا يكشف دائماً على أنَّ المراد منه اسم مكة بالخصوص، لأنَّ لازم ذلك أن نقول: إنَّ تمام أسماء الكعبة في القرآن هي اسم لمكة أيضاً وهذا ما لم يذهب إليه أحد .

على نفس هذا المنوال يتبنُّ رأينا بخصوص من يذهب الى أنَّ {البيت العتيق} هو اسم من أسماء مكة (٨٠)، لذلك لا نجد ضرورة للتكرار والإعادة .

١٤: مخرج صدق:

يقول تعالى: {وقل ربَّ أدخلي مُدخلَ صدقٍ وأخرجني مُخرجَ صدقٍ واجعل لي من لدنكَ سلطاناً نصيراً} (٨١).

ذهب بعض المفسرين الى أنَّ المراد من {مخرج صدق} في الآية هو مكة، كما نقل ذلك الطبرسي في مجمع البيان، عن ابن عباس والحسن، وقتادة وسعيد بن جبير. وثمة عدد آخر من المفسرين ذكروا هذا الاحتمال الى جوار احتمالات أخرى (٨٢).

١٥ — ٢١: بساسة، الباسة :

لقد ذكر ابرز من تعرّض الى أسماء مكة أنَّ "البساسة" هي أحد أسمائها.

فقد ذكر الازرقى (٨٣)، وابن ظهيرة (٨٤)، وقطب الدين النهروالي (٨٥)، والفيروزآبادي وغيرهم، أنَّ احد اسماء مكة هي: البساسة أو الباسة .

ومن ذكر ذلك ايضاً الصدوق (رحمه الله) نقلاً عن الامام جعفر الصادق (٨٦) (عليه السلام) .
وفي وجه التسمية لم يعدّ الجميع القول أنّ الباعث اليها أنها تخرج الظالم أو تستأصله: {وَمَنْ يُرد
فيه بإلحاد بظلم نُذقه من عذاب أليم} (٨٧).

ومثل هذا التعليل روي ايضاً عن الامام الصادق (٨٨) (عليه السلام) .

١٦ — ٤٥ — ٥٤: أمّ رحم، أمّ رحمة، أمّ راحم:

من أسمائها الاخرى: " أمّ رحم" . وقد جاء ما يشير الى ذلك في روايات الشيعة وأهل السنة ؛
وفيما صنّف حول مكة من كتب (٨٩).

وفي وجه التسمية قد جاء عن ابي عبدالله الصادق (عليه السلام) قوله: "كانوا اذا لرموها رحموا"
(٩٠) وفي روايةٍ اخرى: "كانوا اذا ظلموا رحموا" (٩١).

١٧ — ٤٨: صلاح، السلام:

عدّ بعض اللغويين هذه النعوت الثلاثة اسماً لمكة (٩٢) . "صلاح" في قولهم من "صلح" بمعنى الامن
والهدوء والسلامة، وسميت مكة صلاحاً لأنها مركز الأمن، حيث يقول تعالى: {أو لم نكن لهم حرماً
آمناً . . .} .

وفي بعض أشعار العرب ثمة ما يشير لاسمها هذا، كما جاء في قول أبي سفيان بن حرب بن امية في
خطابه لابن الحضرمي:

أيا مطر هلم الى صلاح فيكفيك الندامى من قريش
وتزل بلدة عزّت قديماً وتأمين أن يزورك رب جيش (٩٣)
وللوجوده ذاتها اطلق عليها "سلام" فعّد من اسمائها (٩٤).

١٨ : الرأس:

من الأسماء الاخرى التي أشار اليها اللغويون "الرأس" حيث ذهب لذلك صاحب تاج العروس، وقال: انّ الرأس اسم لمكة ولاحد جبالها أيضاً (٩٥).

ومن ذهب لذلك أيضاً السهيلي في زوض الأنف، ومؤلف "تهذيب الاسماء" . والباعث للتسمية بنظر هؤلاء أن مكة أشرف بقاع الارض واكثرها رفعة وسمواً، ولذا فهي بمثابة "الرأس" كما سميت فعلاً (٩٦).

١٩ — ٥٠ — ٦٧ — ٦٨ — ٦٩ : العرش، العرويش، العُرْش، العُرْش، العروش:

جميع هذه النعوت ذكرت اسماءً لمكة في كتب اللغة، الى جوار بقية الاسماء . بيد انّ البعض اختار القول؛ ان عُرْشُ وعروش هما من منازل مكة، حيث استدلوا: "ان ابن عمر كان يقطع التلبية اذا نظر الى عروش مكة" (٩٧).

وما اغفله أهل اللغة هو عدم ذكرهم لوجه التسمية لهذه الأسماء . ولكنّا اذا أخذنا بنظر الاعتبار معنى "العرش" واضفنا الكلمة الى "البلاد" فسنصل الى تعليل معقول، حيث تكون مكة "عرش البلاد" لانها أشرفها واسماها.

٢٠ — ٢٢ : النساسة، الناسة:

دأبت أكثر كتب اللغة على ذكر الاسمين لمكة في عدّة أسمائها الاخرى، ومردّ التسمية ينتهي الى وجهين :

الأول: وهو ما ذكره الماوردي من انها "تنسّ من أَلحدَ فيها؛ أي تطرده وتنفيه". وقد نسب صاحب شفاء الغرام القول في هذه التسمية الى صاحب

المطالع والنووي وابن جماعة .

الثاني : عزرا البعض باعث التسمية إلى قلة مائها(٩٨).

٢٣ : العروض:

ذكر بعض علماء اللغة، أنَّ العروض اسم مشترك بين مكة والمدينة، فقالوا: "العروض مكة والمدينة وما حولها" .

لقد نسب ابن ظهيرة الى مجد الدين الشيرازي قوله بهذا الاسم، دون ان يذكر علة التسمية . والعروض في اللغة جاء على معانٍ هي:

العروض؛ ميزان الشعر، لأنه به يظهر المتزن من المختل .

العروض؛ الجزء الاخير من الشطر الاول من البيت .

العروض؛ الطريق في عرض الجبل الكثير من الشيء (الناحية)(٩٩).

٢٤ — ٢٥ : كُوثا، أم كُوثا:

ذكر الازرق في اخبار مكة ان "كُوثا" احد أسمائها، وقد نسب القول في ذلك الى مجاهد والسهيلي . الا ان مؤلف شفاء الغرام نقل عن مؤلف المطالع، انها اسم محلة من محلاتها تقع فيها منازل بني عبدالدار.

اما الفاكهي نفسه فقد ذكر ان "كُوثا" منطقة تقع في قيقعان ؛ فيما ذهب البعض إلى أنها اسم جبل يقع في منى .

اما " أم كُوثا" فقد عدّه ابن ظهيرة في عداد اسماء مكة، ناسباً القول به الى المرجاني(١٠٠).

٢٦ : فاران:

ذكر ياقوت الحموي "فاران" من بين أسماء مكة، وقد ذكره أيضاً ابن

ظهيرة الذي أخذه على الارجح من الحموي . والاثنان لم يذكر ا علة التسمية . الا ان مؤلف "تاج العروس" ذكر انه جبل في الحجاز يُبعث منه نبي، آخر الزمان كما جاء في التوراة . وربما استطعنا ان نتلمس من خلال هذا السياق الباعث لهذه التسمية، اذ طالما كانت التوراة قد ذكرت ان فاران الحجاز هي مبعث خاتم النبيين (صلى الله عليه وآله وسلم)، فانه حين بُعث من مكة اطلقوا عليها اسم "فاران" (١٠١).

٢٧ — ٣٣ — ٣٦ — ٧٠ : المقدسة، القادس، القادسة، القادسية :

لقد ذكرت كتب اللغة أن الاسماء الاربعة آنفة الذكر هي من أسماء مكة . وهذه الاسماء تشير على الارجح الى معنى واحد . والباعث للتسمية، هو قولهم: "القادس من التقديس، لأنها تقديس من الذنوب؛ أي تطهر" (١٠٢).

٢٨ — ٥٥ : قرية النمل، نقرة الغراب:

ذكر البعض هذين الاسمين لمكة . اما الفاكهي فقد ذكر انهما علامتان تدلان على مكان بئر زمزم، وقد استهدى بهما عبدالمطلب في معرفة مكان زمزم فاقبل على تجديدها. ثمة من ذهب الى أن الاسمين هما من أسماء زمزم المجازية . وفي كل الاحوال، فإن الذين قالوا بانهما من اسماء مكة، اهتموا علة التسمية ولم يذكروها؛ وربما استطعنا ان نعزو سبب التسمية إلى ازدحام مكة (١٠٣).

٢٩ : الحاطمة :

ذكر الازرقى "الحاطمة" في عداد اسماء مكة، والباعث للتسمية، يعود

"لحطمها الملحدین" .

وقد ذكر الفاكهي وابن ظهيرة هذا الاسم ووجه التسمية (١٠٤) .

٣٢ : طيبة:

ذكره الفاكهي وابن ظهيرة وعَدَّاهُ من أسماء مكة . ووجه التسمية والباعث اليها يعود الى حسن مكة ونقائها.

وفي هذا السياق ذهبت بعض كُتب اللغة للقول: انَّ طيبة (بفتح الطاء) اسم للمدينة، وطيبة (بكسر الطاء) اسم لزمزم (١٠٥) .

٣٤ : المذهب:

ذكره الفاكهي في "شفاء الغرام" دون ان يتوفّر على ذكر الباعث اليه . اما صاحب تاج العروس فقد قال: انَّ "المذهب" هو اسم للكعبة المشرفة (١٠٦) .

٣٧ : المعطشة :

ذكره ابن ظهيرة نقلاً عن العلامة ابن خليل، وقد ذكر ابن ظهيرة انَّ ابن خليل اكتفى بذكر الاسم في عداد اسماء مكة دون أن يعرض لكيفية التسمية وبواعثها.

والمعطش في اللغة، يقال للمكان الذي يعطش فيه الانسان ؛ وربما كان هذا باعثاً على تسمية مكة به (١٠٧) .

٣٨ : الرتاج:

ذكره ابن ظهيرة والفاكهي دون ان يتوفّرا على بيان وجه التسمية ومناسبتها (١٠٨) .

٣٩: أم زحم:

نقله صاحب "شفاء الغرام" عن كتاب "الأنساب" للرشاطي، والباعث للتسمية هو ازدحام الناس في مكة (١٠٩).

٤٠: أم صح:

نقله ابن ظهيرة عن ابن الاثير في "المرصع" من دون أن يذكر علة التسمية (١١٠).

٤١: أم روح:

ذكره ابن الاثير في "المرصع" وردّه الى كثرة الرحمة ووفرقتها في مكة (١١١).

٤٢: بساق:

ذكر ابن رشيق في "العمدة" وياقوت الحموي في "معجم البلدان" أن "بساق" أحد أسماء مكة، وقد ذكرها شعراً لأمية بن حرثان يؤيد دعواهما، حيث قال:

ساستعدي على الغاروق ربا له عمد الحجيج الى بساق

بيد أن البعض قال: أن "بساق" اسم جبل في عرفات (١١٢).

٤٣: المكتان:

نقل الفاكهي عن استاذة مجد الدين الشيرازي أن "المكتان" من أسماء مكة . وقد احتمل ان يكون الباعث للاسم شعر ورقة بن نوفل الاسدي، الذي

يقول فيه :

ببطن مكتبين على رجائي حديثك أن أرى منه خروجاً

ومن جهته نقل ابن ظهيرة عن السهيلي، أنَّ الباعث للتسمية هو توزع مكة إلى منطقتين ، عليا وسفلى فبعض محلاتها تقع في القسم المرتفع وبعضها في القسم المنخفض . لذلك جاء في اشعار العرب ذكر مكة العليا ومكة السفلى؛ فيقال للقسمين: المكتان(١١٣).

٤٤ : النابية:

ذكره الفاكهي وابن ظهيرة ونسباه الى تفسير ابن كثير، بيد انا لم نعثر عليه حين مُراجعة التفسير؛ والله اعلم(١١٤)!

٤٦ — ٥٧ : الناشئة، ناشة:

ذكر هذين الاسمين الفاكهي وابن ظهيرة عن مجد الدين الشيرازي، وذكرنا أنَّه كتب عن الباعث لهذه التسمية في شرحه للبخاري، الاَّ اننا ام نعثر على الشرح للوقوف على العلة(١١٥).

٤٧ : سبوحة:

ذهب مصنّف "تاج العروس" الى أنَّ هذا الاسم لمكة أو لوادٍ في عرفات . أما الفاكهي فقد نقله عن استاذة الشيرازي(١١٦).

٤٩ : نادرة:

نقل ايضاً عن مجد الدين الشيرازي دون ان تذكر علة التسمية؛ التي ربما كانت من قولهم "نادرة البلاد" اذ لا مثيل لمكة ولا نظير لها بين المدن الاخرى .

٥١ — ٥٢: الحُرمة، الحُرمة:

نقل هذان الاسمان عن مجد الدين الشيرازي أيضاً دون ان تذكر علّة التسمية .

٥٣: قرية الحُمس:

قرية الحُمس ؛ تعني: قرية قريش . وسبب تسمية مكة بذلك يعود الى سكن قريش في هذه المدينة المقدّسة . وربما كان مبعث اختيار قريش من بين سكنة مكة الآخرين كالجراهمة والعمالقة، يعود لوجود شخصيات منيفة فيها كرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلّم) والامام علي (عليه السلام) . أما أهل اللغة فقد أوردوا لـ "حُمس" معنى الأرض المحكمة والناس الشجعان المتمسكين بدينهم(١١٧).

٥٦: البنية:

ذكره ياقوت الحموي وعدّه في أسماء مكة دون أن يذكر السبب؛ في حين ذهب بعض اللغويين الى أنّ "البنية" اسم للكعبة(١١٨).

٦٢ — ٦٣ — ٦٤: البلد الحرام، حرم الله، بلد الله :

يقال لمكة "بلد الله " كونه (سبحانه) اختارها محلاً لبيته . ويقال لها "حرم الله " و"البلد الحرام" لأنّ الله (سبحانه) أوجب حرمتها، وجعلها في أمن وأهلها في امان .

٣١ — ٥٨ — ٥٩ — ٦١ — ٦٥ — ٦٦ : برّة، تاج، كبيرة، السيل، العذراء، النجر:
ذكرت هذه الاسماء في عداد اسماء مكة، دون أن يذكر شيءٌ . عن بواعث التسمية (١١٩).

الهوامش :

- (١) المسالك والممالك ١٦ : ١٧ .
- (٢) تأريخ مكة، احمد السباعي .
- (٣) موسوعة العتبات المقدسة، قسم مكة: ١٤ لغت نامه دهخدا: مكة .
- (٤) معجم البلدان ٥ : ١٨٢ .
- (٥) نفس المصدر .
- (٦) شفاء الغرام، مرآة الحرمين الشريفين ١ : ١٨٧ .
- (٧) سفر نامه ناصر خسرو ٩٧ — ٩٨ .
- (٨) موسوعة العتبات العاليات / نقلاً عن: دائرة المعارف الاسلامية .
- (٩) لم يفلح كاتب هذه السطور في العثور على هذه الرسالة ورؤيتها، وانما اعتمدنا في ذكرها على ما قاله قطب الدين النهرواني ؛ راجع : الاعلام باعلام بيت الله الحرام : ١٧ و ١٨ طبعة ليدن .
- (١٠) جامع اللطيف، معجم البلدان .
- (١١) الفتح : ٢٤ .
- (١٢) تفسير العياشي ١ : ١٨٧، اخبار مكة ١ : ٢٨١، تهذيب الاسماء ٢ : ١٥٦ — ١٥٧ ق ٢ .
- (١٣) علل الشرائع ٢ : ٣٩٧، اخبار مكة ١ : ٢٨٠ .
- (١٤) معجم البلدان ٥ : ١٨٢، الجامع اللطيف : ١٥٦ .
- (١٥) التفسير الكبير، الفخر الرازي ٨ : ١٥٧ .
- (١٦) معجم ما استعجم ١ : ٢٦٩، اخبار مكة ١ : ٢٨٢ .
- (١٧) معجم البلدان ٥ : ١٨٢ .
- (١٨) التفسير الكبير ٨ : ١٥٧، مكة، محمد هادي الاميني : ١٩ .
- (١٩) معجم البلدان ٥ : ١٨١ .
- (٢٠) الجامع اللطيف ١٥٧، معجم ما استعجم ١ : ٢٦٩ .
- (٢١) شفاء الغرام : ٧٧ .
- (٢٢) معجم البلدان ٥ : ١٨١ .
- (٢٣) تاج العروس ٧ : ١٧٩، لسان العرب ١ : ٤٩١ .
- (٢٤) موسوعة العتبات العاليات، قسم مكة ٩ : معجم البلدان ٥ : ١٨٢ .
- (٢٥) الجامع اللطيف : ١٥٧ .

(٢٦) الاحكام السلطانية، المورد: ١٥٧.

(٢٧) مفردات الراغب: ٤٩١.

- (٢٨) معجم البلدان ٥ : ١٨٢ .
- (٢٩) معجم البلدان ٥ : ١٨٢ .
- (٣٠) علل الشرائع ٢ : ٣٩٧ الأنفال : ٣٥ .
- (٣١) البحار ٩٩ : ٨٥ .
- (٣٢) تفسير العياشي ١ : ١٨٧ .
- (٣٣) آل عمران : ٩٦ .
- (٣٤) العياشي ١ : ١٨٧ .
- (٣٥) الميزان ٣ : ٣٨٦ .
- (٣٦) اخبار مكة ١ : ٢٨١ .
- (٣٧) الميزان ٣ : ٣٨٦ ، الاحكام السلطانية ، الماوردي : ١٥٧ — ١٥٨ .
- (٣٨) الرمنشيري ، الكشف ١ : ٣٨٦ ، معجم ما استعجم ١ : ٢٦٩ .
- (٣٩) دراسات في فقه اللغة : ٢١٤ .
- (٤٠) اخبار مكة ١ : ٢٨١ .
- (٤١) الخصال ١ : ٢٧٨ ، الفقيه ٢ : ١٦٦ ، اخبار مكة ١ : ٢٨١ .
- (٤٢) تفسير الفخر الرازي ٨ : ١٥٦ .
- (٤٣) علل الشرائع ٢ : ٣٩٧ .
- (٤٤) تفسير العياشي ١ : ١٨٧ .
- (٤٥) معجم البلدان ٥ : ١٨١ ، الاحكام السلطانية ، الماوردي : ١٥٧ .
- (٤٦) علل الشرائع ٢ : ٣٩٧ .
- (٤٧) فروع الكافي ٤ : ٥٢٦ .
- (٤٨) اخبار مكة ١ : ٢٨٠ ، معجم ما استعجم ١ : ٢٦٩ .
- (٤٩) مجمع البحرين ٥ : ٢٥٩ .
- (٥٠) النهاية في غريب الحديث ١ : ١٥٠ ، تفسير الفخر الرازي ٨ : ١٥٧ ، الاعلام باعلام بيت الله الحرام : ١٧ ، تفسير ابن كثير : ٣٨٣ .
- (٥١) فروع الكافي ٤ : ٢١١ .
- (٥٢) معجم البلدان ٥ : ١٨٢ ، فروع الكافي ٤ : ٢٨١ .
- (٥٣) الانعام : ٩٢ .
- (٥٤) الشورى : ٧ .

(٥٥) الفقيه ٢ : ١٦٦ ، الخصال ١ : ٢٨٧ .

(٥٦) الفخر الرازي ٨ : ١٥٧ .

(٥٧) الاعلام باعلام بيت الله الحرام : ١٧ .

- (٥٨) الجامع اللطيف: ١٥٧.
- (٥٩) لسان العرب ١٢: ١٣، معجم البلدان ١: ٢٥٤.
- (٦٠) النخل: ١١٢.
- (٦١) شفاء الغرام ١: ٧٨.
- (٦٢) القصص: ٨٥.
- (٦٣) تفسير الفخر الرازي: ٢١ — ٢٥.
- (٦٤) التبيان ٨: ١٨٣.
- (٦٥) الميزان ١٦: ٨٨.
- (٦٦) تفسير ابن كثير ٣: ٣٤٥.
- (٦٧) ابراهيم: ٣٧.
- (٦٨) شفاء الغرام ١: ٨٤.
- (٦٩) نفس المصدر: ٧٨.
- (٧٠) ابراهيم: ٣٥، البقرة: ١٢٦، البلد: ١ — ٢.
- (٧١) النمل: ٩١.
- (٧٢) التين: ٣.
- (٧٣) شفاء الغرام ١: ٧٩.
- (٧٤) القصص: ٥٧.
- (٧٥) العنكبوت: ٦٧.
- (٧٦) تاج العروس ٨: ٢٣٩.
- (٧٧) الفتح: ٢٧.
- (٧٨) البقرة: ١٩١.
- (٧٩) البقرة: ١٩٦.
- (٨٠) اخبار مكة وآثارها ١: ٢٨٢، معجم البلدان ٥: ١٨٢، شفاء الغرام: ٨٢.
- (٨١) الاسراء: ٨٠.
- (٨٢) تفسير البضاوي ١: ٥٨٠، مجمع البيان ٦: ٦٧١، الكشف ٢: ٦٨٨.
- (٨٣) اخبار مكة وآثارها ١: ٢٨٢.
- (٨٤) الجامع اللطيف: ١٦١.
- (٨٥) الاعلام باعلام بيت الله الحرام: ١٧.

(٨٦) الخصال : ٢٧٨.

(٨٧) الحج : ٢٥.

(٨٨) الخصال : ٢٧٨، الفقيه ٢ : ١٦٦، اخبار مكة ١ : ٢٨٢، تاج العروس ٤ : ١٠٩.

- (٨٩) نفس المصادر السابقة .
- (٩٠) الخصال ١ : ٢٧٨ ، الفقيه ٢ : ١٦٦ .
- (٩١) المصدران السابقان .
- (٩٢) تاج العروس ٢ : ١٨٢ ، منتهى الارب ٢ : ٦٩٦ .
- (٩٣) تهذيب الاسماء ج ٢ / ٢ ق ٢ / ١٥٦ ، شفاء الغرام ١ : ٨٠ .
- (٩٤) تاج العروس ٨ : ٣٣٩ .
- (٩٥) تاج العروس ٤ : ٣٢٢ .
- (٩٦) الجامع اللطيف : ١٦٠ .
- (٩٧) تاج العروس ٤ : ٣٢٢ ، الصحاح ٣ : ١٠١٠ ، الشفاء : ٧٩ .
- (٩٨) الصحاح ٣ : ٩٨٣ ، لسان العرب ١٤ : ١٢٤ ، شفاء الغرام : ٧٩ .
- (٩٩) الصحاح ٣ : ١٠٨٩ ، المنجد : ٤٩٨ ، الجامع اللطيف : ١٦١ .
- (١٠٠) اخبار مكة . . . ، لسان العرب ١٢ : ١٨٢ ، شفاء الغرام : ٨٠ .
- (١٠١) معجم البلدان . . . ، الجامع اللطيف : ١٦١ ، تاج العروس ٩ : ٣٠٠ .
- (١٠٢) تاج العروس ٤ : ٢١٤ ، شفاء الغرام : ٨٠ ، الجامع : ١٥٨ .
- (١٠٣) شفاء الغرام : ٧٩ ، اخبار مكة ١ : ٢٨٢ .
- (١٠٤) اخبار مكة ١ : ٢٨٢ ، شفاء الغرام : ٧٩ ، الجامع اللطيف : ١٥٨ .
- (١٠٥) شفاء الغرام : ٨٠ ، الجامع اللطيف : ١٦١ ، الصحاح ١ : ١٧٣ .
- (١٠٦) شفاء الغرام : ٨٠ ، تاج العروس ١ : ٢٥٨ .
- (١٠٧) الجامع اللطيف : ١٥٩ ، لسان العرب ٩ : ٢٦٧ .
- (١٠٨) شفاء الغرام : ٨١ ، الجامع اللطيف : ١٥٩ .
- (١٠٩) المصدران السابقان .
- (١١٠) الجامع اللطيف : ١٥٩ ، المرصع : ١٨٦ .
- (١١١) المرصع : ١٨٦ .
- (١١٢) العمدة ١ : ٣١ ، معجم البلدان ٢ : ٤١٣ .
- (١١٣) شفاء الغرام : ٨٠ ، الجامع اللطيف : ١٦٠ .
- (١١٤) و (١١٥) المصدران السابقان .
- (١١٦) تاج العروس ٢ : ١٥٨ .
- (١١٧) الجامع اللطيف : ١٦٢ ، المنجد : ١٥٣ .

(١١٨) معجم البلدان : ٥، لسان العرب ١ : ٥١١.

(١١٩) شفاء الغرام : ٨٠.

هل يحق لغير المسلم أن يسكن جزيرة العرب؟

تأليف : يعقوب الجعفري

ثمة أحكام خاصة لجزيرة العرب، مهبط الوحي الإلهي، ومنطق نور الاسلام بينتها المتون الفقهية، أهمها: انه لا يحق لغير المسلمين من المشركين واليهود والنصارى وأتباع الأديان الأخرى السكن في هذه الأرض، وعليهم أن يعتنقوا الاسلام أو يهاجروا عنها.

وقد وردت روايات عديدة في ذلك من طرق الفريقين ، نثبت فيما يلي بعضها، لنورد من بعد آراء العلماء الشيعة والسنة وأقوالهم، ثم نبحث في حدود جزيرة العرب التي يخصها هذا الحكم، ونختتم البحث برأينا في ذلك :

١— عن أم سلمة، أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أوصى عند وفاته: "أن تخرج اليهود والنصارى من جزيرة العرب" (١).

٢— عن علي بن جعفر عن أخيه موسى بن جعفر قال: "سألته عن اليهودي والنصراني والنجوسي، هل يصلح لهم أن يسكنوا في دار الهجرة؟ قال: أما أن يلبثوا بها فلا يصلح، وقال: إن نزلوا بها فمأزراً وأخرجوا منها بالليل فلا بأس" (٢).

٣— عن أبي عبد الله (عليه السلام) أنه قال: "لا يدخل أهل الذمة الحرم، ولا دار الهجرة، ويُخرجون منها" (٣).

٤— عن ابن عباس، قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): "أخرجوا المشركين من جزيرة العرب" (٤).

٥— عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: "لأُخرجنَّ اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع إلا مسلماً" (٥).

٦— عن أبي هريرة، قال: "بينما نحن في المسجد خرج النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال: انطلقوا إلى يَهُودَ، فخرجنا حتى جئنا بيت المدراس فقال: أسلموا تسلموا، واعلموا أن الأرض لله ورسوله، وإني أريد أن أُجليكم من هذه الأرض، فمن يجد منكم بماله شيئاً فليبعه، وإلا فاعلموا أن الأرض لله ورسوله" (٦).

أ — آراء علماء الشيعة

١— الخقق الحلي:

"ولا يجوز لهم استيطان الحجاز على قول مشهور، وقيل: المراد به مكة ومدينة؛ وفي الاجتياز به والامتياز منه، تردد . ومن أجازه، حدّه بثلاثة أيام ؛ ولا جزيرة العرب . . . " (٧).

٢— الشيخ الطوسي:

"كلّ مشرك ممنوع من الاستيطان في حرم الحجاز من جزيرة العرب، فان صولح على أن يقيم بها ويسكنها، كان الصلح باطلاً لما روى ابن عباس قال: أوصى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بثلاثة أشياء فقال: أخرجوا المشركين من جزيرة العرب . . . " (٨).

٣- الشهيد الأول:

ما معناه: "لا يجوز للذمي السكن في الحجاز وجزيرة العرب، وحدّها من عدن إلى عبادان طولاً، ومن قحمة إلى الشام عرضاً" (٩).

٤- العلامة الحلي:

ما معناه: "لا يجوز للمشرك الذمي والحربي السكن في الحجاز، والاجماع عليه قائم، لأن ابن عباس روى عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أنّه أوصى بثلاثة أمور، منها: أخرجوا المشركين من جزيرة العرب، وقال: لا يجتمع دينان في جزيرة العرب (١٠).

ويقول العلامة الحلي أيضاً ما معناه: لا يجوز للكافر والحربي أو الذمي السكن في الحجاز إجماعاً" (١١).

٥- الشهيد الثاني:

"قوله: ولا يجوز لهم استيطان الحجاز نسبه إلى الشهرة؛ لعدم الظفر بنصّ فيه من طرقنا، لكن ادعى في التذكرة عليه الإجماع، فالعمل به متعين، والقول بتحريم مطلق الحجاز أقوى عملاً بدلالة العرف واللغة فيدخل فيه البلدان مع الطائف وما بينهما . . " (١٢).

٦- صاحب الجواهر:

"ولا يجوز لهم استيطان الحجاز على قول مشهور، بل في المنتهى ومحكي المبسوط والتذكرة الاجماع عليه، وهو الحجة بعد السيرة القطعية، التي يمكن استفادة الاجماع أيضاً منها، مضافاً إلى ما سمعته من خبر الدعائم (١٣)، وإلى خبر ابن الجراح المروي من طرق العامة" (١٤).

ب — أقوال علماء السنة

١— ابن قدامة:

"ولا يجوز لأحد منهم سكنى الحجاز، وبهذا قال مالك والشافعي، إلا أن مالكا قال: أرى أن يجلوا من أرض العرب كلها لأن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: لا يجتمع دينان في جزيرة العرب" (١٥).

٢— أبو الحسن الماوردي:

"ان لا يستوطنه — الحجاز — مشرك من ذمي ولا معاهد، وجوزّه أبو حنيفة، وقد روى : كان آخر ما عهد به رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أن قال: لا يجتمع في جزيرة العرب دينان . وأجلى عمر بن الخطاب أهل الذمة عن الحجاز، وضرب لمن قدم منهم — تاجراً أو صانعاً — مقام ثلاثة أيام، ويخرجون بعد انقضائها" (١٦).

٣— ابن قيم الجوزية:

ما معناه: "قال مالك: ينبغي اجلاء الكفار من كل جزيرة العرب، وقال الشافعي: أن يمنعوا من الحجاز كلها، وهي عبارة عن مكة والمدينة واليمامة وأطرافها. أما غير الحرم منه فحكمه أن يمنع الكافر الكتابي وغير الكتابي من السكن فيه والاقامة، ويستطيع أن يدخله بجواز من الامام لمصلحة معينة نحو إيصال رسالة أو حمل سلعة يحتاجها المسلمون" (١٧).

٤— ابن الأثير:

ما معناه: "قال الطبري بان على الامام أن يخرج غير المسلم من أية مدينة يتغلب عليها المسلمون، لو لم يكن للمسلمين بهم حاجة، كالعامل في الأرض

وغير ذلك، وبسبب هذه الحاجة القاهم عمر في العراق والشام .
اعتقد الطبري أن الحكم لا يختص بجزيرة العرب وحسب، بل يلحق بها كل مكان في حكمها"
(١٨).

يتضح من الفقرات المقتبسة أعلاه أن معظم المسلمين يعتقدون بعدم جواز سكن غير المسلمين وإقامتهم في الحجاز أو الجزيرة العربية، سوى أبي حنيفة الذي جَوّز ذلك .
ويبدو أن حكم المسألة واضح بين فقهاء الشيعة بلحاظ الإجماع الذي أشار إليه العامة الحلبي في المنتهى والتذكرة، ولم يُنقل عن الفقهاء شيء بخلاف ذلك . ولكن ما هي حدود الحجاز والجزيرة العربية؟

وهل يمكن قبول هذا الحكم المخالف للقواعد والعمومات بشكل عام، وفي جميع الحالات التي يُحتمل وجود شمول عام فيها، أم ينبغي الاكتفاء بالقدر المتيقن؟ وما هو القدر المتيقن؟
قيل في تعريف جزيرة العرب والحجاز الكثير، وينقل المحقق عن بعض تلك الأقوال، فيقول: إن المراد من الحجاز مكة والمدينة، والمراد من جزيرة العرب مكة والمدينة واليمن وتوابعها . وينقل عن آخرين القول في أن المراد من جزيرة العرب هي: المنطقة المحصورة بين عدن وعبادان طولاً، وبين تهامة وأطراف الشام عرضاً (١٩).

ويعتقد العلامة الحلبي: بأن المراد من جزيرة العرب الحجاز، والحجاز عبارة عن مكة والمدينة واليمامة وخيبر وينبع وفدك وأطرافها، ويقال لها الحجاز لأنها تحجز بين نجد وتهامة، ويضيف العلامة في سبب تخصيص جزيرة العرب

بالحجاز، بأنه لو لم يكن ذلك لوجب إخراج أهل الذمة من اليمن أيضاً (٢٠).
يقول الشوكاني : قال الأصمعي: إنّ جزيرة العرب عبارة عمّا بين عدن إلى العراق طولاً، ومن
جدة إلى اطراف الشام عرضاً، وسبب اطلاق الجزيرة عليها؛ إحاطتها ببحر الهند وبحر فارس والحبشة

وقال صاحب القاموس: إنّ جزيرة العرب، منطقة أحاط بها بحر الهند وبحر الشام ودجلة والفرات،
أو أن نقول من عدن إلى أطراف الشام، ومن جدة إلى ريف العراق (٢١).
ويقول صاحب الجواهر بعد نقل كلام الاصمعي وآخرين:

ولكن قد يقال: إنّ مرادهم مجرد تفسيرها، وإلاّ فالسيرة على عدم منعهم من جميع ذلك . وعلى
كل حال فقد قيل: إنّها سميت جزيرة العرب؛ لأن بحر الهند وهو بحر الحبشة وبحر فارس والفرات
أحاطت بها، وإنّما نسبت إلى العرب لأنّها متزلّهم ومسكنهم . . . (٢٢).

ونستعرض فيما يلي أقولاً لياقوت الحموي وابن منظور، لنبادر من ثم إلى التحقيق في هذا البحث:
يقول ياقوت عن الحجاز: جبل ممتدّ حالّ بين الغور غور قحاة ونجد . . . وقال الأصمعي: . .
. . فمكة قحاة، والمدينة حجازية، والطائف حجازية (٢٣).

ويقول عن الجزيرة العرب: . . . وإنّما سميت بلاد العرب جزيرة لاحاطة الانهار والبحار بها من
جميع أقطارها وأطرافها . . . فصارت بلاد العرب من هذه الجزيرة التي نزلوا وتوالدوا فيها على
خمسة أقسام عند العرب:

قحاة والحجاز ونجد والعروض واليمن (٢٤).

ونقل ابن منظور أقولاً في تحديد جزيرة العرب، منها: أنّها ما بين حفر أبي موسى إلى أقصى قحاة في
الطول، وأما العرض فما بين رمل يبرين إلى

منقطع السماوة . ثم يضيف: وقال مالك بن أنس: أراد بجزيرة العرب المدينة نفسها (٢٥).

التحقيق في المسألة

يتضح من الروايات وأقول العلماء: عدم جواز سكن الكفار وإقامتهم في الجزيرة العربية والحجاز حسب الفقه الاسلامي، بل يمكن القول: إن ذلك من مسلمة الفقه، والمهم أن نعرف المناطق التي يشملها هذا الحكم .

نقول: إن هذا الحكم حكم خلاف القاعدة وخلاف الأصل، ولهذا يجب الاكتفاء بالقدر المتيقن وحمل العام على الخاص، والقدر المتيقن هنا مكة والمدينة . وقد خصص هذا الحكم لهاتين المدينتين ؛ كونهما مهبط الوحي ومركز الحكم الإسلامي، ويتسمان بقداسة خاصة، ولا يمكن تعميم هذا الحكم على غير الحرمين الشريفين لا سيما في الفقه الشيعي؛ لأن الدليل على هذا الحكم (التعميم) أمران :

١- الإجماع الذي ادعاه العلامة الحلّي .

٢- بعض الأحاديث القاصرة من حيث السند، أو من حيث الدلالة .

الإجماع الذي ادعاه العلامة الحلّي في كتابيه إجماع منقول، والأهم من ذلك أن دليل الإجماع : هو حديث مروي عن ابن عباس بطرق العامة (ذكرنا نصه سابقاً)، ولا يمكن لمثل هذا الإجماع أن يثبت شيئاً، وبفرض قبول الإجماع وتأيدته بالسيرة القطعية — التي يمكن استفادة الإجماع أيضاً منها حسب صاحب الجواهر — نقول: إن العلامة ادعى الإجماع حول الحجاز فقط وليس جزيرة العرب، ومن الشائع إطلاق الحجاز على مكة والمدينة، فيلزم الاكتفاء بذلك لأن الحكم خلاف الأصل.

أما الروايات الواردة في المسألة في الكتب الروائية الشيعية، فإن رواية أمّ

سلمة، هي الوحيدة التي جاء فيها ذكر جزيرة العرب، وقد نقلها صاحب الوسائل عن مجالس ابن الشيخ أبي أمالي الطوسي، والكثير من رواها مجهولون ، وبعضهم لم يرد اسمه في كتب الرجال، ويعتقد أنها نفسها المروية عن ابن عباس بطرق العامة .

تبقى الروايتان المذكورتان بطرق الخاصة واللذان ثبتناهما سابقا (رواية علي بن جعفر، ورواية دعائم الاسلام)، فرغم انه يمكن القبول بهما من حيث السند وخاصة رواية علي بن جعفر المذكورة في تهذيب الشيخ، لكن دلاليتهما على إخراج الكفار من كل الجزيرة العربية أو حتى الحجاز متنوعة، لأن رواية علي بن جعفر تمنع سكن الكفار في دار الهجرة فقط وهي المدينة، فيما ذكرت رواية دعائم الاسلام دار الهجرة والحرم، أي المدينة ومكة .

وبالطبع يستفاد من الآية الكريمة: {إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام} (٢٦) في حرمة دخول المشركين إلى مكة، لا كما احتمل البعض من أن مكة كلها يمكن أن يطلق عليها المسجد الحرام (٢٧)، وإنما لقوله: {لا يقربوا}، والدخول إلى مكة يعني الاقتراب من المسجد الحرام .
رغم أننا نحتمل بأن هذه الآية لا تتعلق بدخول المشركين إلى مكة أو سكنهم فيها، وإنما نزلت في مقام منعهم من الاشتراك في مناسك الحج التي نُفِذت منذ السنة التاسعة للهجرة وبعد إعلان سورة براءة، بواسطة أمير المؤمنين علي (عليه السلام) .

الأمر الآخر ما قاله الشهيد الثاني بعدم الظفر بنص فيه من طرقنا (٢٨)، بينما لاحظنا وجود مثل هذه النصوص، إلا أن يكون مراد الشهيد الثاني عدم ذكر لفظ الحجاز وجزيرة العرب، وعندئذ يكون محققاً في ذلك .

مهما يكن من أمر، إننا نعتقد بلحاظ منطوق الراويين المذكورين ، وبلحاظ أن حكم المسألة خلاف القاعدة وخلاف الأصل ويجب أن لا نتجاوز

القدر المتيقن، فإن حكم إخراج الكفار يشمل مكة والمدينة فقط، ويقتضي الاحتياط أن يُخرجوا أيضاً من تمامة والحجاز ونجد وكل جزيرة العرب .

الهوامش :

- (١) الوسائل ١١ : ١٠١ .
- (٢) نفس المصدر .
- (٣) مستدرك الوسائل ٢ : ٢٦٢ .
- (٤) صحيح البخاري ٤ : ٢١٢ .
- (٥) سنن أبي داود ٢ : ٤٣ ؛ المنتقى : ٤٠٧ .
- (٦) التاج الجامع للاصول ٤ : ٤٠٣ . * المدراس : العالم الذي يدرس لهم أو البيت الذي يدرسون فيه .
- (٧) شرايع الاسلام : ٩٤ .
- (٨) المبسوط ٢ : ٤٧ .
- (٩) راجع الدروس : ١٦٣ .
- (١٠) منتهى المطلب : ٩٧١ .
- (١١) تذكرة الفقهاء ١ : ٤٤٥ .
- (١٢) مسالك الافهام ١ : ١٢٤ .
- (١٣) وهي رواية الامام الصادق التي نقلناها عن المستدرك برقم ٣ .
- (١٤) جواهر الكلام ٢١ : ٢٨٩ .
- (١٥) مغنى ابن قدامة ١٠ : ٦٠٣ .
- (١٦) الاحكام السلطانية للماوردي : ١٦٧ .
- (١٧) احكام أهل الذمة : ١٨٤ .
- (١٨) فتح الباري ٦ : ٢٧٢ .
- (١٩) شرايع الاسلام : ٩٤ .
- (٢٠) المنتهى : ٩٧١ .
- (٢١) نيل الأوطار ٨ : ٦٥ .
- (٢٢) جواهر الكلام ٢١ : ٢٩١ .
- (٢٣) معجم البلدان ٢ : ٢١٨ .

- (٢٤) معجم البلدان : ١٣٧ .
- (٢٥) لسان العرب ٤ : ١٣٤ .
- (٢٦) التوبة : ٢٨ .
- (٢٧) مجمع البيان للطبرسي ٥ : ٣٢ .
- (٢٨) مسالك الأفهام ١ : ١٢٤ .

أسواق مكة والمدينة

تأليف: عباس المهاجر

المقدمة:

لبلاد العرب موقع جغرافي متوسط بين بلاد أعظم الدول، وأقدم الحضارات، فالى شمالها الشرقي بلاد فارس وإلى شمالها الغربي بلاد الروم ومصر وإلى غربها الجنوبي وراء البحر بلاد الحبشة وفي جنوبها البحر الهندي الذي يفصلها عن بلاد الهند.

ولا نكون مغالين إذا قلنا أن معظم تجارات العالم منذ القديم حتى القرون الوسطى هي بين هذه البلاد التي عددنا. فالدولتان العظيمتان اللتان تنازعنا على السيادة في العالم، وهما دولتا فارس والروم، كانتا على علاقات تجارية وسياسية حسنة مع بلاد العرب في الشمال والجنوب . واول من تلك العلاقات علاقة الحبشة والهند باليمن وعمان والبحرين .

وكان للموصلات التجارية في جزيرة العرب طريقان احدهما شرقي يصل عمان بالعراق وينقل بضائع اليمن والهند وفارس برّاً ثم يجوز غرب العراق

إلى البادية حتى ينتهي به المطاف في اسواق الشام . والطريق الثاني وهو الأهم — غربي — يصل اليمن بالشام مجتازاً بلاد الحجاز، ناقلاً أيضاً، بضائع اليمن والحبشة والهند إلى الشام، وبضائع الشام إلى اليمن حيث تصدر إلى الحبشة وإلى الهند في البحر. فكان من المعقول أن يمارس كثير من العرب التجارة رجالاً ونساءً وخاصة الذين تقع بلادهم قريبة من أحد هذين الطريقين ، ومن لم يتاجر منهم أفاد من التجارة بالواسطة، فعمل في هذه القوافل إما سائقاً وإما منتظماً في جملة حماة الذين يؤجرون أنفسهم وسلاحهم ودوابهم فيها.

قد شغلت دول العرب القديمة كتدمر وسبأ والمعينين ، المراكز الممتازة في تجارة الشرق حتى ذكرتهم التوراة ووصفت ثروتهم وتجارتهم . وحمل أهل تدمر في القديم إلى مصر وجنوب أوروبا صادرات بلاد العرب والعراق والهند، وكانت النفائس التي يحملها التدمريون من بلاد الشرق أثمن ما يتغالى به الملوك القياصرة .

وفوق هذا كله، كان لهؤلاء العرب ذوي الملكة التجارية الراقية اهتمام بما حولهم من الأقطار التي يتاجرون فيها وإليها ومراقبة لما يجري هناك من أحداث وقد دفعتهم إلى ذلك طبيعة التجارة وما تتطلب من درس وإلمام بالأسواق وأمنها واحوال المسيطرين على شعوبها، وأنت تعرف ذلك من الحرب، التي كانت بين الفرس والروم في مشارف الشام، قبل الهجرة بست سنين وكيف كان مشركو مكة فرحين بانتصار الفرس إذا كانوا مثلهم غير ذوي كتاب، وقد شتموا بهزيمة الروم اذ كانوا كالمسلمين أتباع كتاب سماوي، وقد سجل القرآن الكريم هذه الظاهرة، ظاهرة اهتمام المكيين بما يجري حولهم من شؤون الفرس والروم في الآية الكريمة:

{آلم * غلبت الروم * في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون *

في بعض سنين . . . }

هذا هو مجمل ما أردت أن أعرض له من بيان إهتمام العرب بالتجارة وإليك — أيها القارئ — أهم الأسواق وسياستها التجارية في مكة والمدينة: —

(أسواق مكة والمدينة)

أولاً: — سوق عكاظ:

عكاظ هي المعرض العربي العام أيام الجاهلية، معرض بكل ما لهذه الكلمة من مفهوم لدينا نحن أبناء هذا العصر: فهي مجمع أدبي لغوي رسمي، له محكمون تضرب عليهم القباب، فيعرض شعراء كل قبيلة عليهم شعرهم وأدبهم، فما استجدوه فهو الجديد، وما بهرجوه فهو الزائف.

وحول هذه القباب الرواة والشعراء من الأقطار العربية عامة، فما ينطق الحكم بحكمه حتى يتناقل أولئك الرواة القصيدة الفائزة، فتسير في أغوار الجزيرة وأنجادها، تلهج بها الألسن في البوادي والخواضر. يحمل إلى هذه السوق التهامي والحجازي والنجدي والعراقي واليمامي واليماني، كل ألفاظ حيّة ولغة قطرة، فما تزال عكاظ بهذه اللهجات نخلًا واصطفاءً حتى يتبقى الأنسب الأرشق ويطرح الجفّو الثقيل.

وعكاظ هي السوق التجارية الكبرى عامة، يحمل إليها من كل بلد تجارته وصناعته كما يحمل إليها أدبه، فإليها يجلب الخمر من هجر والعراق وغزة وبصرى، والسمن من البوادي ويرد إليها من اليمن البرود الموشاة والأدم، وفيها الغالية وأنواع الطيب وأدوات السلاح، ويباع فيها الحرير والوكاء والحذاء والمسير والعدني يحملها إليها التجار من معادنها، وفيها من زيوت الشام وزبيبها وسلاحها ما اعتادت قريش أن تحمله في قفولها إلى مكة. ويعرض فيها كثير من الرقيق الذي ينشأ عن الغزو وسي الذراري فيباع فيها بيع المتاع التجاري .

ويبيع فيها كلُّ غازٍ ما سلبه وكثيراً ما يكون هذا البيع سبباً في قتل صاحبه إذا أبصر السلاح أحد من ذوي المقتول فعرفه، فإنه يضمها في نفسه وينتظر أن يظفر بالرجال ليثأر منه .

وتصل من تجارة فارس أشياء إلى عكاظ: فإن النعمان بن المنذر ملك الحيرة كان يبعث إلى سوق عكاظ كل عام لطيحة (وهي في الأصل العير احملة مسكاً) في جوار رجل شريف من أشراف العرب، يجبرها له ويحميها من كل معتدٍ حتى تصل سالمة إلى عكاظ ؛ فتباع هناك ويشري بثمانها ما يحتاج إليه من آدم (جلود) الطائف وسائر المتاع إلى عكاظ: من حرير وعصب مسير، وبيعت فيها حلّة ذي وزن فاشتراها حكيم بن حزام ليهديها رسول الله (١)، بل إن عكاظ نفسها مشهورة بما يعرض فيها من جلود حتى قالوا: "أديم عكاظي" نسبة إليها.

حتى البضائع المجهولة الأصل المعروضة في عكاظ تجد من شرائع القوم واعرافهم التي التزموها ما يجعلها كاسدة لا يرغب فيها أحد، فهذا بعض لصوص العرب "قرب" إبلاً للبيع في سوق عكاظ وكان أغار عليها من كل وجه، فلما عرضها قيل له: "ما نارك؟" (أي ماسمة إبلك؟ وكانوا يعرفون علامة كل قوم التي يسمّون إبلهم بها ويعفون كرمها من لؤمها) فلما كثر ذلك عليه أنشأ يقول :

يسألني الباعة أين نارها اذ زعزعتها فسمت أبصارها

كل بخار إبل بخارها وكل نار العالمين نارها (٢)

وهي معرض لكثير في عادات العرب واحوالهم الاجتماعية :

فها هنا (قس بن ساعدة) يخطب الناس، بذكر الخالق ويعظهم بمن كان قبلهم ويأمرهم بالخير (٣). وهناك خالد بن أوطاة الكلبي تنعبه قبيلته وقد

جاء لينافر جرير بن عبدالله الجبلي ومع هذا حيّه أيضاً وقد ساق كل منهما مالا عظيماً ينافر عليه، وعرضاً الحكومة على رجالات قريش فأبوا أن يحكموا خوف الفتنة بين الحيين، فالرجلان في عكاظ ينتظران الأقرع بن حابس ليقوم بهذه الحكومة وقد ساق الرهن فوضعوها عند عتبة بن ربيعة (٤) دون جميع من شهد على ذلك المشهد، وها هنا عمر بن الخطاب في الجاهلية يصارع (٥)، وثمة كاهن وعراف وعائف وقائف، وقرد، وغنم، وصحيفة وكاتب . وهناك أناس من غواة الشهرة : هذا يمد رجليه وينشد شعراً ويقول: "من كان أعز العرب فليقطع رجلي" وآخر يأتي عكاظ ببناته ترويحاً لزواجهن، وأناس قدموها ليختاروا من يتزوجون إليه . .

قال المرزوقي:

"كان في عكاظ أشياء ليست في أسواق العرب: كان الملك من ملوك اليمن يبعث بالسيف الجيد، والحلّة الحسنة، والركوب الفاره، فيقف بها وينادي عليه: "ليأخذه أعز العرب" يرد بذلك معرفة الشريف والسيد فيأمره بالوفادة عليه ويحسن صلته وجائزته" .

وكان كسرى يبعث في ذلك الزمان بالسيف القاطع والفرس الرائع والحلة الفاخرة فتعرض في تلك السوق وينادي مناديه: "إن هذا بعثه الملك إلى سيد العرب" فلا يأخذه إلا من أذعنت له العرب جميعاً بالسؤدد فكان آخر من أخذه بعكاظ حرب بن أمية، وكان كسرى يريد بذلك معرفة ساداتهم ليعتمد عليهم في أمور العرب فيكونوا عوناً له على اعزاز ملكه وحمايته من العرب (٦).

وهي ندوة سياسية عامة، تقضى فيها أمور كثيرة بين القبائل: فمن كانت له إتاة على قبيلة تزل عكاظ فجاءوه بها، ومن أراد تخليد نصر لحيه فعل فعل عمرو بن كلثوم فرحل إلى عكاظ وخلده فيها شعراً . ومن أراد إجارة أحد هتف

بذلك في عكاظ؛ حتى يسمع الناس عامة ومن أراد اعلان الحرب على قوم أعلنه في عكاظ، حتى (جميعه الأمم) أو (هيئة الأمم المتحدة) وما قامت به من مجهود (رسمي) في سبيل السلم الخاص، كان لها صورة مصغرة تشبهها بحسب الظاهر (لا في الحقيقة، لأن عكاظ لم تكن ترائي فتستغل الدعاية الشريفة لتسيغ للقوي أكل الضعيف)، فقد روى الأصفهاني أنه: "اجتمع ناس من العرب بعكاظ منهم قره بن هبيرة القشيري والمخيل وهو في جوار قره، في سنين تنابعت على الناس فتواعدوا وتوافقوا ألا يتفاوروا حتى يخلص الناس!". (٧) ولا يخفى علينا أنه كانت تكون في عكاظ "وقائع مرة بعد مرة" (٨).

وكانت هذه السوق تقوم في العرب يومئذ مقام الجريدة الرسمية في أيامنا هذه وقد تقدم آنفاً شيء من ذلك في أمر الجوار وأخبار الحروب .

وخير ما يعطينا صورة واضحة عن عكاظ أن نعرض لأهم الأحداث التي جرت فيها، فنتمثل بوساطتها أحوال العرب في هذه السوق الكبرى، في بيعهم وشرائهم وتخاصمهم وتفاجرهم وحربهم وسلمهم .

واشد ما يثير الاستغراب، هذا الشبه الكبير بين عكاظ ومعارض هذا العصر، بل إن عكاظ لأوسع مدى فيما يعرض، فإنه لا يقتصر على مواد التجارة والصناعة بل يتعداهما إلى الأدب والشعر والحرب والسلم والعادات فإذا أنا أفضت في وصف عكاظ وما فيها، فإن ذلك إفاضة في وصف سائر أسواق العرب أيضاً . فليس فيهن سوق تساميهما. وما جرى في عكاظ جرى قريب منه في بقية الأسواق مع مراعاة صغرهما واقتصارهما أحياناً على اهل ناحية واحدة، فليكن تاريخ عكاظ إذاً تاريخاً لكل أسواق العرب، وتاريخاً لكثير من عاداتهم الاجتماعية أيضاً .

الموقع الجغرافي لعكاظ :

عكاظ نخل في واد بين مكة والطائف على مرحلتين من مكة ومرحلة من الطائف، وموقعها جنوب مكة إلى الشرق . هذا زبدة ما يستخلص من تعاريفهم المتضاربة في عكاظ(٩). وتقوم السوق في مكان منه يعرف بالأثداء فيه مياه ونخل، وهو مستوٍ لا علم فيه ولا جبل إلا مكان من الأنصاب التي كانت لأهل الجاهلية، وبها من دماء البدن كالأرحاء العظام(١٠). كانوا يطوفون حول صخور فيها، وربما كان ذلك شعيرة من شعائرهم فقد ذكروا أنهم كانوا يحجّون إليها وبالأثداء كانت أيام الفجار. والظاهر أن ما يطلق عليه (عكاظ) في الأرض متسع فسيح فيه حرار وفيه أرضون مسقية ذات نخيل. ولا شك أن أرضاً اتسعت بعض اجزائها لمعارك عدة أرض فسيحة واسعة، وبذلك نفهم كيف كانت السوق تنتقل في عكاظ فلا تلازم بقعة واحدة لاتحيد عنها يميناً ولا شمالاً على مدى السنين المتطاولة .

وهي وما جوارها ديار قيس عيلان وهوازن منهم خاصة .

معنى عكاظ :

أما اشتقاق عكاظ ، ولمَ سميت بهذا الاسم؟ فقد ذهب اللغويون فيه مذاهب، قلبوا الكلمة علي معانيها المختلفة: فالقهر والحبس وردّ الفخر والتجادل والتحاج كل هذه معانٍ للعكظ وكلها صالحة لأن يعلل بها التسمية فيقول قوم: سميت عكاظ لأن العرب كانت تجتمع فيها فيعكظ بعضهم بعضاً في المفارقة أي يقهره ويعركه، وقال آخرون إنما من تعكّظ القوم إذا تحبّسوا لينظروا في أمورهم، وذهب غيرهم إلى أنها من التعاكظ بمعنى التفاخر.

مواعيد عكاظ:

تقوم هذه السوق في ذي القعدة، وللعلماء بعدُ خلاف في تعيين أيامها من هذا الشهر، فالمرزوقي يجعلها تبدأ من نصفه حتى آخره، وآخرون يجعلون وقتها في شوال (١١) إلا أن الأكثرين على أنها تبدأ من أول ذي القعدة، وتستمر حتى العشرين منه إذ تبدأ سوق مجنة فيرتحل إليها الناس وهي أقرب من مكة، فإذا أهل ذو الحجة أنقشع الناس إلى مجنة إلى ذي الحجاز قرب عرفه وبقوا فيها حتى يوم التروية فيبدأ الحج .

ويمكن جمع الأقوال المتقدمة بأن عكاظ قد تحفل بالناس في شوال ويتم تقاطرهم إليها في ذي القعدة: الزمن الرسمي للسوق وحين تذهب جماعاتهم إلى مجنة في العشرين من ذي القعدة يتخلف كثير ممن لم يكن أهى بيعه وشراءه ، فلا يخلوا السوق تماماً إلا في غرة ذي الحجة عند اقتراب الحج (١٢). وخلال هذه الأيام في عكاظ ينهيء العرب للحج ويتبايعون ويتناشدون ويتفخرون ويتقارعون ويتنافرون ويتعاضمون .

ولم يكن هناك مجمع للعرب أحفل من عكاظ، فكانوا يضربون بكثرة اهلها المثل، وبقيت لها هذه الشهرة بعد الإسلام ، فقد جاء في الأمالي: أن عبد الرحمن بن ملجم قاتل علي بن أبي طالب (عليه السلام) لما سئل عن قتله علياً قال: "ضربته ضربة لو كانت بأهل عكاظ لقتلهم" (١٣). وكان يقوم بأمر الحكومة عامة فيها بنو تميم (١٤). كانت الحكومة في الشعر للنابعة الذبياني .

ثانياً — سوق مجنة :

مجنة موضع وقيل بلد قرب مكة على أميال منها، تقع بمر الظهران،

قرب جبل يقال له الأصفر وهو أسفل مكة على قدر بريد منها، ميمها بالفتح وتكسر (١٥). والظاهر أنها من المواطن التي لا ينساها أهل مكة لبعض جمال فيها ولأنها ذات مياه، فقد جاء في كتب السيرة : أن بلالاً لما هاجر إلى المدينة واصيب بالحمى، تشوّق إلى مكة ومواطنها وتغنّى بقوله : — ألا ليت شعري هل أبيت ليلةً بفتح [بواد] وحولي إذخر وجليلاً؟

وهل أردن يوماً مياه مجنة؟ وهل يبدوون لي شامة وطفيل (١٦)؟

هذه السوق لكنانة وأرضها من أرض كنانة، تقوم في الشعر الأواخر من ذي القعدة ويقصدها العرب بقضهم و قضيضهم بعد أن تنقض سوق عكاظ ، يتممون فيها ما قصدوا له من تجارة وفداء وتفاجر على شبه التفصيل المتقدم في عكاظ ، ويجلب إليها ما يجلب إلى تلك من متاع وعروض، ولم تكن الخمرة لتقل فيها شأنًا عن بقية الأسواق فقد كانت تحمل إليها من معادنها من الشام، ومن بصرى وغزة حتى صار يشيد بذكرها الشعراء ، قال أبو ذؤيب الهذلي :

سلافة راح ضمننتها إداوة مقيرة ردف لمؤخرة الرحل
تزودها من أهل بصرى وغزة على جسر مرفوعة الذيل والكفل
فوافي بها عُسفان ثم أتى بها "مجنة" تصفو في القلال ولا تغلي

ومجنة وعكاظ وذو الحجاز تستوي في نظر المحرمين من العرب وتمتع منهم جميعاً باحترام واحد حتى إن بعضهم لا يردّها إلا محرماً .

قال الأزرقى:

"كانت قريش وغيرها من العرب تقول: "لا تحضروا سوق عكاظ ومجنة وذو الحجاز إلا محرمين بالحج، وكانوا يعظمون أن يأتوا شيئاً من المحارم أو

يعدو بعضهم على بعض في الأشهر الحرم وفي الحرم" (١٧).

ومجنة — وإن قرت في أغلب الأحيان مع عكاظ وذي المجاز — دون هاتين السوقين شأنًا حتى إن المرزوقي لم يذكرها مستقلة كما ذكر غيرها بل أكفى بقوله: " وزاد بعضهم في الأسواق المجنة وهو قريب من ذي المجاز".

ثالثاً : — سوق ذي المجاز:

لهم في تحديدها قولان :

الأول : أنها على فرسخ من عرفة بناحية كبكب، وكبكب جبل بعرفات خلف ظهر الإمام إذا وقف . ذكره ياقوت وغيره وهو أحد قولين نقلهما الزبيدي .

والثاني : أنها موضع بمخى، ومخى بين مكة وعرفات في نصف الطريق تقريباً، والذين نقلوا الأول أكثر عدداً وإن كان القول الثاني أدنى إلى القبول . وسمي ذا المجاز لأن إجازة الحاج كانت منه، ولعل السوق أحياناً تمتد، أو ينتقل الناس فيها: يقتربون ويتعدون حتى تشتغل هذه المسافة .

وذو المجاز من ديار هذيل، هم أهلها وجيرانها الأدنون .

يكثر ورود ذي المجاز في شعر العرب ولاسيما شعراء هذيل، لأنها من أسواقهم الكبرى، ومن المواسم أيضاً، قال أبو ذؤيب الهذلي :

وراج بها من ذي المجاز عشية يبادر أولى السابقات إلى الحبل
وقال الليثي :

للغانيات بذي المجاز رسوم في بطن مكة عهدهن قديم

أما التي ذكرها الحارث بن حلزة في معلقته :

واذكروا حلف ذي المجاز وما قدم فيه العهود والكفلاء

فالغالب أنها التي في شمال الجزيرة، لأن مقام قبيلته والأحداث بينها وبين غيرها كانت هناك .
إذا انقشع الناس عن مجنة حين يهّل ذو الحجة، ساروا بأجمعهم إلى هذه السوق، وأقاموا بها حتى
اليوم الثامن من ذي الحجة، وهو يوم التروية، سمي بذلك لأنهم كانوا يرتنون فيه من الماء ويملؤون
أوعيتهم لما بعده إذ لاماء بعرفه . وإلى هذه السوق تتقاطر وفود الحجاج من سائر العرب ممن شهد
الأسواق قبلها، أو لم يشهدها وأتى للحج خاصة، إذ إن ذا الحجاز من مواسم الحج عندهم .
تحفل ذو الحجاز لوقوعها أيام الحج بمجموع العرب وتجارهم وأشرافهم ، وهي تلي عكاظ في الشأن ،
ويجري فيها ما يجري في هذه من تباع وتناشد وتفاخر وفداء أسرى وطلب ثأر . . . إلى آخره،
يقصدها صاحب الثأر ليعرف فيها واثره، فيترصد به بعد انقضاء الشهر الحرام إن كان من الحرمين
وإلا عاجله فأخذ بثأره وإليك بعض أحداثها :

روى الأصفهاني : "أن قيس بن الخطيم لم يزل يلتمس غرة من قاتل أبيه وجده في المواسم حتى
ظفر بقاتل جده بذي الحجاز، فلما أصابه وجده في ركب عظيم من قومه، ولم يكن معه إلا رهط من
الأوس، فخرج حتى أتى حذيفة بن بدر الفزاري فاستنجده فلم ينجده، فأتى خدّاش بن زهير فهض
معه ببني عامر حتى أتوا قاتل عدي (جد القيس) فإذا هو واقف على راحته في السوق، فطعنه قيس
بجربة فقتله ثم استمر . فأراد رهط الرجل فحالت بنو عامر دونه . . . إلى آخره" .
ويروي الجاحظ أن حالف أبو الأزيهر الدوسي وكان عظيم الشأن في الأزدي أبا سفيان بن حرب
عظيم بني أمية، وكان بين أبي الأزيهر هذا وبني الوليد بن المغيرة محاكمة في مصاهرة . فإن أبا الأزيهر
لقاعد في مقعد أبي سفيان بسوق ذي

المجاز إذ جاء هشام بن الوليد فضرب عنقه في مقعده ذاك بذى المجاز وانتظر الناس أن يأخذ أبو سفيان بثأر حليفه من هشام فلم يفعل ولم يدرك به عقلاً ولا قوداً من بني المغيرة، وتحدث بذلك أهل السوق من قبائل العرب وراجت في الناس حتى عبروا بها أبا سفيان وحتى قال حسان بن ثابت فيها:

غدا أهل حصني ذي المجاز بسحرة وجار ابن حرب لا يروح ولا يغدوا
كساك هشام بن الوليد ثيابه فأبل وأخلق مثلها جديداً بعدُ (١٨)

هذه الأسواق الثلاث: عكاظ ومجنة وذو المجاز التي كانت تقوم في أيام الحج ويؤمها العرب قاطبة من كل حذب وصوب، شهدت إلى جانب مناظر البيع والشراء، والمفاخرة والانشاد، مشهداً من أرفع مشاهد الجفاء والتنكر والأذى لصاحب الشريعة الإسلامية محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وابتلعت تلك الأسواق بضجيجها وما كانت تعجّ به من حوادث، صوت الدعوة الإسلامية فيما ابتلعت من دعوات، وغاب صوت صاحبها في ذلك الرغاء والصخب والزحام، فلقد مكث الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بمكة مستخفياً ثلاث سنين ثم أعلن في الرابعة ودعا الناس إلى الإسلام عشر سنين يوافي فيهن المواسم كل عام، يتبع الحاج في منازلهم بعكاظ ومجنة وذو المجاز يدعوهم أن يمنعوهم حتى يبلغ رسالات به، فلا يجد أحداً ينصره أو يجيبه، حتى إنه ليسأل عن القبائل ومنازلها قبيلة فيردون عليه أقبح الرد ويؤذونه ويقولون له، "قومك أعلم بك" (١٩).

كان قاصد هذه الأسواق أيام الحج، موزّع السمع بين داع إلى ثأر وناشد ضالة، ومنشد قصيدة، وخطيب، وعارض بضاعة، وحامل مال لفك أسير، وقاصد شريف لإجازة أو حمالة، وداع إلى عصية، وآمر بمنكر . . . فيجد شيئاً معروفاً قد ألفه منذ عقل وأبصر الدنيا . لكنه بعد عام الفيل بثلاث وأربعين سنة يجد أمراً لم يألفه قط، ولا سمع بمثله : رجلاً كهلاً وضيقاً عليه سمات

الوقار والخير، يسأل عن منازل القبائل قبيلة قبيلة : هذه بنو عامر بن صعصعة، وهذه محارب وتلك فزارة، والرابعة غسان، وهناك مرة وحنيفة، وسليم وعبس، وهنا بنو نصر وكندة، وكعب وعذرة، وهؤلاء الحارث بن كعب وأولئك الحضارمة . . . إلى آخره .

يؤم منازل كل قبيلة، ويقصد إلى شريفها يدعو بالرفق إلى الله ، وفعل الخير، فيتجههم له هذا، ويعبس ذاك ، ويجبهه ذلك ويحقره آخر فيلقى من الصد ألواناً يضيق ببعضها صدر الحليم . فلا يؤيسه ما لقي، ولا يكفه ما أودى، فيمضي متنداً حزيناً إلى قبيلة أخرى وشريف آخر يعرض نفسه عليهم ويقول: "هل من رجل يحملني إلى قومه فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ كلام ربي" فلا يجد مجيباً، حتى تدارك الله نبيه بوفد الأنصار.

هذا ما حفظته لنا كتب السير والأدب من مشاهد مؤثرة، فرأينا أن تلك الأسواق لم تخل من دعوة إلى الخير، فقد تردد في أجوائها الصوت الضعيف الخافت، يطلب حماية واجابة . ولئن صدف عنه الناس وازوروا في اسواق الجاهلية . لقد ملأ هذا الصوت فيما بعد ما بين المشرق والمغرب، وطبق الخافقين بآثاره التي بثها في العالمين رحمة وعدلاً وعلماً وإنسانية وسعادة ومثلاً علياً. وما زال يستجيب لهذا الصوت كل يوم، افواج من أمم الحضارة والعرفان، في آسيا وأروبا وأمريكا صدّ عنه قديماً أحلاف البادين، وهرع إليه اليوم زمرة المتحضرين من كل عالم ومخترع ومصلح وأديب وسياسي، ومفكر يستضيء بعلمه وفكره الملايين من الخلائق.

فلنأخذ من هذه الأسواق العبرة، ولنحتفظ بهذا الدرس، فإن الحق مهما بدا ضعيفاً وبدا خصيمه الباطل قوياً صائلاً، لا بد من أنه ظافر في النهاية عليه . ولنعلم أن اليأس لا ينبغي أن يجد سبيلاً إلى قلب المؤمن، وأنه : —

{إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون} .

رابعاً : سوق دومة الجندل :

دومة الجندل ويقال (دوماء الجندل) كلاهما بالضم (٢٠)، بلد يقع في نقطة متوسطة بين الشام والخليج الفارسي والمدينة، أقرب إلى المدينة من الشام والخليج الفارسي .
وهي في غائط من الأرض طوله خمسة فراسخ وفيها حصن "مارد" المشهور وإلى غربها عين تشج فتسقي ما به من النخيل والزرع، وكانت خربة وروى ابن سعد نقلاً عن بعض أهل الحيرة في سبب بنائها :

" أن أكيدر صاحبها واخوته كانوا يتزلون دومة الحيرة، وكانوا يزورون اخوالهم من كلب فيتغربون عندهم، فإنهم لمعهم وقد خرجوا للصيد إذ رفعت لهم مدينة متهدمة لم يبق إلا بعض حيطانها وكانت مبنية بالجندل، فأعادوا بناءها وغرسوا فيها الزيتون وغيره وسموها دومة الجندل تفرقة بينها وبين دومة الحيرة" (٢١).

وقال ياقوت "كان فيها قديماً حصن مارد، وسميت دومة الجندل لأن حصنها مبني بالجندل وقريب منها جبلاطيء وكانت بهذا الحصن بنو كنانة من كلب" .

وكان أكيدر يبعث بمن يتعرض قوافل التجارة الذاهبة بين المدينة والشام ويظلم من يمر بهم من الضافطة (الذين يجلبون الميرة والطعام) ثم قوي شرهم حتى شاع أن في عزمهم الدنو من المدينة وكان ذلك في السنة الخامسة للهجرة، فندب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) الناس، واستخلف على المدينة، وخرج في ألف من المسلمين يسير الليل ويمكن النهار ومعه دليل من بني عذرة حتى بلغوا الجندل، فتفرقوا وألقي الرعب في قلوبهم ، وأخذ من نعمهم وشاقهم ورجع ولم يلق كيداً .

والظاهر أن شَرهم لم ينقطع عن تجار المدينة حتى اضطر الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) أن يرسل إليهم سرية عليها عبد الرحمن بن عوف، وأوصاه حين دفع إليه اللواء بقوله: "خذ (٢٢)، يابن عوف فأغزوا جميعاً في سبيل الله فقاتلوا من كفر بالله ، لا تغلّوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدًا، فهذا عهد الله وسيرة نبيه فيكم . . . " وقال له: "إن استجابوا لك فتزوج بنت ملكهم " .

سار عبد الرحمن حتى بلغ دومة الجندل فدعا أهلها إلى الإسلام فأسلم رئيسهم الأصبغ بن عمرو الكلبي وأسلم معه ناس كثير من قومه وتزويج عبد الرحمن ابنته (تماضر) وبقي على الجزية هو ومن معه .

تزل قبائل العرب في الجاهلية هذه السوق في أول يوم من ربيع الأول للبيع والشراء وكان بيعهم فيها بيع الحصة .

ويجاور هذه السوق من قبائل العرب قبيلتا كلب وجديلة طيء .

وكانت كلب أكثر العرب قنًا فكانوا يفتحون في هذه السوق حوانيت من شعر يجعلون فيها عبيدهم وإماءهم . وكانوا — على عادة بعض العرب يكرهون فيها فتياتهم على البغاء ويأخذون لانفسهم كسب أولئك البغايا من إماءهم .

فلما كان الإسلام وحرّم الله هذه العادة القبيحة بقوله تعالى :

{ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً} (٢٣).

تتره العرب عن هذه التجارة التي كانوا عليها في الجاهلية وتجاوز الله عما كان منهم قبل الإسلام.

يشرف على هذا الموسم أمراء من العرب وكان روءساء السوق غالباً إما من كلب وإما من غسان، أي الحيين غلب خضع له الآخر، وكان مكس هذه السوق لمن يشرف عليها .

ويدور نشاط هذه السوق حتى منتصف ربيع الأول وتغص بمن يؤمها

من اطراف الشام والعراق وسائر الجزيرة . وهي من الأسواق الكبرى للعرب حتى إنهم ليلقون فيها سيرهم نصباً كبيراً لوعورة الطريق والتعرض للأخطار وفقدان الأمن . ولا يحملهم على ذلك كله إلا ما تغريهم به هذه السوق من ربح وفائدة . ثم تفتت هذه السوق بحركتها وتأخذ بالاضمحلال حتى آخر الشهر، إذ يفترق أهلها وموعدهم إليها في القابل من شهر ربيع الأول (٢٤).

خامساً : سوق نطاة خيبر

خيبر قرية شمالي المدينة، بينها وبين تبوك . وهي عدة حصون لليهود وفيها مياه ومزارع . ونطاة اسم حصن بها واسم عين أيضاً، وقيل هي خيبر نفسها. وحول القرية نخيل كثير يسقى بعين فيها والبلدة وبنة معروفة في العرب بمآها.

أهلها يهود استوطنوا الحجاز منذ القديم واشتغلوا بالزراعة والتجارة (٢٥).

ونظراً لوقوع هذه القرية على الطرق التجارية الكبرى بين اليمن والشام أسهم أهلها بتجارة الجزيرة، وكانت إحدى محطات القوافل التجارية في سفرها إلى الشام . ونجح أهلها في متاجرتهم حتى أفادوا منها غنىً واسعاً واستفاضت لهم ثروات طائلة ونشأت فيهم رؤوس الأموال الضخمة . ولا نعبء إذا قلنا: إن خيبر مصرف الجزيرة المالي . ولما فتحتها الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) صالح أهلها على الشطر من الثمر والحب . ويذكر أصحاب السيرة غنائم خيبر وما وجدوا فيها من كنوز، فيذكرون أموالاً جمّة ودنيا عريضة . بني اليهود فيها حصوناً عديدة جعلوا فيها أموالهم ومسيرتهم من طعام وحب وقمر. وهم في الجملة أهل بأس وشكيمة قاوموا كثيراً قبل أن يفتح المسلمون حصونهم، ثم غلبوا على أمرهم فافتتح المسلمون حصن ناعم ثم القموص ثم حصن الصعب ابن معاذ وهو اعظم حصونها غناء وأكثرها طعاماً وودكاً، ثم الوطيح، ثم السلام ثم الشق . وكان في الغنائم ذهب كثير وفضة كثيرة، فجعل الصحابة يتبادلونها

حتى فهِ الرسول (صَلَّى الله عليه وآله وسلم) أَن يبتاع الذهب بالذهب والفضة بالفضة . وبين تلك الحصون حصن الشق وحصن نطاة وحصن الكتيبة . ولكل حصن خازن يخبئ الأموال لأهله ، وكان كنانة بن الربيع عنده كثر بني النضير فلما أسر سئل عنه فانكر فاهتدى الفاتحون إليه فوجدوا أموالاً طائلة .

اتسعت تجارات اليهود في خيبر وغيرها حتى استطاع الرجل الواحد منهم كأبي رافع الخيري أن يسير قوافل تجارية لحسابه إلى الشام . وهم الذين نشروا في الجزيرة التعامل بالربا وأثروا ضخماً . وكلما مرت عير لقريش أو لطيمة من لطائم النعمان قامت لها سوق في خيبر . وقد جعل المرزوقي زمنها بعد زمن سوق ذي المجاز، أي بعد أشهر الحج وقبل أن تبتدئ سوق حجر .

التقييم الاقتصادي لمكة والمدينة :

كان المسلمون يجهزون العير إلى الشام — كما في الجاهلية — فتذهب بأموالهم ومتاعهم فتباع هناك ثم تحمل إلى الحجاز فتأتي المدينة، وكانوا يستقبلونها بالطبل والتصفيق فرحاً بها، فذكر المفسرون أن دحية بن خليفة الكلبي رجع مرة بتجارة زيت وطعام من الشام والنبي (صَلَّى الله عليه وآله وسلم) يخطب يوم الجمعة على منبر مسجد المدينة فاستقبلها الناس كعادتهم بالفرح والطبول والتصفيق، وخشي المصلون أن يسبقوا إلى العير فيفوتهم الريح فتركوا الرسول يخطب وبادروا إليها في البقيع ولم يبق مع الرسول إلا اثنا عشر رجلاً فأَنزل الله تعالى في ذلك :

{وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا} (٢٦).

وفي القرآن الكريم إشارة إلى فاصل تاريخي في حياة مكة التجارية، وذلك حين نزل قول الله تعالى :

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا

يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا، وإن خفتم عيلةً فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء إن الله عليم حكيم} (٢٧).

فلما حرم دخول مكة على المشركين سنة تسع للهجرة خشى الناس الفقر بسبب انقطاع تجارة المشركين عنهم في المواسم ، فوعدهم الله بغنى عن غير طريق التجارة، فكان العوض — على ما ذكر المفسرون — في المغامم والفتوح العاجلة .

وكان لا بد من أن تدخل أحوال العرب التجارية ولاسيما في مكة والمدينة في طور جديد، فاهتم الاسلام بأمر تجارتها وشرع لهم فيها ما يحتاجون إليه، وطفح الحديث الشريف بأحكام البيع والشراء والاحتكار والديون والربا إلى آخره . . . وعني الخلفاء بعد الرسول عناية خاصة بالتجارة بعد أن هدأت مشاغل الفتوح أيام أبي بكر وعمر وعثمان، ولنلاحظ أن الفتوح نفسها لم تكن لتخلوا من الاتجار حتى عمال الخليفة أنفسهم ، وهذا خير ما يفسر لنا حرص القوم على حرفتهم ومن حسن الاتفاق أن الخلفاء الثلاثة الأولين كانوا تجاراً، فأبوا بكر وعثمان كانا بزازين، وعمر تجر في الجاهلية استغنى في غزة، وكان مُبرطشاً (يكتري للناس الإبل والحمير ويأخذ عليه جُعلاً) (٢٨).

أما أمير المؤمنين (عليه السلام) فلم نعرف أنه تجر وقد ظهر الإسلام وهو صبي، ومع هذا فقد كان أمير المؤمنين (عليه السلام) على علم من التجارة واحوالها لانها مهنة قومه، ولما ولي الخلافة لم يكن يجهل خطر التجارة وقيمتها، ومن الطريف حقاً أن ننقل بهذه المناسبة مرسوماً أصدره إلى عامله الأشتر في التجار والصناع، فإنه يدل على احاطته بأسرار التجارة وأخلاق التجار ويعلمنا من جهة ثانية منزلة هذه الطبقة من بين بقية الطبقات وما كان يعلق عليها من مهام، قال:

ثم استوص بالتجار وذوي الصناعات وأوص بهم خيراً، المقيم منهم والمضطرب بماله والمتفرق ببدنه، فإنهم مواد المنافع واسباب المرافق وجلاهما من المبعاد والمطرح، في برك وبحرك وسهلك وجبلك ، وحيث لا يلتئم الناس لمواضعها ولا يجترؤون عليها فانهم سلم لا تخاف بائقته وصلاح لا تُخشى غائلته إلى آخره(٢٩).

ولنا أن نستأنس بشيء آخر له خطره في الدلالة على ما شغلت التجارة من حياة العرب وأفكارهم واهتمامهم، وذلك هو اللغة والأشعار والأمثال، فإنما تكشف لنا إلى حد بعيد ما كان عليه القوم من عادات واحوال: وأول ما نلاحظ في هذا الباب غنى اللغة بالألفاظ التي تتعلق بالسفر، وما إليها من حط وترحال ونزول على الماء، ووصف لدواب السفر وضروب سيرها، ولسنا مبالغين اذا قلنا: إن أكثر القصائد في الجاهلية والإسلام يفتتحها صاحبها بذكر رحلته، وما لاقى فيها هو وراحلته من التعب والشقاء، والضيق والعطش والجوع، عدا ما هناك من ألفاظ كثيرة تتعلق بالبيع والشراء والصفقة الرابحة والخاسرة .

وأما الأمثال التي تتعلق بأمورهم التجارية وأحوالهم فيها فكثيرة وإليك طائفة منها تمثل لنا شيئاً من تجارهم واحوالهم في أسفارهم :

عند الصباح يحمد القوم السرى — لا تدرك الراحة إلا بالتعب — قتل أرضاً عالمها وقتلت أرض جاهلها — أن ترد الماء بماء أكيس — لا يرحل رحلك من ليس معك — إن يدم أظلك(٣٠) فقد نقب — وإن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى . . . إلى آخره(٣١).

هذا مجمل ما أردت أن أعرض له، في بيان اهتمام العرب في التجارة، ولم اقصد فيه إلى شيء من التطويل، وإنما نريد التأكيد على اسواق العرب في مكة والمدينة ولما لها من أهمية بالغة في حياة العرب الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والفكرية والسياسية آنذاك .

الهوامش :

- (١) انظر تفصيل هذا الخبر في تهذيب تاريخ ابن عساكر: ٤١٤ — ٤١٥.
- (٢) بلوغ الأرب ٢: ١٦٣.
- (٣) مجلة المشرق — السنة ٣٥: ٨٤.
- (٤) رسائل الجاحظ: ١٠٢ — بلوغ الأرب ١: ٣٠١ — ٣٠٥.
- (٥) طبقات ابن سعد ١: ٢٣٥.
- (٦) مثير العزم الساكن في فضائل البقاع والأماكن لأبن الجوزي، كراس الخامس عشر.
- (٧) الأغاني ١١: ٣٧.
- (٨) بلوغ الأرب ١: ٣٦٨.
- (٩) من حسن الحظ أن ذهب فتحري موضعها بنفسه باحث عربي فوصفه لنا. وهو السيد خير الدين الزركلي الشاعر في كتابه (ما رأيت وما سمعت) ص ٧٩. قال: "على مرحلتين من مكة الذهاب إلى الطائف في طريق السيل يميل قاصد عكاظ نحو اليمين، قيسير نحو نصف ساعة فأذا هو أمام نهر في باحة واسعة الجوانب يسمونها (القانس — بالكاف المعقودة) وهي موضع سوق عكاظ .
- (١٠) معجم ما استعجم للكبرى : ٦٦٠ — ومرصد الأطلال وياقوت الحموي .
- (١١) ذكره الياقوت .
- (١٢) هناك من نقول : أن لعكاظ غير تلك السوق السنوية التي تجتمع بها القبائل، لها أيضاً سوق أسبوعية تقوم كل يوم أحد للبيع والشراء . . أنظر (مدينة العرب في الجاهلية والإسلام) لرشدي: ٥٩.
- (١٣) الأمالي ٢: ٢٥٦.
- (١٤) كتاب (الخبر): ١٨٢.
- (١٥) لقد جاء في تاج العروس المجنة كثيرة الجن، وفي الصحاح ذات الجن .
- (١٦) اخبار مكة اللازريقي : ١٣١.
- (١٧) أخبار مكة : ١٣٢.
- (١٨) رسائل الجاحظ (جمع السندوبي): ٧٦ بتصرف يسير.
- (١٩) شرح المواهب ١: ٣٠٩ — تهذيب تاريخ ابن عساكر ج ٤: ٤١٥.
- (٢٠) ونقل بالفتح فيها صاحب النهاية، وفي الصحاح أن أصحاب اللغة يضمون وأصحاب الحديث يفتحون .
- (٢١) طبقات ابن سعد: ٦١.

- (٢٢) سيرة ابن هشام ٣ : ٤٤٣ .
- (٢٣) النور : ٣٣ .
- (٢٤) الأزمنة والأمكنة ٢ : ١٦١ .
- (٢٥) اسواق العرب — الأفغاني : ٣٥٦ .
- (٢٦) الجمعة : ١١ .
- (٢٧) التوبة : ٢٨ .
- (٢٨) انظر مادة برطش في (تاج العروس) .
- (٢٩) نهج البلاغة .
- (٣٠) الأطل : ما تحت منسم البعير — والمعنى : أشكو من مثل ما تشكو .
- (٣١) الذي يجد في سيره حتى ينقطع أخيراً عن أصحابه في السفر .

دعوة إبراهيم و إسماعيل عند رفع القواعد من البيت

تأليف: سامي البدري

١— من القرآن الكريم :

- ١ . الإمامة الهاذية بأمر الله بعد إبراهيم .
- ٢ . إمامة إبراهيم في ذرية إسماعيل و إسحاق .
- ٣ . إسحاق والهداة من ذريته نافلة .
- ٤ . إسماعيل والهداة من ذريته هم الأصل .
- ٥ . الامة المسلمة والنبي المبعوث فيها من ذرية إسماعيل .

٢— من التوراة :

- ١ . إثنا عشر رئيساً من ذرية إسماعيل .
- ٢ . هل يخلو النص التوراتي من ذكر محمد (صلّى الله عليه وآله وسلم) .
- ٣ . خطأ اليهود في تفسير النص .
- ٤ . حديث النبي (صلّى الله عليه وآله وسلم) : الأئمة من بعدي إثنا عشر .
- ٥ . نتيجة البحث .

أ — من القرآن :

١ : شروط الإمامة الهادية بأمر الله بعد إبراهيم :

قال تعالى : {ووهبنا له إسحق ويعقوب وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب} ٢٧/٢٩ .

إن أول ذرية إبراهيم هو إسماعيل فقد بُشِّرَ به قبل أن يُبشَّرَ بإسحق ويعقوب كما في قوله تعالى :
{فبشرناه بغلام حليم . فلما بلغ معه السعي قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا
ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين . فلما أسلما وتلَّه للجبين . وناديناه
ان يا ابراهيم . قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين . إنَّ هذا هو البلاء المبين . وفديناه بذبح
عظيم . وتركنا عليه في الآخرين . سلامٌ على إبراهيم . كذلك نجزي المحسنين . إنَّه من عبادنا المؤمنين
وَبَشِّرْنَاهُ بِإِسْحَقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ . وباركنا عليه وعلى إسحق ومن ذريتهما محسنٌ وظالمٌ لنفسه
مبين} ١٠١ — ٣٧/١١٣ .

قوله تعالى : {فبشرناه بغلام حليم} هو إسماعيل .

الحلم : الاناة والعقل وجمعه أحلام وحلوم، والحليم الصبور، وقد وصف

الله تعالى إسماعيل بكونه صابرا بقوله : {وإسماعيل وإدريس وذا الكفل كل من الصابرين} ٢١/٨٥ .
والصبر: الحبس وكل من حبس شيئا فقد صبره، والحبس ضد التخلية، والحبس: الوقف وفي الحديث ذلك حبس في سبيل الله أي موقوف على الغزاة يركبونه في الجهاد والحبس: الحصر(١).
أقول: وقوله تعالى : {وسيدا وحصورا} أي حابسا نفسه على طاعة الله وكذلك قوله تعالى: {فبشرناه بغلام حليم} أي بغلام صبور أي حبس نفسه على طاعة الله .
قوله تعالى: {فلما بلغ معه السعي} أي أدرك معه العمل أي أطاق أن يعينه على عمله(٢) ومن ثمّ عاونه على بناء البيت كما في قوله تعالى : {وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل} ٢٧/١٢٧ .
قوله تعالى : {إن هذا هو البلاء العظيم} البلاء : الاختبار، وابتلاه الله : امتحنه(٣).
قال تعالى :

{وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين} ٢٤/٢ .

قوله : {فأتمهن} أي وفي هن كما في قوله تعالى : {وإبراهيم الذي وفى} ٥٣/٣٧ وفي اللغة وفي: تَمَّ ، وأوفى : أتم(٤).

قوله تعالى : {لا ينال عهدي الظالمين} أي أني لا أعهد لظالم من ذريتك بالإمامة والظالم من ذرية إبراهيم هو الفاسق كما في قوله تعالى : {ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون} ٥٧/٢٦ .

الظالم : من قولهم لزموا الطريق فلم يظلموه أي لم يعدلوا عنه، وقولهم أخذ في طريق فما ظلم يمينا ولا شمالا وعدل عن الطريق مال عنه(٥) فالظالم المنحرف

عن الاستقامة المائل عن العدل والحق .

الفاسق : من الفسق أي العصيان والخروج عن طريق الحق، والعرب تقول قد فسقت الرطبة من قشرها أي خرجت من قشرها وقوله تعالى : {الا إبليس كان من الجنّ ففسق عن أمر ربه} ١٨/٥٠ أي جار ومال عن طاعته(٦).

وفي قبال الظالم والفاسق، المهتد واخسن .

المهتد: المستقيم، قال تعالى : {قل ان هدى الله هو الهدى} ٢/١٢٠ أي أن الصراط الذي دعا إليه هو طريق الحق ويقال هُداة هُدىً وهُدياً وهداية وهُديةً والمهدي من هداه الله إلى الحق، والهدى: الطاعة ويقال ذهب على هِدْيته أي على قصده في الكلام، وخذ في هديتك : أي فيما كنت فيه من الحديث والعمل ولا تعدل عنه، والقصد استقامة الطريق وقوله طريق قاصد أي سهل مستقيم(٧).

وقوله تعالى : {واني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى} ٢٠/٨٢ أي استقام .

المحسن : من الإحسان أي الاستقامة وقوله تعالى : {والذين اتبعوهم بإحسان} ٩/١٠٠ أي باستقامة وسلوك الطريق الذي درج السابقون عليه(٨) وقوله تعالى : {ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن} ٣١/٢٢ أي وهو مستقيم .

إن قوله تعالى : {لا ينال عهدي الظالمين} ليس إشارة إلى كلّ الظالمين الفاسقين في قبال كلّ المحسنين المهتدين سواء كانوا من ذرية إبراهيم أو لم يكونوا وذلك لأن إمامة الهدى والاضطلاع بعبء الرسالة وحفظها ونشرها جعله الله تعالى في ذرية إبراهيم وعقبه كما في قوله تعالى {وجعلها كلمة باقية في عقبه} ٤٣/٢٨ . وقوله تعالى : {وجعل في ذريته النبوة والكتاب} إنّ جعل الكتاب في ذرية إبراهيم يراد به توريثهم علومه ومسؤولية حفظه وبيانه وهذه المسؤولية على نوعين :

الأول: مسؤولية خاصة بأشخاص معينين من قبل الله تعالى وهؤلاء قد يكونون أنبياء وقد لا يكونون، ولكنهم على كل حال لا بد من أن يكونوا مطهرين وهؤلاء لا يكونون إلا من ذرية إبراهيم. الثاني: مسؤولية عامة من دون عهد إلهي خاص للشخص. القائم بحفظ الرسالة وبيانها وهذه لا تختص بذرية إبراهيم.

والإمامة المذكورة في قوله تعالى: {إني جاعلك للناس إماما} هي الإمامة المذكورة في قوله تعالى: {ولقد آتينا موسى الكتاب فلا تكن في مرية من لقائه وجعلناه هدى لبني إسرائيل وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون} ٢٣، ٣٢/٢٤ ولم يكن كل هؤلاء الأئمة الهادين بأمر الله تعالى أنبياء ولكنهم كلهم معيّنون من الله تعالى بأسمائهم أورثهم العلم بكتابه واعلن عن طهارتهم وعصمتهم بواسطة من سبقهم من الأنبياء.

لقد وضع القرآن الكريم أساسا واضحا للإمامة الهادية بأمر الله بعد إبراهيم سواء كانوا أنبياء أو لم يكونوا، وقد تمثل هذا الأساس بكون الامام الهادي بأمر الله لا بدّ من أن يكون إبراهيميا أولا أي من نسل إبراهيم.

ثم لا بدّ فيه من أن يكون متبعاً لملة إبراهيم اتباعاً يجعله مع إبراهيم خطأ واحدا لا اختلاف فيه، وحالة واحدة لا تفاوت فيها، قوامها التسليم التام لأمر الله تعالى: {وان هذه امتكم أمة واحدة} {ذرية بعضها من بعض} وهذا هو الأساس الثاني، وإليه يشير قوله تعالى على لسان إبراهيم {واجبني وبني ان نعبد الأصنام. رب إهن اضللن كثيرا من الناس فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم} ١٤/٣٦/٣٥.

وقوله تعالى: {فمن تبعني فإنه مني} لا يريد منه الإشارة إلى قاعدة عامة تتناول كل اتباع إبراهيم من ذريته وغيرهم وإن كانت هذه القاعدة في نفسها صحيحة، ولكن عموم الاتباع حين يقال إنهم من إبراهيم فالمراد به أنهم منه من جهة الإيمان والولاء المترتب عليه المشار إليه في قوله تعالى: {المؤمنون والمؤمنات بعضهم

أولياء بعض { بل تشير الآية إلى اتباع إبراهيم من ذريته بقريته صدر الآية وهو دعاء إبراهيم لبيه دون عموم اتباعه وليس لعموم بنيه، بل لخصوص ورثة إمامته منهم، فالآية ترسي الشرط الثاني لوارث إمامة إبراهيم وهو كون هذا الوارث متبعاً لإبراهيم اتباعاً يجعل منه مع إبراهيم خطأ رسالياً واحداً فقولته: { فإنه مني } لا يريد النسب إذ كل بنيه منه نسباً . سواء المهتدي منهم أو الضال وإنما يريد جهة التسليم التام لأمر الله تعالى .

وهناك أساس ثالث يشير إليه القرآن الكريم وهو أن يكون هذا الإمام الإبراهيمي الهادي بأمر الله معهوداً إليه من الله تعالى بواسطة إبراهيم سواء كان نبياً أو لم يكن قال تعالى : { ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين . إذ قال له ربه اسلم قال اسلمت لرب العالمين ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوبُ يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون } ١٣٠ — ٢/١٣٢ .

قوله تعالى : { ملة إبراهيم } أي دين إبراهيم وطريقته وسيرته وسنته (٩) .

قوله تعالى : { إلا من سفه نفسه } أي حمل نفسه على السفه .

السَّفَهَ والسَّفَاهَ والسفاهة: خِفةُ الحِلم وقيل نقيض الحلم ويقال سَفِهَ فلانٌ رأيه إذا جهله وكان رأيه مضطرباً لا استقامة له، وهو من قولهم تسفَّهت الرياح أي اضطربت وتسفَّهت الرياح الغصون : حركتها واستخففتها ومنه قول خلف بن إسحق البهراني :

بعثنا النواعج تحت الرحال تسافه اشداقها في اللجم

فإنه أراد أنها تترامي بلغامها يمنة ويسرة (١٠) .

واللغام زبد أفواه الإبل (١١) .

أقول: لما كان السفه نقيض الحلم والحلم كما مر علينا هو الصبر والثبات على الطاعة وحبس النفس عليها يكون السفه المشار إليه في قوله تعالى : { سفه نفسه } معناه الذي حمل نفسه على المعصية كما في قوله تعالى : { وأنه كان يقول

سفيهنّا على الله شططا} ٧٢/٤ وسفيه الجن هو إبليس الذي فسق عن أمر ربه .
فالسفيه من ذرية إبراهيم هو الذي ترك ملة إبراهيم (عليه السلام) وأخذ يميناً وشمالاً واتبع هواه:
{أفرايت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم . . . }
والحليم من ذرية إبراهيم الذي اتبع إبراهيم وصبر عليها ولو كان بذبح النفس كاسماعيل الذي
سلم لإبراهيم في ذبحه .
قوله تعالى : {ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب} . أي ووصى بها إبراهيم بنيه وكذلك وصّى بها
يعقوب بنيه .

الوصية: العهد (١٢) .

{بها} أي بالملة .

{بنيه} هم إسماعيل وإسحق ويعقوب (١٣) وكانوا أنبياء وأئمة كما في قوله تعالى : {ونحنياه
ولوطا إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين . ووهبنا له إسحق ويعقوب نافلة وكلاً جعلنا صالحين
وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا
عابدين} ٧١ — ٧٣/٢١ .

بنو يعقوب الذين كانت إليهم وصية يعقوب هم الأسباط المذكورون في قوله تعالى : {أم تقولون
إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا يهوداً أو نصارى . . . } ٢/١٤٠ وقوله
تعالى : {قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط}
٢/١٣٦ وهم يوسف والأئمة من ولده، وليسوا كل اخوة يوسف .

إن إسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط أوصياء لإبراهيم في حفظ (الملة) والموت على التسليم
لأمر الله في شأنها، وعلى الرغم من شهادة القرآن لهم بأنهم كانوا عابدين لله، فاعلين للخيرات،
يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة، وأنهم أوحى إليهم، سواء مباشرة أو بواسطة الملائكة، على الرغم من
ذلك كان لا بد من العهد الإلهي والوصية بواسطة إبراهيم لجميعهم، ومن بعضهم للبعض الآخر

ليكونوا أئمة بعد إبراهيم، كما هو الحال في إبراهيم نفسه، فقد كان نبيا رسولا ولم يكن إماما حتى عهد الله إليه بالإمامة بعد الابتلاء .

وهكذا تتلخص إمامنا ثلاثة شروط في الإمام الهادي بأمر الله تعالى بعد إبراهيم هي :
أولا: أن يكون من ذرية إبراهيم : {وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب} {وجعلها كلمة باقية في عقبه} .

ثانياً: أن يكون مجتنباً لعبادة الأصنام ومنها عبادة الهوى أي أن يكون متبعاً لملة إبراهيم اتباعاً يجعله مع إبراهيم في حالة واحدة وامتداد واحد يتصف بالإسلام الذي كان لإبراهيم نفسه : {فمن تبعني فإنه مني} وبعبارة أخرى أن يكون محسناً مهتدياً طاهراً .

ثالثاً: الوصية والعهد من الله تعالى لشخصه بواسطة إبراهيم حتى ولو كان ذلك الشخص المصطفى من ذرية إبراهيم نبياً كإسحق ويعقوب .

٢: إمامة إبراهيم في ذرية إسماعيل وإسحق:

قال الله تعالى حاكياً عن إبراهيم (عليه السلام): {الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحق إن ربي لسميع الدعاء} ٣٩/١٤ .

وقال تعالى : {وباركنا عليه وعلى إسحق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين} ١١٣/٣٧ .

والآيتان تفيدان أنَّ عقب إبراهيم من إسماعيل وإسحق .

قوله تعالى : {وباركنا عليه وعلى إسحق} الضمير في كلمة (عليه) يعود إلى إسماعيل .

والبركة على إسماعيل وإسحق هي جعل كل منهما نبياً رسولا إماماً يهدي بأمر الله تعالى .

قوله تعالى : {ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين} تفيد وجود متبع لملة إبراهيم في ذرية كل منهما حابس نفسه عليها، اصطفاه الله واستخلصه لنفسه وجعله إماما يهدي بأمره .

٣: إسحق والهداة من ذريته نافلة:

ولد لاسحق ولدان هما يعقوب وعيسو ولقب بـ (ادوم) وكانا توأما(١٤) واصطفى الله تعالى يعقوب دون أخيه وجعله نبيا وإماما وجعل في ذريته النبوة والكتاب .

قال تعالى : {ونجيناه ولوطا إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين . ووهبنا له إسحق ويعقوب نافلة وكلاً جعلنا صالحين . وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين} ٧١ — ٢١/٧٣ .

قوله تعالى : {ووهبنا له إسحق ويعقوب نافلة} .

النافلة والنفل: ما كان زيادة على الأصل(١٥) وصلاة النافلة في قبال صلاة الفريضة، وكذلك كل عبادة مستحبة من صوم وحج قبال الحج الواجب والصوم الواجب .

ويفهم من قوله تعالى : {وامراته قائمة فضحكت فبشّرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب} ١١/٧١ أن البشرية كانت بهما سوية وعلى هذا فإنهما قد وهبا معا لإبراهيم نافلة أي زيادة على الأصل، وكل الأنبياء وأئمة الهدى من ذرية يعقوب تشملهم صفة النافلة في قبال الأصل .

فما هو الأصل الموهب لإبراهيم (عليه السلام)؟

٤: إسماعيل والهداة من ذريته هم الأصل:

من الثابت قرآنيا وتوراتيا أن الموهوب لإبراهيم أولا هو إسماعيل، ثم الأمة

المسلمة والنبي المبعوث فيها كوعد إلهي {ولمن يُخلف الله وعده} وقد ورد هذا الوعد في القرآن بصيغة الدعاء من إبراهيم وإسماعيل، وفي التوراة بصيغة إجابة الدعاء ، وبذلك يكون الأصل هو إسماعيل والهداة من ذريته أي أن الله تعالى جعل إمامة إبراهيم في إسماعيل، ثم في الأمة المسلمة من ذريته والنبي المبعوث فيهم وذلك بموجب قوله تعالى : {إني جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين} وقوله تعالى حاكيا دعاء إبراهيم وإسماعيل عند رفع القواعد من البيت: { . . . ومن ذريتنا أمة مسلمة لك . . . ربنا وابعث فيهم رسولا منهم . . . } وفرض على الناس الأخذ بذلك والاعتقاد به ولا بد أنها قد ذكرت في الصحف النازلة على إبراهيم شأنها شأن كتب الله في ذكر طرف مهمة من أخبار الأنبياء السابقين والموعود بهم ثم بيّنت من قبل إبراهيم نفسه ونحن نذكر أولا النص القرآني ومن بعده النص التوراتي . كما يلي:

٥: الأمة المسلمة والنبي المبعوث من ذرية إسماعيل:

ذكر القرآن الامة المسلمة، والنبي المبعوث فيها، من ذرية إبراهيم وإسماعيل في ثلاث آيات: جاءت الآية الأولى بشكل دعاء من إبراهيم وإسماعيل، وجاءت الآية الثانية بشكل خطاب مباشرة لهم في عصر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، أما الآية الثالثة فقد جاءت في سياق الحديث عن الحاسدين لهم في عصر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أيضاً .

الآية الأولى :

قال تعالى :

{وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك . . . ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة

ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم { ١٢٧ — ٢/١٢٩ .

قوله تعالى : {وجعلنا مسلمين لك} الإسلام المدعو به هنا هو الاسلام بمعناه اللغوي، أي الانقياد والخضوع التام لا الاصطلاحي . والمعنى وادم علينا حالة الانقياد والخضوع التام لك، وتوفنا عليها كما في دعاء يوسف بعد ان مكن الله تعالى له : {توفني مسلماً وألحقني بالصالحين} ١٢/١٠١ .

قوله تعالى : {ومن ذريتنا أمة مسلمة لك} أي من ذرية إسماعيل / إذ لم يكن إسحق مولوداً ولا مبشراً به كما هو واضح من سياق الآيات (٩٩ — ١١٣) من سورة الصافات (١٦) وذرية إسماعيل هي ذرية إبراهيم والإسلام الذي وصفت به هذه الأمة هو من سنخ الاسلام الذي دعا به كل من إبراهيم وإسماعيل لنفسه، كما هو مقتضى الحال والسياق فهو غير الاسلام (١٧) في قوله تعالى : {قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا . لكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم} ٤٩/١٤ وبغير ذلك لا تكون هذه الذرية المطلوبة قررة عين لإبراهيم ولا تكون منه، إذ فقد دعا إبراهيم بأن يرزق إسماعيل من ذريته أمة مسلمة، كإسلام إسماعيل وإبراهيم على ملّة إبراهيم في البراءة من الشرك ، واجتناب عبادة الأصنام، فهي إذاً مشمولة بدعائه في قوله تعالى :

{وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمناً واجنبي وبني أن نعبد الأصنام . ربّ إني أضللن كثيراً من الناس فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم . ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون} ٣٥ — ١٤/٣٧ .

قوله تعالى : {ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم} ٢/١٢٩ .

أصل الزكاة في اللغة الطهارة والنماء والبركة والمدح، وأيضاً الزكاة صفوة الشيء والزكاء ما أخرجته الله من الثمر وزكاه الله : مدحه، وزكا الرجل نفسه

إذا وصفها وأثنى عليها(١٨).

قوله تعالى : {رسولا منهم} لا يوجد خلاف على أن الرسول المشار إليه في الآية هو خاتم الأنبياء ، وبذلك تكون الآية قرينة، على أن المراد بالأمة المسلمة، التي طلبها إبراهيم وإسماعيل من الله تعالى، هي أمة ذات صلة مباشرة بخاتم الأنبياء، حيث يبعث فيهم لتعليمهم الكتاب والحكمة ولإعلان طهارتهم .

قوله تعالى : {ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم} .

أقول: قدم التعليم على التزكية لكونهم مسلمين طاهرين طهارة الإسلام، التي يتوقف عليها تعليم الكتاب والحكمة، أما في قوله تعالى : {هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين} ٢/٦٢، وقوله تعالى : {لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين} ٣/١٦٤ فإنه قدم التزكية على التعليم لأن هؤلاء الأميين المذكورين في الآية الأولى مُشركون . وكذلك المؤمنون المذكورون في الآية الثانية كانوا من قبل في ضلال مبين وهو الشرك أيضاً، والمشركون نجس ولا تزول نجاستهم إلا بالإسلام الاصطلاحي . قوله تعالى : {في الأميين} نسبة إلى أم القرى وهي مكة .

وقوله تعالى : {رسولا منهم} أي من أهل مكة .

وأهل مكة هم ذرية إسماعيل وهم قسمان :

الأول: الأمة المسلمة التي اجتنبت عبادة الأصنام، ومن هؤلاء آباء النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) الذين أشار إليهم قوله تعالى : {الذي يراك حين تقوم وتقلبك في الساجدين} ٢١٨ — ٢١٩/٢٦ (١٩)

الثاني : ذرية إبراهيم التي سفهت نفسها وانحرفت .

إنّ العلاقة التي ترسمها الآية بين الأمة المسلمة والنبي المبعوث فيها، هي

علاقة تلاوة آيات الله عليهم، أي إنذارهم، ثم تعليمهم الكتاب والحكمة ثم إعلان طهارتهم، ومدحهم والثناء عليهم، وإخراجهم للناس ليكونوا شهداءه وقد أثنى الله تعالى على هذه الأمة بقوله : {كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله . . . } ٣/١١٠ .

الآية الثانية:

قال تعالى :

{يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون . وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلاة واتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير} ٧٧ — ٢٢/٧٨ .

قوله تعالى : {هو اجتباكم} أي هو اصطفاكم كما في قوله تعالى : {وكذلك يجتبيك ربك} أي وكذلك يصطفيك ويختارك . وفي الحديث أنه اجتباه لنفسه أي اختاره واصطفاه وهو مشتق من جبيت الشيء إذا خلصته لنفسك (٢٠) .

قوله تعالى : {وما جعل عليكم في الدين من حرج} أقول: الدين هنا بمعنى الطاعة .

والحرج : قال ابن الأثير: الحرج في الأصل الضيق ويقع على الاثم والحرام (٢١) أي ما جعل في طاعتكم له ضيقا مهما كان أمره، حتى لو أمركم بذبح أنفسكم، أي شرح صدوركم للطاعة التامة، كما في قوله تعالى : {فمن يُرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يُرد أن يضلّه يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون} ٦/١٢٥ .

قوله تعالى : {ملة أبيكم إبراهيم} أي دين أبيكم وطاعته حيث لم يكن منه ضيق وحرج حتى عندما أمرناه بذبح ولده اسماعيل اختباراً، والآية تشير إلى

تسمية هذه الأمة المسلمة والنبي والمبعوث فيها من ذرية إسماعيل — (بني إبراهيم) و (آل إبراهيم) .
قوله تعالى : { هو سماكم المسلمين من قبل } .

ذكر المفسرون في مرجع الضمير (هو) احتمالين : الأول الله تعالى ، الثاني إبراهيم .
وقد رجح أغلبهم الاحتمال الأول ، وذلك لأنهم حملوا المخاطب في قوله : { يا أيها الذين آمنوا }
في صدر الآية على عموم المؤمنين ، سواء كانوا من ذرية إبراهيم أو لم يكونوا ، ومعه اضطروا إلى أن
يقدموا تعليلاً لوصف إبراهيم بأنه (أبّ للمسلمين) أي لكل المسلمين بالمعنى الاصطلاحي للإسلام .
قال العلامة الطباطبائي (ره): وإنما سمي إبراهيم أبا للمسلمين لأنه أول أسلم (٢٢) .

قلت: ويرد على هذا التعليل ، أن نوحاً أمره الله تعالى بالإسلام قبل إبراهيم قال تعالى حاكياً عنه:
{وأمرت أن أكون من المسلمين} ١٠/٧٢ . وأخبر عن إبراهيم أنه من شبيعة نوح كما في قوله: {وإنّ
من شيعته لإبراهيم} ٨٣/الصفات ، أي أن إبراهيم كان من ذرية نوح التي سارت على ملته وطريقته
وهي الإسلام ، وقال عن إبراهيم (عليه السلام) : {ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه} .
إذ قال له ربّه أسلم قال أسلمت لرب العالمين { ١٣٠ — ٢/١٣١ .

ونحن نرجح الاحتمال الثاني ، وهو أن يكون مرجع الضمير إبراهيم فتكون الآية إشارة إلى دعاء
إبراهيم المشار إليه في قوله تعالى : {وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل . . . ربنا واجعلنا
مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك . . . ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك
ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم} . ١٢٧ — ٢/١٢٩ . والإسلام في كلا الموردين هو
الإسلام بمعناه اللغوي دون الاصطلاحي ، ويحمل المخاطب في قوله: {

يا أيها الذين آمنوا { على إرادة خصوص الذين جعلهم الله شهداء على الناس من ذرية إبراهيم بعد خاتم الأنبياء، دون كل المؤمنين به من ذرية إبراهيم، ولا عموم من أسلم بالمعنى الاصطلاحي . قوله تعالى : {وفي هذا} .

قال اغلب المفسرين : المراد به وفي القرآن ، وذلك إنسجاماً مع إرجاعهم الضمير (هو) إلى الله تعالى . وقد تبين لنا أن الصحيح هو رجوع الضمير إلى إبراهيم، وحينئذ لا وجه للمعنى الذي ذكره

ونحن نرى أن المراد بـ (هذا) هنا معنى (ذلك) أي وفي ذلك الدعاء الإبراهيمي الذي سماكم به مسلمين .

قال الفراء : [(هذا) و (ذلك) يصلحان في كل كلام إذا ذكر، ثم اتبعته بأحدهما بالاختبار عنه ألا ترى أنك تقول: قد قدم فلان فيقول السامع: قد بلغنا ذلك، وقد بلغنا هذا الخبر، فصلحت فيه (هذا)؛ لأنه قد قرب من جوابه فصار كالحاضر الذي نشير إليه، وصلحت فيه (ذلك) لانقضائه، والمنقضي كالعائب . وقد قال الله عز وجل : {وعندهم قاصرات الطرف أتراب} ثم قال: {هذا ما توعدون ليوم الحساب} ٥٢ — ٣٨/٥٣ وقال جل ذكره : {وجاءت سكرة الموت بالحق} ثم قال: {ذلك ما كنت منه تحيد} ٥٠/١٩ فلو قيل في مثله من الكلام : في موضع (ذلك) (هذا) أو في موضع (هذا) (ذلك) لكان صواباً] (٢٣).

قلت والنكتة واضحة في عدول القرآن عن استعمال (ذلك) في هذا المورد ومجيئه بـ (هذا) بدلا عنه وهي الإشارة إلى تحقق دعاء إبراهيم . وإذا قوله: {هو سماكم المسلمين من قبل} إشارة إلى دعاء إبراهيم عند رفع القواعد من البيت، لذرية إسماعيل في مكة في المستقبل البعيد جدا، (إذ بين إبراهيم حين دعا وبعثة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ما يقرب من ٢٥٠٠ سنة) وقوله:

{وفي هذا} إشاره إلى تحقق الدعاء وظهور النبي وأول الأمة المسلمة . وقوله: {لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً . . .} {٢/١٤٣} قرينة على إرادة هذا المعنى من الجيء بلفظ (هذا) بدلا من لفظ (ذلك). فقد انتقل الحديث من ذكر دعاء إبراهيم — بأن يرزق الله إسماعيل أمة مسلمة، يبعث فيها نبياً يتلو عليهم آياته — إلى خطاب لهذه الأمة التي أخرجها الله إلى الوجود .
الآية الثالثة :

قال تعالى : {ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم بل الله يزكي من يشاء ولا يظلمون شيئا . أنظر كيف يفترون على الله الكذب وكفى به إثما مبينا . ألم تر إلى الذين أتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً . أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً . أم لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون الناس نقيراً . أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً . فمنهم من آمن به ومنهم من صد عنه وكفى بجهنم سعيراً . إن الذين كفروا بآياتنا سوف نُصليهم ناراً كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزاً حكيماً . والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً لهم فيها أزواج مطهرة وندخلهم ظلاً ظليلاً . إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعاً بصيراً . يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً . ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت

وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلّهم ضلالاً بعيداً . وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدّون عنك صدوداً { ٤٩ — ٤/٦١ } .

قوله تعالى : { يزكون أنفسهم } أي يثنون عليها ويصفونها بالفضل على الناس وهم اليهود والنصارى كما في قوله تعالى : { وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء . . . } { ٥/١٨ } وقريش أيضاً وقد كانت تسمي نفسها (آل الله) و (أهل الله) (٢٤) .

قوله تعالى : { بل الله يزكي من يشاء } بإجراء آياته الخارقة على يديه أو بالثناء عليه وتفضيله مباشرة في كتابه أو بواسطة نبيه .

قوله تعالى : { أم يحسدون الناس } الحسد أن تتمنى زوال نعمة المحسود إليك، وحسده يحسده ويحسده حسداً إذا تمنى أن تتحول إليه نعمته وفضيلته (٢٥) .

قوله تعالى : { آل إبراهيم } هم الأمة المسلمة والنبي المبعوث فيهم .

قوله تعالى : { من فضله } الفضل في الآية هو إيتاء الله تعالى آل إبراهيم الكتاب والحكمة والملك العظيم، أي بعثة الرسول إليهم وتعليمهم الكتاب والحكمة؛ ليؤدوا عنه ويكونوا شهداء على الناس، وفرض ولايتهم وطاعتهم على الناس، أي جعلهم أئمة عليهم .

قوله تعالى : { فمنهم من آمن به ومنهم من صد عنه } أي من الناس المكيين وأهل الكتاب، وغيرهم من آمن بهذا الفضل لآل إبراهيم واتخذهم أئمة هداة، ومنهم من اعرض عنه .

قوله تعالى : { يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم } أولوا الأمر المقرونة طاعتهم بطاعة الله ورسوله، هم أصحاب الملك العظيم، المذكورون في الآية السابقة، وهم آل إبراهيم الشهداء على الناس

بواسطة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) . قال إبراهيم صفنان :

الأول: النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) .

الثاني : شهداؤه على الناس، وهم أولوا الأمر الذين قرنت طاعتهم بطاعة الله تعالى ورسوله .

ب: من التوراة :

١ . اثنا عشر رئيساً من ذرية إسماعيل:

جاء في سفر التكوين ١٧ : ٩ — ١٠ (وقال الله لابراهيم . . . يختن منكم كل ذكر) وفي ١٧ : ٢٣ — ٢٥ (فاخذ إبراهيم إسماعيل ابنه وجميع ولدان بيته وجميع المتباعين بفضته . . . وختن لحم غرلتهم في ذلك اليوم عينه كما كلمه الله وكان إبراهيم ابن تسع وتسعين سنة حين ختن وكان إسماعيل ابنه ابن ثلاث عشرة سنة حين ختن) .

وفي ٢٢ : ١ — ٢ (وحدث بعد هذه الأمور أن الله امتحن إبراهيم فقال: خذ ابنك وحيدك الذي تحبه (إسحق)، واذهب إلى أرض المريا واصعده هناك محرقة على أحد الجبال التي أقول لك) .

وفي ٢٢ : ١٠ — ١٣ . . . ثم مد إبراهيم يده وأخذ السكين لذبح ابنه فناداه ملاك الرب من السماء وقال . . . لا تمد يدك إلى الغلام ولا تفعل شيئاً؛ لاني الان علمت أنك خائف الله فلم تمسك ابنك وحيدك عني، فرفع إبراهيم يمينه ونظر وإذا كبش وراءه ممسكا في الغابة بقرنيه) .

وفي ١٧ : ١ — ٧ (ولما كان ابرام ابن تسع وتسعين سنة ظهر الرب (ملاك الرب) لابرام وقال له: أنا الله القدير سر امامي وكن كاملاً ، فاجعل عهدي، بيني وبينك وبين نسلك من بعدك في أجيالهم، عهداً أبدياً لأكون إلهاً لك ولنسلك من بعدك) .

وفي ١٧ : ١٨ — ٢١ (وقال إبراهيم لله : ليت إسماعيل يعيش أمامك فقال

الله . . . وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه (في نسخة الترجوم) سمعت دعاءك له) ها أنا أباركه وأثمره وأكثره جداً جداً (٢٦) اثني عشر رئيساً يلد واجعله أمة كبيرة ولكن عهدي أقيمة مع إسحق الذي تلده لك سارة في هذا الوقت في السنة الآتية) .

قوله : (وجميع المبتاعين بفضته) أي المبتاعين بسكّته وهم القبائل الذين آمنوا به، ومنهم قبائل جرهم الذين استأذنوا إبراهيم أن يسكنوا بجوار الحرم عندما نبعت زمزم .

قوله : (خذ ابنتك وحيدك الذي تحبه إسحق) ابنه الوحيد هو إسماعيل حيث إن ولادة إسحق تمت في السنة الثانية من حادثة الابتلاء كما ذكر في الاصحاح ١٧ نفسه : الفقرة ٢١ فذكر اسم إسحق هنا بوصفه الذبيح من التحريفات المفصوحة للتوراة وقد تسربت إلى بعض الروايات الإسلامية التي تذكر أن الذبيح إسحق وليس إسماعيل .

قوله : (ارض المريا) المريا هو جبل المروة .

قوله : (سر أمامي وكن كاملاً فاجعل عهدي بيني وبينك وبين نسلك من بعدك) يقابل قوله تعالى : {إني جاعلك للناس إماماً} قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين} ولكن النص التوراتي جعل العهد في كل نسل إبراهيم وفي نص آخر جعله في كل ذرية إسحق وكلاهما تحريف .

قوله : (أنا أباركه وأثمره جداً جداً اثني عشر رئيساً يلد) :

قوله : (جداً جداً) وفي بعض الترجمات (كثيراً جداً) أصله العبري (بماد ماد) وهو تحريف لاسم محمد (صلّى الله عليه وآله وسلّم) وسيأتي الكلام على ذلك .

(الرئيس) : سيد القوم والجمع رؤساء يقال رئيس مثل قيم بمعنى رئيس، ورأس القوم صار رئيسهم ومقدمتهم، ورأس عليهم فضلهم، ورأس كل شيء أعلاه، ورأس النهر والوادي أعلاه، وسحابة مرائس ورائس متقدمة

السحاب، وفي التهذيب سحابة رائسة وهي التي تقدّم السحاب وهي الروائس(٢٧).
وجملة (اثني عشر رئيسا يلد) ترجمة للأصل العبري ولفظه (شليم عسر نسيم يولد) وعبرة (شليم عسر) تعني (اثني عشر).

ولفظه (نسيم) جمع ومفردها (ناسي) وهي بمعنى رئيس دولة . ورئيس الجمع الديني، وقائد، وزعيم، وأيضا تأتي بمعنى سام، عال، محترم، موقر، عظيم، وأصلها من (ناسي) () بمعنى : رفع ومنها (نسي) بمعنى : مرتفع، محترم، موقر.

وفي النسخة الأرامية التي تسمى بـ (ترجوم اونقيلونس) ترجم الأبحار لفظه (نسيم) إلى (ربرين) وهي جمع ومفردها (ربربا) بمعنى رجل عظيم، رئيس، زعيم، من الفعل (ربرب) بمعنى رفع، عظم .

ويرادفها أيضاً (ربان) بمعنى رئيس، معلم الشريعة (ولقب للعالم) وجمعها (ربانيم) (وتلفظ في العربية ربانين) والأصل لكليهما معا هو لفظه (راب) ومعناها واحد في العبرية والأرامية وتعني رئيس، عظيم، كبير(٢٨).

وفي النسخة السريانية الغربية (روربنين) بمعنى أمراء، اشراف، رؤساء، عظماء(٢٩).

وفي النسخة السريانية الشرقية (ميرا) بمعنى أمراء وسادة(٣٠).

وفي الترجوم الفارسي المكتوب بالخط العبري (مهتران) أي رؤساء وقادة(٣١).

وفي النسخة الفارسية الحديثة بالخط العربي (رئيس) ولكنهم لما ترجموا

الفقرة ٢٣: ٦ وفيها وصف إبراهيم بأنه (نسئ) جاءوا بلفظة (سرور) أي رئيس، قائد، زعيم، إمام(٣٢).

وفي النسخ العربية التي نقل عنها علماء المسلمين كالشيخ المفيد (ت ٤١٣) وابن كثير(٣٣) (ت ٧٧٤) (اثني عشر عظيما) و(العظيم) في العربية الذي له حرمة عند الناس يعظم لها و(عظمت القوم) سادتهم وذو شرفهم(٣٤).

وفي النسخة السبعينية المعروفة بـ (السبتوجنتا) (اثني عشرة امة) واللفظ اليوناني (دوديكا اثني) ولفظة اثني جمع ومفردها (اينوس) وتعني بالأغريقية(٣٥):

١. جماعة من الناس تعودوا على الحياة معاً .

٢. حشد من الناس، أو الحيوانات، ثم اكتسب اللفظ بعد هو ميروس معنى الأمة، الناس، وفي

العهد الجديد أراد بـ (الأمم) كل الناس ما عدا اليهود والنصارى .

٣. صنف خاص متميز من الناس أو الرجال (طبقة)، (قبيلة، عمارة) .

أقول: والترجمة تحريف لمعنى النص الأصلي، إذا كان المراد من (الأمة) القبيلة والعمارة حيث أراد المترجمون منه الاحبار والرهبان تفسير الفقرة موضع البحث (٢٠: ١٧) بما ورد في سفر التكوين الاصحاح ٢٥: ١٣ من ذكر أسماء أولاد إسماعيل الاثني عشر وإن كل واحد منهم صار قبيلة قمشيا مع أولاد يعقوب الاثني عشر حيث صار كل واحد منهم عشيرة سميت باسمه .

والذي نحتمله جدا أن لفظة (اينوس) الإغريقية أصلها (ادون) العبرية (٣٦) وتعني : السيد، القيم، المولى، الأمر، الزوج والرب(٣٧)، ولذلك تطلق على الله تعالى وعلى النبي والملك وشيخ القبيلة والزوج والأستاذ .

وفي ضوء ذلك يكون معنى العبارة (اثني عشر اثنوس) أي اثني عشر سيذا، قيما، آمرا، فتكون الترجمة عندئذ صحيحة ودقيقة جدا ومتطابقة مع

الاستعمال القرآني للفظ (امة) بمعنى الإمام، القيم، في قوله تعالى : {إن إبراهيم كان أمةً قانتاً لله . .
{ ١٦/١٢٠ أي كان اماماً، قيماً، رئيساً، قانتاً لله تعالى كما مرّ بحثه في الفصل الأول تحت لفظة
إمام.

وفي النسخ الانجليزية المعاصرة ترجمت عبارة (اثني عشر نسئيم) في بعضها إلى (TWELVE
RULERS) وتعني (اثني عشر حاكماً) ولفظة (رولر) (RULER) اسم فاعل وأصلها (رول) (RULE
) وتعني القانون والدستور، الحكم والسلطة، المسطرة والمقياس، يوجه، يهدي، يحكم، يأمر(٣٨).
وفي بعضها الآخر ترجمت إلى (TWELVE PRINCES) أي (اثني عشر ملكاً، أميراً)(٣٩).

ولنعد إلى اللفظ العبري (ناسي) فإنها قد وردت في التوراة العبرية وصفا لإبراهيم كما في سفر
التكوين ٢٣: ٥ — ٦ قال له بنوحت لما أراد أن يشتري مقبرة منهم لدفن سارة زوجته قالوا له
(اسمعنا يا سيدي أنت رئيس من الله بيننا) في أفضل قبورنا أدفن ميتك واللفظ العبري لما بين القوسين
(شماعينو ادوني نسي ايلوهيم اتا) .

ومن الواضح أن مقام الرئاسة والإمامة لإبراهيم لم يكن له في بداية حياته الرسالية ولا حينما كان
في المنفى، بل كان له في أخريات أيامه، والذي يذكره القرآن الكريم لإبراهيم في أخريات أيامه هو
(إمامة الناس) التي جعلها الله له، إذن الفقرة التوراتية (أنت رئيس من الله بيننا) يقابلها في التعبير
القرآني {إني جاعلك للناس إماماً} .

وفي ضوء ذلك تكون بركة الله لإسماعيل — (اثني عشر رئيساً) يراد بها (اثني عشر رئيساً من الله)
أي (اثني عشر إماماً هادياً بأمر الله) وذلك لأن صاحب الوعد بهم هو الله تعالى وصاحب الطلب من
الله تعالى هو إبراهيم، وإبراهيم لا يرى في ولده قرة عين إلا إذا كان مستحقاً للإمامة الهادية التي تتقوم
بصفة

الاسلام بمعناه اللغوي أي التسليم التام لله تعالى كما لا يرى لاسماعيل قرة عين من ولده إلا إذا كانوا كذلك : {ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما} ٢٥/٧٤ .

فالرئاسة لهؤلاء الاثني عشر من ذرية إسماعيل الموعود بهم هي (رئاسة الهية)، أي بعهد منه تعالى لأشخاصهم كما عهد لإبراهيم وتعبير (العهد) ورد في القرآن في قوله تعالى : {قال إني جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين} وفي التوراة أيضا في قوله (واجعل عهدي بيّني وبينك وبين نسلك من بعدك) ولكن النص القرآني أكثر دقة حيث نصّ على أن عهد الله تعالى بالإمامة لا ينال ظالما من ذرية إبراهيم، بينما التعبير التوراتي لم يورد هذا القيد، وجعل العبارة مطلقة، ولكنه في مورد آخر خصصها بذرية إسحق دون إسماعيل حسدا وبغضا للنبي وآله كما أشار قوله تعالى : {أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً} ٤/٥٤ والملك العظيم هو الإمامة كما في قوله تعالى : {ألم تر إلى الملائكة من بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبيّهم ابعث لنا ملكا نقاتل في سبيل الله . . . وقال لهم نبينهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا . . . ان الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم والله يؤتي ملكه من يشاء . . . } ٢٤٦ — ٢٤٧/٢ .

٢. هل يخلو النص التوراتي من ذكر محمد (صلّى الله عليه وآله وسلّم) حقاً ؟

النص التوراتي موضوع الدراسة يذكر أن الله تعالى بارك إسماعيل وثمره وكثره (جداً جداً) اثني عشر رئيساً (يلد)، إجابةً لدعاء إبراهيم . ولكنه لم يذكر ما هو دعاء إبراهيم، وقد ذكره القرآن الكريم على لسان إبراهيم وإسماعيل {واذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع

العليم . ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويُزكّيهم إنك أنت العزيز الحكيم} وفي ضوء ذلك يكون النص التوراتي محرفا بإسقاط ذكر النبي (صَلَّى الله عليه وآله) منه .

وقد ذكر علماء اليهود الذين أسلموا(٤٠) أن لفظة (جداً جداً) وأصلها العبري (بمادما) تدل على اسم النبي الآتي من إسماعيل بحساب الجمل، وكلمة (محمد) (صَلَّى الله عليه وآله وسلّم) بحساب الجمل عددها (٩٢) وكلمة (بمادما) بحساب الجمل تساوي (٩٢) .

وحساب الجمل هو حساب الاعداد للحروف الهجائية في اللغة العبرانية في هذه الكلمات: (ابجد — هوز — حطي — كلمن — سعفص — قرشت)، والألف بواحد والباء باثنين والجيم بثلاثة والداال بأربعة والهاء بخمسة والواو بستة والزاي بسبعة والحاء بثمانية والطاء بتسعة والياء بعشرة والكاف بعشرين واللام بثلاثين والميم بأربعين والنون بخمسين والسين بستين والعين بسبعين والفاء بثمانين والصاد بتسعين والقاف بمائة والراء بمائتين والشين بثلاثمائة والتاء بأربعمائة والحروف تنتهي عند التاء(٤١).

ونقل علي بن عيسى الأربلي(٤٢) أنه حكى له بعض اليهود أن (بمادما) معناه — (محمد) . أقول وفي العبرية يوجد (ماحماد) و(ماحمود)(٤٣) كصيغتين لاسم الفاعل واسم المفعول للفعل (حمد) ومعناها (المرغوب فيه جدا، المحبوب، الحبيب، . . .)(٤٤).

وفي ضوئه تكون الكلمة الأصلية في النص هي (بماحماد) أو (بماحمود) ولا تحتاج لتحريفها إلى (بمادما) أكثر من إسقاط الجناح الأيسر لحرف الحاء العبري

(Π) ليكون حرف الدال العبري (Γ) .

جای اسکن تصویر

وفي ضوئه أيضاً يكون النص الأصلي هو:

(أما إسماعيل فقد (أجبت دعاءك له) (٤٥) ها أنا أباركه وأثمره وأكثره — (محمد واثني عشر إماما سيولدون له) .

٣. خطأ اليهود في تفسير النص :

فسرّ علماء اليهود (٤٦) وتابعهم علماء النصارى على ذلك / الفقرة ٢٠ : ١٧ بالفقرات ١٢ — ١٦ : ٢٥ وهي سفر التكوين وهي (وهذه هي أسماء بني

ولكن واقع حال القبائل الإسماعيلية قبل بعثة النبي لا يوجد فيه ما يشعر بأنهم كانوا بركة إسماعيل، وهي بركة عظيمة جداً كما ذكرها النصّ (أما إسماعيل فها أنا أباركه وأثمره وأكثره كثيراً جداً اثني عشر رئيساً يولد واجعله أمة كبيرة) ولم يرد هذا الوصف لاسحق، نعم ورد لإبراهيم (عليه السلام) وأكثرك كثيراً جداً) ١٧: ٢ (وأكثرك كثيراً جداً واجعلك أمماً. وملوكاً منك يخرجون) ١٧: ٦ ثم حرفوا النص بقولهم : ان هذا العهد والبركة جعلها الله في إسحق، وكانت بركة إسحق أن جعل الله في ذريته أنبياء وأئمة هدى، فلا بد من أن تكون بركة إسماعيل العظيمة كذلك، مضافاً إلى كونها الأصل المرحوب لإبراهيم وبركة وإسحق ويعقوب نافلة .

رأينا فيما مضى أن نسخ التوراة كلها العبرية والسامرية والأرامية، والسريانية الغربية، والسريانية الشرقية واليونانية، والأرامية الفارسية والفارسية الحديثة، والعربية والانجليزية، ذكرت العدد (اثني عشر رئيساً) في بركة الله لإسماعيل . ولكن القرآن لم يذكر العدد نعم ذكره النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في حديثه الذي روته كتب الحديث لدى السنة والشيعه .

وفي رواية فتح الباري (لا تضرهم عداوة من عاداهم) .

وفي رواية كثر العمال (يكون لهذه الأمة اثنا عشر قيماً لا يضرهم من خذلهم كلهم من قريش) .
وقد اتفقت الروايات على ذكر عبارة (كلهم من قريش) و (قريش) هو لقب لأحد أجداد النبي
(صلى الله عليه وآله وسلم) وهو فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن
مضر بن نزار بن معد بن عدنان من ذرية إسماعيل بن إبراهيم، وقد اتفقت على هذا النسب لفهر كل
كتب الانساب ولم يخالف أحد في ذلك (٥٠).

وقد حار علماء السنة في بيان المقصود من الاثني عشر في الروايات التي رويها وسلموا بها،
فذكروا الخلفاء الأربعة وعدداً من خلفاء بني أمية وعدداً من خلفاء بني العباس (٥١).

أما الإمام علي (عليه السلام) فقد بين أن الائمة من قريش قد غرسوا في (هاشم) وهاشم هو ابن
عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر وهو قريش قال (عليه
السلام) :

(إن الائمة من قريش غرسوا في هذا البطن من هاشم) (٥٢).

وسياقي البحث لاثبات ذلك من القرآن الكريم أيضاً إن شاء الله .

٥ . نتيجة البحث :

والذي نخلص إليه من البحث هو أن قوله تعالى : {واذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل
ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك . . . ربنا
وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز
الحكيم} يقابله في التوراة الفقرة (٢٠) من الاصحاح (١٧) من سفر التكوين وهي بعد تصحيح
النص (أما إسماعيل فقد أجبت دعاءك له ها أنا أباركه وأكثره بـ محمد واثنى عشر إماما، سيولدون
له).

وان هذه الأمة المسلمة من ذرية إسماعيل والنبي المبعوث فيها ومنها قد أورثهم الله إمامة إبراهيم في صلب أبيهم إسماعيل وذلك قبل أن يولد إسحق . يعقوب وييشر بهما وبالأئمة والأنبياء من ذرية يعقوب .

وإن هؤلاء الاثني عشر إماما من ذرية إسماعيل هم من قريش (فهر) ثم من هاشم .
وإنهم يكونون بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كما ثبتت الرواية عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) ان الأئمة من بعده اثنا عشر لا تضرهم عداوة من عاداهم .
وان هؤلاء الاثني عشر شهداءه على الناس يؤدون عنه ما حملهم إياه من علوم الكتاب والسنة بعهد الهي خاص وسيأتي تفصيل ذلك من القرآن الكريم إن شاء الله .

مصادر البحث :

١. القرآن الكريم .
٢. الكتاب المقدس باللغة العربية .
٣. الكتاب المقدس باللغة العبرية .
٤. الترجمة الأرامية لأسفار التوراة المعروفة بترجوم اونقيلوس .
٥. الترجمة اليونانية لأسفار التوراة المعروفة بـ (السبتوجنتا) .
٦. الترجوم الفارسي .
٧. التوراة السامرية، أحمد حجازي، السقا.
٨. الترجمة الفارسية الحديثة للكتاب المقدس .
٩. الكتاب المقدس باللغة السريانية الغربية .
١٠. الكتاب المقدس باللغة السريانية الشرقية .
١١. الكتاب المقدس الترجمة الانجليزية اليهودية .
١٢. الكتاب المقدس الترجمة الانجليزية النصرانية .
١٣. لسان العرب، ابن منظور .
١٤. قاموس قوجمان عبري عربي .
١٥. قاموس جزيينوس عبري انجليزي :

A HBREW AND ENGLISH
LEXICON OF THE OLD
TETSAMENT.

W .

GESENIUS

١٦. معجم جاسترو لألفاظ الترجوم :

HBREW ARAMAIC NEGLISH
DICTIONARY
JASTROW

١٧ . القاموس الآشوري (بابلي واكدي) انجليزي :

THE ASSYRIAN DICTIONARY
VOL . ١١

١٨ . القاموس اليوناني انجليزي :

GREEK DICTIONARY
SIDDELL AND SCOTT'S

١٩ . قاموس السريانية الغربية .

٢٠ . قاموس السريانية الشرقية .

٢١ . معجم اللغة الفارسية .

٢٢ . القاموس الهيروغليفي هيروغليفي انجليزي .

THE EGYPTIAN HIEROGLYPHIC
DICTIONARY . BUDGE

٢٣ . معجم العلامات الآشورية — البابلية :

ASSYRISCH – BABYLINISCHE
ZEICHENLIST , RYKLE BORGER

٢٤ . دروس في اللغة العبرية، ربحي كمال .

٢٥ . المورد قاموس انجليزي عربي .

٢٦ . تاريخ اللغات السامية، أ . ولفنسون .

٢٧ . نبوة محمد في الكتاب المقدس، عبد الأحد داود ترجمة فهمي شتا .

٢٨ . المسائل السروية، الشيخ المفيد .

٢٩ . البداية والنهاية، ابن كثير .

٣٠ . نبوة محمد في الكتاب المقدس، السقا .

٣١ . أنيس الأعلام في نصره الاسلام .

٣٢ . منقول الرضائي .

٣٣. شرح فہج البلاغة، ابن أبي الحديد .
٣٤. الاستيعاب، ابن عبد البر القرطبي .
٣٥. سيرة ابن إسحق تحقيق سهيل زكار .
٣٦. سيرة ابن هشام تحقيق الابياري والسقا .
٣٧. كشف الحق للشيخ رحمة الله الكبير انوي .
٣٨. الميزان في تفسير القرآن .
٣٩. الدر المنثور للسيوطي .
٤٠. صحيح البخاري .
٤١. أعلام الوری بأعلام الهدی للطبرسي .
٤٢. صحيح مسلم .
٤٣. معالم المدرستين للعسكري .
٤٤. معاني القرآن للفراء .

الهوامش اسكن شود

الأهداف الاجتماعية للحج الإبراهيمي

تأليف: عبد الجبار شرارة

إنَّ الحَجَّ الذي جعله الله فريضةً من أعظم الفرائض بقوله تعالى : {وَلله على الناس حِجُّ البيت من استطاع إليه سبيلاً} آل عمران/٩٧ .

وأوجبها في أيام معدودات معلومات . ترمي في حقيقتها وواقعها إلى أهداف كبيرة، تتصل في جانب أساسي منها بالأُمة المسلمة كياناً وقياماً وحضارةً . وإذا كان الجانب العبادي الصِّرف في هذه الفريضة متجلياً في المناسك المعروفة، فإنَّ هذه المناسك التي تُؤدى في الحج تنبئ أيضاً بالجانب الاجتماعي وبالأهداف العظيمة المتوخاة منها . ونستطيع أن نتبين هذه الأهداف ونحددها في ضوء ماورد في شأن الحجّ من الآيات المباركة والروايات المتضاربة، وما حُفَّ به الحجّ، كما في لسان بعض الروايات، من تأكيدات وصلت إلى الحدّ الذي يقول فيه الإمام (عليه السلام) : "لو عطل الناس الحجّ لوجب على الإمام أن يجبرهم على الحج . . ." (١).

ولعل من أهم تلك الأهداف والوظائف التي يمكن أن يؤديها الحجّ بالنسبة إلى المسلمين هي:
أولاً : إدخال الأُمة المسلمة في تجربة التوحيد والوحدة، أي بصورة فعلية وليس من خلال مجرد الدعوة والحثّ على ذلك .

وفلسفة هذا الأمر؛ أنّ الشرك الخفي يمكن أن يتسرب إلى النفوس (٢)، وأنّ دواعي الفرقة والاختلاف متوافرة دائماً، ولذا فلا بدّ من زرق الأفراد بالمضاد الحيوي، ولا بدّ من نفي لتلك الدواعي . ومناسك الحج من أقوى عناصر

الضد والنفي . فالإحرام حيث الكل بلباسٍ واحد، والتلبية حيث الكل بنداءٍ سماوي واحدٍ "لييك اللهم لييك لييك لا شريك لك لييك، إنَّ الحمدَ والنعمةَ لك والملك لا شريك لك . . . " ثم السعي والطواف والأفاضة . كلَّ تلك الشعائر والمناسك، تجعل الجميع في حالة عبودية وإخلاص، فتلغى بصورة عملية فوارق اللون والجنس والمذهب والانتماء والمنصب، فلا خصوصية ولا شأنية ولا إمتياز إذ الكلُّ على صعيدٍ واحدٍ عبيدٌ لله الواحد .

وقد نبّه الإمام علي (عليه السلام) إلى هذا المعنى قائلاً : " ألا ترون أنَّ الله سبحانه اختبر الأولين من لدن آدم (ع) إلى الآخرين من هذا العالم بأحجارٍ لا تضرُّ ولا تنفع، ولا تُبصر ولا تُسمع، فجعلها بيته الحرام "الذي جعله للناس قياماً" . إلى أن قال (عليه السلام) : ثم أمر آدم (ع) وولده أن يشعروا أعطافهم نحوه فصار دُللاً يُهلّلون لله حوله، ويرملون على أقدامهم شعناً غُبراً له قد نبذوا السراويل وراء ظهورهم . . . " (٤).

وقال (عليه السلام) في خطبة أخرى: "وفرضَ عليكم حجَّ بيته الحرام الذي جعله قبلةً للأمم . . . وجعله سبحانه علامةً لتواضعهم لعظمته، واذعانهم لعزته . . . " (٥).

وفي مقطعٍ من خطبة الزهراء (عليها السلام) قالت: "وجعلَ الحجَّ تشبيهاً للدين . . . " (٦). وقال العلامة الطباطبائي في بيانه المنافع الدنيوية والاخرية للحج: "وعمل الحجِّ بماله من المناسك يتضمن أنواع العبادات من التوجه إلى الله وترك لذائد الحياة وشواغل العيش والسعي إليه بتحمل المشاق والطواف حول بيته والصلاة والتضحية والإنفاق والصيام وغير ذلك . . . ثم قال: إن عمل الحجِّ بماله من الأركان والأجزاء يمثل دورة كاملة مما جرى على إبراهيم (عليه السلام) في مسيرة في مراحل التوحيد ونفي الشريك وإخلاص العبودية لله سبحانه" (٧).

ولعل من المناسب أن نذكر أيضاً ما استظهره الشيخ جوادى آملى من أسرار الحج قائلاً : "إنَّ العبادة، أية عبادة كانت يُعتبر فيها الخلوص، قال تعالى : " ألا لله الدين الخالص"، إلا أنَّ تجلي ذلك الخلوص في بعضها أظهر، وطرد الشرك في بعضها أقوى وأجلى، ومن ذلك الحج حيث إنَّ التوحيد قد تمثّل به، وصارَ هو بأسره من البدوِ إلى الختمِ مثلاً للتوحيد وطرداً للشرك . . " (٨).

ثم لا ريب بعد ذلك أن تكون كلمة التوحيد، والإخلاص للحق تعالى يقودهم إلى وحدة الكلمة، ووحدة الموقف، ووحدة الهدف .

ثانياً : التقريب بين المسلمين والتآلف بينهم :

إنَّ الشريعة الإسلامية شريعة واقعية، بمعنى أنها وإن كانت تهدف إلى غايات سامية ومرامي بعيدة، وتضع الوسائل العملية لبلوغها، إلا أنَّها في عين الوقت تنظر إلى الواقع الحياتي بما هو عليه من تعقيد وبما ينطوي عليه من إشكالات، وبما يموج به من حقائق . ولذلك ونظراً لطبيعة الظروف الموضوعية التي تمرُّ بها الأمة . فإنَّ هدف الوحدة وإن كان مطلوباً فعلاً ، إلا أنه تكتنف تحقيقه صعوبات جديدة، وإذا كان موسم الحج (الأيام المعلومة والمعدودة) يمكن أن تخلق شعوراً عالياً بالوحدة والتوحد إلا أنَّ الناس عندما يتحللون من الاحرام، ويعودون إلى أوطانهم تبدأ العوامل الموضوعية تفعل فعلها ومن هنا كان الحجّ ناظراً إلى تحقيق هدف أقرب واقعية، وأيسر منالاً، ثم هو لا يقلُّ أهميةً وخطراً عن هدف الوحدة، وذلك هو هدف (التقريب بين المسلمين) من خلال تحقيق فهم مشترك، وتفهم وإطلاع كلِّ فريق بما عليه الفريق الآخر من أداءٍ لنفس المناسك وقيامٍ بنفس الأعمال، وانكشافٍ لما يدين به الجميع من توحيد الربِّ تعالى، ونفي الشرك عنه، والشهادة للنبي الأكرم محمد بن عبدالله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) بالنبوة والرسالة وتعظيمه وتبجيله، وحينئذٍ سيري كلُّ فريقٍ الفريق الآخر على حقيقته، وسيجد الجميع أنفسهم أنهم يؤدون مناسك واحدة، ويقومون بتلبية واحدة، ويتوجهون إلى قبلة واحدة ويفيضون

إفاضةً واحدة . وسيجد المسلمون أنفسهم أيضاً في صلواتهم وقيامهم وسعيهم وطوافهم أنهم ينطقون بالشهادتين ويهتفون بنداء واحد . وسيكتشف الجميع أنهم أبناء ملة واحدة، وأنهم أمة من دون الناس . وأنّ دماءهم عليهم حرام وأموالهم عليهم حرام وأعراضهم عليهم حرام ، كحرمة يومهم وكتبهم(٩) " كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه " (١٠) كما صرّح بذلك أمين الله على وحيه خاتم المرسلين نبينا محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) .

وعند ذاك سينكشف أمامهم زيف دعاوي الخصوم ودعاة التفرقة، والمروجين للأراجيف التي يطلقها الأعداء ضدّ مذاهبهم ومدارسهم الكلامية أو الفقهية .

وليس هناك أعظم من الحجج مؤتمراً تُعلن فيه الحقائق، وتبين فيه العقائد، وتوضح فيه أسباب التآلف والتقارب .

وقد أشار العلامة الطباطبائي إلى هذا المعنى قائلاً : "إذا اجتمعت أقوام وأمم من مختلف مناطق الأرض وأصقاعها، على ما لهم من اختلاف الأنساب والألوان والسنن والآداب، ثم تعارفوا بينهم وكلمتهم واحدة هي كلمة الحق، وإلههم واحد وهو الله عزّ اسمه ، ووجهتهم واحدة هي الكعبة — البيت الحرام — حملهم اتحاد الأرواح على تقارب الأشباح، ووحدة القول على تشابه الفعل . . ." (١١).

ثالثاً : التبادل التجاري والتعاون الاقتصادي:

لا ريب أنّ التبادل في التجارات مدعاة لنمو الثروات وزيادة الدخل ورفاه المجتمع، وأنّ تبادل الخبرات والتعاون الاقتصادي له أثره الكبير على تقوية الأواصر، والإسهام في سدّ احتياجات الأمة المعاشية، وربما يقود استمرار التبادل التجاري والعاون الاقتصادي إلى تحقيق التكامل الاقتصادي في الأمة والاكتفاء الذاتي، وبذلك يتحقق ما يهدف إليه الشرع الشريف من أن تكون الأمة المسلمة (أمة من دون الناس)، يسود بينها التعااضد والتعاون، وتنفذ على

الأمم وفق عهود والتزامات متقابلة .

ولقد وردت في كتب التفسير وفي الروايات ما ينبىء بكون الحج يؤدي مثل هذه الوظيفة المهمة، ويحقق تلك الأهداف الكبيرة .

فقد ذكر الزمخشري في الكشف لمناسبة تفسير قوله تعالى : {وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ . . } الحج ٢٧ — ٢٨ .

قال: نكّر المنافع — أي في الآية — لأنه أراد منافع مختصة بهذه العبادة، دينية ودينية لا توجد في غيرها من العبادات . . . " (١٢) . وإليه ذهب أبو السعود (١٣) . ونقل ابن كثير رواية عن ابن عباس فسرّ فيها منافع الدنيا بما يصيبون من التجارات (١٤) ونقل الطبرسي (١٥) عن ابن عباس وسعيد بن جبیر أنّ المنافع في الآية التجارات . وأورد هذا المعنى الرازي في تفسيره قال في المسألة الأولى : " أنه تعالى لما أمر بالحج في قوله: {وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ} ذكر . حكمة ذلك الأمر في قوله تعالى : {لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ} قال: واختلفوا فيها فبعضهم حملها على منافع الدنيا، وهي أن يتّجروا في أيام الحج . . . " (١٦) .

وأوضح منهم ما صرح به العلامة الطباطبائي في الميزان قائلاً : "وقد اطلقت المنافع ولم تقتيد بالدينية أو الاخرية، والمنافع نوعان : منافع دنيوية، وهي التي تتقدم بها حياة الإنسان الاجتماعية ويصفو بها العيش، وترفع بها الحوائج المتنوعة وتكمل بها النواقص المختلفة من أنواع التجارة والسياسة والولاية والتدبير وأقسام الرسوم والآداب والسنن والعادات ومختلف التعاونات والتعاضدات الاجتماعية وغيرها " (١٧) .

وقد جاءت بعض الروايات عن أئمة اهل البيت (عليهم السلام) ولسانها يصرّح بذلك . فعن هشام بن الحكم قال: "سألت أبا عبد الله (عليه السلام) فقلت له: ما العلة التي من أجلها كلّف الله العباد الحجّ والطواف بالبيت؟ فقال: إنّ الله خلق الخلق . . . إلى أن قال: وأمرهم بما يكون من أمر الطاعة

في الدين ومصلحتهم من أمر دنياهم، فجعل فيه الاجتماع من الشرق والغرب ليتعارفوا وليتزع كل قوم من التجارات من بلدٍ إلى بلدٍ . . . " (١٨).

ونقل في الوسائل عن العلل وعيون الأخبار بأسانيد عن الفضل بن شاذان، عن الرضا (عليه السلام)، في حديث طويل قال: "إنما أمروا بالحج لعله الوفادة إلى الله عز وجل وطلب الزيادة والخروج من كل ما اقترب العبد تائباً مما مضى، مستأنفاً لما يستقبل مع ما فيه من إخراج الأموال وتعب الأبدان والاشتغال عن الأهل والولد، وحظر النفس عن اللذات، شاخصاً في الحر والبرد، ثابتاً على ذلك دائماً، مع الخضوع والاستكانة والتذلل . ثم قال (عليه السلام) : مع ما في ذلك لجميع الخلق من المنافع لجميع من في شرق الأرض وغربها، ومن في البر والبحر، ممن يحج، من بين تاجرٍ وجالبٍ وبائعٍ ومشتري . . . " (١٩).

رابعاً : جعل حركة الفرد المسلم لا تنفصل عن الأمة :

إنَّ الفرد المسلم في الحج يشعر شعوراً قوياً، ويدرك إدراكاً واضحاً أنه (فردٌ في أمة)، عليه أن يتصرف ويتخذ المواقف انطلاقاً من هذه الصفة .

وإذا كان الاسلام قد ربَّى الفرد المسلم على مثل هذا الشعور كما هو الأمر في صلاة الجماعة، أو في الجمعة أو في العيدين ، وغيرها من العبادات ذات الصفة الجماعية، فلأنه ربما لا يتأتى له مثل هذا الأمر بلحاظ أنَّ بعض هذه العبادات ليست إلزامية، وبالتالي فهو يستطيع التحلل منها . ولكنَّ الأمر في الحج مختلف تماماً فهو يجب أن يؤدي المناسك ضمن (الأمة) كفردٍ فيها يتحرك بحركتها، ويقف المواقف معها، ويشهد المشاعر معها، يطوف بطوافها، ويسعى معها، ويفيض معها وينحر معها، ويفعل كل أفعال الحج مع الأمة مجتمعةً .

وبذلك سيدرك الفرد المسلم أنه لا كيانَ له إلا بكيان الأمة ولا هوية لا

إلا هوية الأمة المسلمة، وأنّ المسلمين ذمتهم واحدة يسعى بها أدناهم .

ومن هنا أيضاً يتحرك المسلمون — بعد وعي تلك الحقيقة — ليعلنوا الموقف الموحد إزاء الشرك والكفر (٢٠) وهذا ما كان يهدف إليه الحج الأكبر كما نطق به الآية المباركة : {وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ . . . } {التوبة/٣}.

وفي روايةٍ عن الامام (عليه السلام) قال: "عليكم بحج البيت فأدمنوه، فإنّ في إدما نكم الحج دفع مكاره الدنيا عنكم وأهوال يوم القيامة" (٢١).

ولعل من المناسب أخيراً أن نذكر فذلكّة في المقام تقوي ما استظهرناه وبيناه من أهداف الحجّ ووظائفه، بعد أن استندنا في ذلك إلى ظاهر الآيات والروايات وما ذهب إليه العلماء والمفسرون العظام، فنقول:

١— لقد فرض — الله تعالى — الحج في أيام معدودات معلومات، وفيها يلزم أن يكون جميع الحجاج حاضري المسجد الحرام، بدءاً من عرفة بلحاظ أن (الحج عرفة) كما ورد، إلى أيام التشريق وهي يوم الأضحى، عاشر ذي الحجة وثلاثة أيام بعده كما ورد عن أهل البيت (عليهم السلام) (٢٢) وهذا ينبى بأن هذه الفريضة المباركة تؤدى مناسكها بحضور الجميع . ولو كانت هذه الفريضة ليس فيها غايات اجتماعية عظيمة لترك تأديتها إلى كلّ فردٍ في أي وقتٍ يشاء . ولكن لما كان الأمر في (الأيام المعلومة) (٢٣) فلذلك ليكون الحضور عاماً، ويشهدوا المنافع المطلوبة .

٢— أنّ المناسك جميعاً يجب أن تؤدى بطريقة واحدة، وبأسلوب واحد وبأوقات واحدة، وهي كلها تصبّ في هدف صهر الفرد واخضاعه لحركة الاجتماع البشري المتوجه إلى الله تعالى، طوافاً وسعيّاً، وهتافاً (التبىة)، وحركة ومواقف في المشاعر الحرام وهي بهذه المثابة والصورة تتحقق بها المرامي والغايات المقصودة .

عن محمد بن يعقوب عن علي بن إبراهيم عن أبيه عن ابن أبي عمير عن عمر بن أذينة قال: كتبت إلى أبي عبد الله (عليه السلام) بمسائل بعضها مع ابن بكير وبعضها مع أبي العباس فجاء الجواب بإملائه: سألت عن قول الله عز وجل: {ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً . . .} آل عمران/٩٧. يعني: به الحج والعمرة جميعاً لأنهما مفروضان . . . ، وسألته عن قول الله عز وجل: {وأتموا الحج والعمرة لله} البقرة/١٩٦، قال يعني بتمامهما أداءهما، وإتقاء ما يتقي الحرم فيهما، وسألته عن قوله تعالى: {الحج الأكبر} التوبة/٣ ما يعني بالحج الأكبر؟ قال: الحج الأكبر الوقوف بعرفة ورمي الجمار، والحج الأصغر العمرة (٢٤).

وجاء في الوسائل باب أنه يجب الحج على الناس في كل عام وجوباً كفائياً: أورد محمد بن يعقوب أيضاً رواية ينتهي سندها إلى الامام موسى بن جعفر (عليه السلام) أنه قال: "إن الله عز وجل فرض الحج على أهل الجدة في كل عام . . ." (٢٥).

وقد وردت عدة روايات في الوسائل، تحت باب عدم جواز تعطيل الكعبة عن الحج وفي وجوب إجبار الناس عليه (٢٦) ومن ذلك يظهر أن الحج فريضة مستمرة دائمة تهدف إلى تلك الأهداف العظيمة وتحقيق المنافع الدنيوية والأخروية جميعاً .

اللهم ارزقنا حج بيتك الحرام في عامنا هذا وفي كل عام .

والحمد لله رب العالمين

المصادر والهوامش :

- (١) الوسائل ١١: ٢٤ الفقيه احدث الشيخ محمد بن الحسن الحرّ العاملي ت ١١٠٤ هـ تحقيق مؤسسة آل البيت عليهم السلام / قم المشرفة / ١٤١١ هـ .
- (٢) إشارة إلى قوله تعالى : {وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون .} يوسف: ١٠٦ وراجع التنبيه على هذا المعنى، خمس رسائل / الشيخ عبدالله جوادي آملّي / وجيزة في أسرار الحج : ١٢٩ .
- (٣) راجع في التلبية بهذه الصيغة ؛ الوسائل ١٢: ٣٨٢ / الباب ٤٠ .
- وراجع التجريد الصريح، مختصر صحيح البخاري / الزبيدي ١: ١٨٠، الحديث رقم ٧٨٥ .
- (٤) نهج البلاغة / ضبط الدكتور صبحي الصالح : ٢٩٣، الخطبة رقم ١٩٢ .
- (٥) نفس المصدر : ٤٥ الخطبة (١) .
- (٦) راجع كتاب بلاغات النساء لأحمد بن طيفور: ٢٨ نشر انتشارات الشريف الرضي / قم .
- (٧) الميزان / العلامة الطباطبائي ١٤: ٣٧٠، منشورات حوزة علمية / قم .
- (٨) وجيزة في أسرار الحج، ضمن خمس رسائل: ١٥٦ — ١٥٧، منشورات حوزة علمية / قم .
- (٩) إشارة إلى ما ورد عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في حجة الوداع الشهيرة، راجع نيل الأوطار / الشوكاني ٥: ٣٥٥، وعقب على قوله (صلى الله عليه وآله وسلم) : " ألا إنّ دماءكم وأموالكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا " قال: مجمع عليه . وراجع مستدرک الوسائل / النوري ٣: ١٤٩ .
- (١٠) سنن البيهقي ٦: ٩٢، ووفي مجمع الزوائد / الهيثمي ٤: ١٧٢ .
- (١١) الميزان ١٤: ٣٦٩ .
- (١٢) الكشف / جار الله الزمخشري ٣: ١٥٢ — ١٥٣، طبعة دار الكتاب العربي .
- (١٣) تفسير أبي السعود ٦: ١٠٤، نشر دار أحياء التراث العربي .
- (١٤) تفسير ابن كثير ٣: ٢١٦ / نشر المكتبة التجارية بمصر .
- (١٥) مجمع البيان / الطبرسي ١٤: ٨١ نشر المكتبة العلمية — طهران .
- (١٦) مفاتيح الغيب / الفخر الرازي ١٢: ٢٦، طبعة دار الكتب العلمية / بيروت ١٤١١ هـ .
- (١٧) الميزان / السابق .
- (١٨) الوسائل ١١: ١٤، كتاب الحج [١٢٤ ١٤] ١٨ .
- (١٩) الوسائل ١١: ١٢ — ١٣، الحديث رقم [١٤١٢١] ١٥ .

- (٢٠) وجيزة في أسرار الحج / الشيخ جوادي آملي ١٧٣ - ١٧٤، ضمن خمس رسائل .
- (٢١) ميزان الحكمة / الري شهري / نقله عن البحار ٧٤ : ١٦٧ .
- (٢٢) الميزان / الطباطبائي ١٤ : ٣٧١ .
- (٢٣) اختلف المفسرون في الأيام المعلومة على أقوال، ولكنها لا تخرج عمّا ذكره صاحب الميزان في

- الراجح منها، راجع: التفسير الكبير / الرازي ١٢ : ٢٦ طبعة دار الكتب العلمية، بيروت . وراجع
تفسير ابن كثير ٣ : ٢١٦ . وراجع الكشف / الزمخشري ٣ : ١٥٢ — ١٥٣ .
- (٢٤) وسائل الشيعة ١١ : ٧ — ٨ .
- (٢٥) نفس المصدر ١١ : ١٦ .
- (٢٦) نفس المصدر ١١ : ٢٠ .

دور الحجّ في ترسيخ السّلام في العلاقات الاجتماعيّة

تأليف: محمّد مهدي الآصفي

{أو لم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً}(١)

من مهام الحج تحقيق السّلام في العلاقات الاجتماعيّة، وتوفير فرصة نموذجية للسّلام في العلاقات فيما بين الناس، في فترة الإحرام في الحج، وتوفير رقعة نموذجية من الأرض ؛ لتمكين السّلام في العلاقات الاجتماعيّة هي رقعة الحرم .

ولكي نعرف موقع السّلام في هذه الرحلة، لا بد من أن نستعرض المراحل الأساسيّة فيها بإيجاز شديد، بالقدر الذي نستطيع أن نتعرف فيه على مواقع السّلام في هذه الرحلة الإلهيّة .
الحج رحلة الأنا والذات إلى الله على الطريقتين الإبراهيميّة أو اختزال هذه الرحلة الشاقّة التي قطعها من قبل أبونا إبراهيم (عليه السّلام)، على الطريقتين الرّمزيّة التي تعتمدهما فريضة الحج بصورة واضحة .

هذه الرحلة تبدأ مهمتها من الميقات، وتنتهي بطواف النساء وطواف الوداع والآن نشير بإجمال إلى الأشواط الرئيّسة التي يقطعها الحاج في هذه المرحلة من الأنا إلى الله تعالى .

١- التحرر من الأنا:

تبدأ هذه الرحلة في الميقات بتجاوز الذات والأنا، ومحاولة صهر الذات والأنا في المسيرة الإيمانية إلى الله تعالى ، وهذه هي المرحلة الأولى في هذه الرحلة الإلهية .

وتصبّ هذه الذوات — بعد انسلاخها عن الأنا، ومختصات هذا الأنا — في الحشد البشري الكبير، في الطواف حول البيت، كما تصب السواقي والأفهر الصغيرة في البحر الكبير، فلا تستطيع أن تميز — بعد ذلك — أين هي مياه هذه السواقي من البحر الكبير، وهي رحلة شاقة وذات معاني كبيرة في حياة الإنسان، تستحق منا الكثير من التأمل والتفكير.

تبدأ هذه الرحلة من الميقات، حيث يتجرّد الإنسان فيه من ذاته وأهوائه، وخصائصه التي تفرزه عن الآخرين وتفردّه . . وتحجزه عن الانصهار في المسيرة الإلهية الحاشدة، التي لا يتمايز فيها الأفراد، ولا يحجز بعضهم عن البعض شيء من هذه النوازع ، والفوارز التي تفصل الناس بعضهم عن بعض .

إنّ الميقات حدّ فاصل، بين الأنا وبين الجماعة المؤمنة . فقبل أن يدخل الحاج الميقات يعيش كما يعيش سائر الناس الأنا تمييزاً وتشخيصاً . وللأنا تظاهر وبروز في حياتهم ، وللأنا سماته معاملة الواضحة . فإذا دخل الميقات تضاعف الأنا وخف صراخه وصوته وفقد معاملة ومميزاته، وفقد لونه وصبغته الصارخة ، وهذا الانقلاب في الشخصية والموقع يتمّ في الميقات . ويرمز إلى هذا الانقلاب (لباس الإحرام) .

وقد قلنا: إن الحج يعبر عن المعاني والمفاهيم التي تنطوي عليها بلغة الرمز. فعند الميقات يتجرد الحاج عن كل ملابسه وما تحمله من سمات شخصية وطبقية وقومية وإقليمية . إن لباس الإنسان يحمل هويته ويحمل الإشارة إلى

شخصية الانسان وانتمائه القومي والاقليمي والعقدي وطبقته مهنته ودرجته في الشراء والفقير والمستوى الاجتماعي . فإذا بلغ الميقات تجرد عن ملابسه، ولبس ثياب الإحرام إزاراً ورداءً وكانا قطعيتين من القماش، لم يستعمل فيهما الخيط، كالأخرين على نحو سواء في غير بديح ولا شرف ولا تمييز، وخلع عن نفسه ملابسه التي كانت تحمل هويته وتعبر عن شخصيته . إن هذه الخطوة الأولى في الميقات تعبر عن انسلاخ الانسان عن هويته وشخصيته وأنانيته وتعبر أيضاً عن العبور على الذات وتجاوز الأنا. وكما مجرد الميت عن ملابسه، لأن دور الأنا في حياته قد انتهى، ولم يعد للأنا حجم ولا دور ولا شكل في المرحلة الجديدة من حياته، كذلك الميقات مرحلة أخرى من الحيات ضمن هذه الحياة الدنيا، يتجرد فيها الحاج عن هويته وأنانيته، وينسلخ عن ذاته ليدخل الميقات، وكان الميقات مصفاة، وأول شيء تأخذه هذه المرحلة من الإنسان هو ذاته، فإذا تجرد عن الأنا وانسلخ عن ذاته حق له أن يتجاوز الميقات إلى الحج، وما لم يتخلص الإنسان عن ذاته فلا يحق له أن يتجاوز الميقات إلى لقاء الله . فإذا خلص في هذه المصفاة من ذاته اجتاز الميقات وتوجه إلى الحج .

وإن أكثر ما يثير المتاعب في حياة الناس ويعكّر العلاقة فيما بينهم هو التصادم الذي يحدث بين الذوات والأنانيات، وعندما تذوب الذات عند الانسان وتنصهر، ويخلص الانسان من طغيان الأنا، ينتهي شطر كبير من مشاكل الإنسان، ولقاءاته السبيلة مع الآخرين، وما يستتبعه من صدام وتردي العلاقة، وحالة الأثرة والأنانية، وحب الذات، فإذا خلصت حياته من الذاتية والأنانية تمكن أن يسلم من هذه المشاكل والمتاعب التي تعجّ بها حياة الناس في المجتمع، واستطاع أن يضع حياته وعلاقاته الاجتماعية على أسس سليمة وأن يحكم السلام في علاقاته مع الآخرين .

التجمل والترف:

وفي الميقات يختص الإنسان مع خصلة أخرى من خصال الأنا، وهي خصلة ممدوحة لو كانت في الحدود المعقولة، التي لا تستأثر باهتمام الانسان كله ولا تملك إرادته ولا تحكمها، فإذا تحولت هذه الخصلة إلى خصلة حاکمة على إرادته كانت صفة ذميمة من صفات الإنسان ، وتلك هي خصلة التجمل، فهي خصلة ممدوحة في الحدود التي تظهر على الانسان نعم الله تعالى وفضله، فإذا تحولت إلى خاصية من خواص الذات، مهمتها إبراز الذات وإظهارها، لا إبراز نعم الله تعالى وفضله، تحولت إلى صفة ذميمة من صفات الذات، وسلبته القدرة على تحمل الشظف والسير على طريق ذات الشوكة .

وفي الميقات يدخل الأنا في هذه التصفية الإلهية، ويلزم الإحرام التخلي — في فترة الإحرام — عن هذه الخصلة، ويحرم عليه الطيب والتجمل، حتى بالنسبة للنساء، فيما يتجاوز الحد المألوف للمرأة في التجمل، وذلك لتمكين الإنسان من هذه الخصلة التي تشكل حالة تظاهر للأنا، وحالة ترف تؤثر تأثيراً سلبياً على إرادة الإنسان، وقدرته في مواجهة متاعب الطريق، إذا لم يعمل على تعديل وتهذيب هذه الخصلة، وإرجاعها إلى نصابها الممدوح، الذي يقره الإسلام ويأمر به .

سلطان الهوى والشهوات:

وفي الميقات يمر الأنا بتصفية ثالثة، وهي تخليص الإنسان من سلطان الهوى والشهوات والغرائز، وهي مسألة في غاية الدقة في الإسلام فقد قلنا إنَّ تخليص الإنسان من سلطان الهوى والشهوات، ولم نقل من الهوى والشهوات ذلك لأن الإسلام لا يكافح الأهواء والشهوات في نفس الإنسان، وإنما يعتبرها

ضرورة من ضرورات الحياة ومن دونها تختل الحياة، وإنما الذي يكافحه الإسلام هو سلطان الهوى، والشهوات على الإنسان وإرادته، وليست الأهواء والشهوات في حدّ ذاتها مصدراً للانحراف والسقوط في حياة الانسان، وإنما الانحراف والسقوط يأتي من ناحية سلطان الهوى على إرادته، فإذا تمكنت الأهواء منه، وتحكمت الشهوات عليه وخضع واستسلم لها، عند ذلك فقط يتمكن الشيطان منه، ويتعرض الانسان للسقوط والانحراف . ولذلك فإن النهج الإسلامي في التربية يعمل على ترويض الأهواء والشهوات وتطويعها لإرادة الإنسان، وتمكين الإرادة منها، دون أن يكافحها ويجارها ويستأصلها ويصادرها .

والصوم نموذج واضح لهذا المنهج التربوي. والميقات هو الآخر يقع في هذا الخط التربوي. ففي الميقات يتعرض الانسان لتصفية واسعة في (الأنا) و(الهوى)، ويمتص الميقات من نفس الانسان سلطان هاتين الحصلتين ، ويسمح له بالدخول في رحاب ضيافة الله — تعالى — بعد أن يجرده من هذه التزعة الحيوانية التي تطفئ على تصرفاته وتحكم إرادته وفعله .

والهوى عندما يحكم الإنسان يتحول إلى مصدر للشرّ في علاقاته وحياته الاجتماعية، ويسلب الأمن والسلام في حياة الناس، فليس ما بين الناس من خلاف وصراع وصدام مصدره الاختلاف في الرأي غالباً وإنما يعود السبب في نسبة كبيرة وواسعة في هذه الخلافات إلى عامل الهوى في العلاقات الاجتماعية وللإمام الخميني (قدس سره) كلمة ذات دلالة عميقة فيما يقول قدس سره: (لو أن مئة وأربعة وعشرين ألف نبيّ عاشوا في مكان واحد لما اختلفوا فيما بينهم، لأنه لا سلطان للهوى في نفوسهم) .

فالميقات نقطة تحول وانقلاب في حياة الإنسان، وأهم ما في هذا الانقلاب هو إضعاف الأنا والذات، وخصال وخصائص في حياة الإنسان . فإذا تجرد عن ذلك كان موءهلاً للدخول في رحاب ضيافة الله في الحج .

ومن عجب أن المذاهب الفكرية المادية تؤكد عكس ذلك تعزيز الأنا وتثبيت واعتماد عنصر الاعتداد بالنفس، وتنمية حالة الغرور والعجب . بخلاف الإسلام الذي يبني منهجه التربوي على أصل مكافحة الأنا وإضعافها وتحجيمها، وتحويل الإنسان من محور الأنا، إلى محور حاكمية الله تعالى وسلطانه في حياته، ويدعو الإنسان إلى التحلل من هذا المحور والارتباط بالمحور الرباني والانصهار فيه {قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين}(٢).

٢- الانصهار في الجماعة:

فإذا تجرد الإنسان عن الأنا وانسلخ عن ذاته وجد نفسه فجأة في وسط حشد بشري كبير، لا يمتاز بعضهم عن بعض، ولا يكاد يفرق بينهم شيء، يتحرك ضمن موج بشري كبير هادر، ينطلق من الميقات إلى الكعبة، كما تصب الأنهر في البحر من كل ميقات من هذه المواقيت المعروفة، التي وقَّتها رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، تجري أنهر كثيرة من الناس تصب في الحرم حول الكعبة، فتجتمع هذه الأنهر حول البيت الذي رفع قواعده إبراهيم ومعه ابنه اسماعيل (عليهما السلام) وفي هذا التيار البشري العظيم يتضاءل عنده الإحساس بالأنا، حتى لا تكاد تشعر به حواسه ومشاعره، فلا ترى في المطاف أفراداً يتحركون، وإنما ترى كتلة بشرية واحدة من الناس تطوف حول البيت العتيق . ولو أن الحاج الذي تجرد في الميقات عن الأنا، لم يكن يصب في المطاف في الجماعة المؤمنة، لكان يضيع ويفقد مقومات وجوده وشخصيته، ولكنه لا يكاد يتجرد عن الأنا ومعالمه وحدوده حتى يصب في الجماعة الكبيرة، كما تصب قطرات الماء في النهر الكبير، ويعود في المطاف إلى لون جديد من الحياة، وإلى حياة جديدة لم يألُفها من قبل بهذه القوة والفاعلية، ولم يندوقها بهذه الصورة تموت فيه الأنا، ويبعث الله في نفسه الإحساس بالجماعة، وينتقل إلى طور

جديد من الحياة أهم خصائصه غياب الفردية، وحضور الجماعة ؛ ويتكسر هذا الإحساس لدى الانسان في المطاف وفي السعي، وفي الموقف في عرفات، وفي الافاضة إلى المزدلفة، وفي المزدلفة، وفي منى، وفي العودة إلى الطواف والسعي يتضاءل لدى الانسان المسلم الإحساس بالأنا، ويتأكد لديه الاحساس بالجماعة المسلمة، وبأنه عضو من جسم واحد، وليس فرداً من مجموعة انسانية، وبأن هذه الأمة كيان واحد ومصير واحد وما يصيبها من خير وشر يصيب الجميع، وبأنه وحده لا يستطيع أن يتحرك إلى الله على خطى إبراهيم (عليه السلام)، إلا أن يذوب في هذا الحشد البشري الكبير المتجه إلى الله .

إن الناس قبل أن يتجاوزوا الميقات إلى الحرم مجموعة من الأفراد، يتمايزون فيما بينهم، ويتزايدون، ويتفاخرون، ويتجادلون، ويضر بعضهم بعضاً، ويعتدي بعضهم على بعض، وتجمعهم الجماع من المدن والضواحي والقرى فتتجمع في هذه الجماع الترعات المتضاربة والأهواء المتخالفة والرغبات المتضادة، فتكون الجامع البشرية ساحة للصراع والخلاف . أمّا عندما يتجاوزون الميقات إلى الحرم، ويصبون — من خلال قنوات المواقيت التي وقّتها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم — إلى الحرم، فإنهم يتحولون إلى أمة واحدة، ويتحركون باتجاه واحد ويلبّون دعوة واحدة ويلبسون زيّاً واحداً، ويطوفون حول كعبة واحدة، ويسعون في مسار واحد ويوءدون مناسك واحدة، لا يختلفون ولا يتجادلون، ولا يتفاخرون، ولا يتضاربون، ولا يؤذي بعضهم بعضاً، وكأنّ الحرم يصهرهم في بوتقة واحدة، ويجعل منهم كياناً جديداً يختلف عما كانوا عليه .

الحرم الآمن :

وأبرز خصائص هذا التركيب الجديد للمجتمع البشري الذي يستحدثه الحرم في حياة الناس هو الأمن، والاحساس بالأمن . إن هذا الأمن من خصائص ونتائج هذا التركيب البشري الجديد الذي يجده الناس في الحرم، وهو في نفس الوقت من أسبابه وموجباته . فإن الناس إذا شعروا بالأمن بعضهم من بعض، التقى بعضهم بعضاً دون حذر، وتعامل بعضهم من بعض، وتلاقوا، وتآلفوا، وتعاونوا. فالأمن يعد الناس ليكونوا أمة واحدة، والأمن يعطي للناس هذه الفرصة، التي تتطلبها عملية الانتقال من الحياة الفردية، التي يعيشها الناس عامة إلى هذا النمط الجديد، الذي يريده الله تعالى لعباده، والذي يرسم الحرم نموذجاً له، كما يصح العكس أيضاً، فإن الأمن والإحساس بالأمن هو النتيجة الطبيعية لهذا اللون الجديد من الحياة الاجتماعية . فإن الناس عندما يحشرون في الحرم لا يختلفون ولا يتشاجرون ولا يتفخخرون ولا يتزايدون ولا يتضاربون .

الحرم رقعة نموذجية لساحة الحياة :

والله تعالى يريد أن يكون وجه الأرض كله آمناً للناس، يعيش الناس بعضهم مع بعض في أمن ودعة وسلام لا يحنق بعضهم على بعض، ولا ينوى أحد لأحد شراً، يُؤثر بعضهم بعضاً على نفسه، ويحب بعضهم بعضاً.

يقول تعالى في صفة المهاجرين والأنصار في الصدر الأول من هذا الدين . . . {والذين تبوءوا الدار والايمان من قبلهم يُحبون من هاجر إليهم، ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا، ويؤثرون على أنفسهم، ولو كان بهم خصاصة، ومن يوق شح نفسه، فأولئك هم المفلحون . والذين جاءوا من

بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان، ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا، ربنا إنك رؤوف رحيم} (٣). ولكن الناس يرفضون أن يعيشوا كما يريد الله تعالى لهم . فجعل الله لهم من الحرم (رقعة نموذجية) للحياة الآمنة التي يريدونها للناس . بدعاء عبده وخليته إبراهيم (عليه السلام): {وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلداً آمناً وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر} (٤).

هذا هو دعاء العبد الصالح إبراهيم (عليه السلام): وقد استجاب الله تعالى لدعاء عبده وخليته إبراهيم (عليه السلام) فقال: {وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً} (٥).

والمثابة: الخل الذي يرجع إليه الناس. وقد جعل الله — تعالى — البيت مثابة للناس يجمع الناس ويرجعون إليه، ويقصدونه من كل فج عميق، ثم جعله آمناً يأمن فيه الناس بعضهم من بعض، ولا يحذر فيه أحد الآخرين على نفسه؛ يقول تعالى : {أو لم يروا أننا جعلنا حرمًا آمناً} (٦)، وجعل رقعة الحرم رقعة نموذجية لساحة الحياة كلها، كما جعل الشهر الذي يتم فيه الحج (ذو الحجة) من الأشهر الحرم . يقول الله تعالى : {ومن دخله كان آمناً} (٧).

وحتى {الجدال} الذي ينطوي على نوع من العدوان على الآخرين يجرمه الله تعالى على الحجاج . {فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج} (٨).

فإن الجدال منفذ للعدوان بين الناس . وكثير من العدوان يبدأ بين الناس من الجدال الذي يسعى فيه كل من الطرفين المتجادلين إلى إثبات الذات وتجاوز الطرف الآخر.

والأمن في الحرم أمن شامل، يشمل حتى الحيوان والنبات، فلا يجوز الصيد في الحرم، ولا يجوز قطع النباتات والأشجار في منطقة الحرم إلا في

حالات خاصة يذكرها الفقهاء . . وحرمة الصيد وقطع النباتات لا تخص حالة الاحرام، فإنهما تحرمان على الحرم والمحل معاً في منطقة الاحرام . والحرم في الاسلام عينة صغيرة لساحة الحياة كلها، والذي يجب أن يعرف رأي الاسلام في الحياة ؛ فإن هذه العينة الصغيرة والرقعة المحدودة من الأرض تجسد تخطيط الاسلام لساحة الحياة الواسعة، فإن العلاقة فيما بين الناس والارتباط والتلاقي هو الافراز الطبيعي للحياة الاجتماعية . فمن أجل هذه العلاقة واللقاء والتلاقي خلق الله — تعالى — الانسان اجتماعياً وأعدّه للحياة الاجتماعية . ولا يبلغ الانسان الكمال والنضج الذي أعدّه الله تعالى له إلا في وسط هذه العلاقات واللقاءات والتلاقي في الحياة الاجتماعية . فلو أن انساناً اعتزل الحياة وعاش وحده في جزيرة قاصية لم يبلغ بالتأكيد النضج والكمال الذي أعدّه الله — تعالى — له . وهذه اللقاءات والعلاقات إنما تثمر وتعطي وتنتج في حياة الانسان، فيما إذا توفر له الجو السليم، الأمن والسلام . أما عندما تكون هذه العلاقة في جو من الريبة والحذر، والخوف والقلق والعدوان والكيد والمكر، فإن هذه العلاقة والارتباط فيما بين الناس لا تكاد تثمر هذه الثمرة، ولا تكاد تبلغ بالانسان النضج والكمال، الذي يطلبه الانسان في الحياة الاجتماعية، من خلال هذه العلاقات واللقاءات والارتباطات، بل قد تعود العلاقة في مثل هذا الجو إلى نتائج سلبية في حياة الانسان .

فالاسلام يخطط بناءً على هذا الفهم لضرورة العلاقة وحدودها في حياة الانسان، ليجعل العلاقة فيما بين الناس في الحياة الاجتماعية في جو آمن وسليم، فيأمن الانسان الآخرين على نفسه في حضوره وغيبته، وفي نفسه، وعرضه، وماله، ويأمن على نفسه من ألسنة الآخرين وأيديهم، ومن مكرهم وكيدهم وعدوانهم، فيعيش في جو من الأمن الشامل، ويبني علاقاته كلها مع الآخرين في هذا الجو الآمن، في السراء والضراء، وفي التجارة والبيع، وفي الزواج والعلاقات الاجتماعية، وفي علاقاته مع

أصدقائه وزملائه، وفي علاقاته مع أعضاء أسرته، وفي ارتباطه بمن هو فوقه ومن هو دونه، وحينما يأخذ وحينما يعطي، وحينما يحتاج إلى الآخرين وحينما يحتاج إليه الآخرون . . .

الاسلام يخطط ويعمل ؛ ليجعل العلاقة فيما بين الناس في الحياة الاجتماعية على كل الأصعدة في جو من الأمن والسلام، لتعطي هذه العلاقة الثمرات المطلوبة منها في الحياة الاجتماعية، ويخطط الاسلام ويعمل ليجعل الحياة الاجتماعية حياة آمنة مطمئنة ليتعايش الناس فيها بسلام .

والحرم عينة صغيرة نموذجية في الحياة الآمنة والمطمئنة التي يطلبها الاسلام . . والاحرام عينة أخرى نموذجية للحالة التي يطلبها الاسلام للناس في الحياة الاجتماعية، في علاقة الناس بعضهم ببعض . ويعود الحجاج من الاحرام والحرم إلى واقع حياتهم ليأخذوا معهم النموذج الإلهي للحياة وللعلاقات الاجتماعية، ويعيشوا حياتهم بها .

٣- الانتقال إلى المحور الإلهي:

وهذه هي المرحلة الثالثة، من رحلة الحج الابراهيمي .

في المرحلة الأولى يتخلص الانسان من فرديته وأنانيته وأعراض هذه الأنانية .

وفي المرحلة الثانية يصب في الحرم في الجماعة المسلمة، وينصهر في هذه الجماعة (الامة) .

وفي المرحلة الثالثة وهي الغاية الأخيرة في هذه الرحلة تصب هذه الجماعة في المطاف حول الكعبة.

والكعبة في لغة الحج الرمزية رمز للمحورية الالهية في حياة الانسان . وإذا استطاع الانسان في المرحلة الأولى من هذه الرحلة، أن يتخلص من جاذبية محور الأنانية في حياته، فإن المحور الالهى يجذبه جذباً قوياً بطبيعة الحال .

وانجذاب الانسان إلى هذا المحور، أمر طبيعي كامن في عمق فطرة

الإنسان، وأنا هو الذي يحجز الإنسان عن هذه الجاذبية، فإذا تحرر عن حاجز الانا فان الجاذبية الإلهية تجذبه . والطواف بعد الإحرام رمز لذلك . فإن الاحرام من الميقات يرمز للتحرر من الأنسا. والطواف حول البيت يرمز إلى الانجذاب إلى الله تعالى، والحركة حول المحور الالهي في الحياة .

وعليه فإن حركة الطواف نقلة في حياة الانسان من الأنا إلى الله تعالى . إنه تعبير رمزي عن التوحيد في حياة الانسان المسلم، إلا أن هذا التوحيد ليس هو التوحيد النظري، الذي يعرفه الناس، وإنما هو توحيد العبودية لله، وتوحيد الحب والولاء والاهتمام، كما ترسمه الآية المباركة من سورة الأنعام : {قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين . لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين} (٩).

إن الطواف يرمز إلى الحركة الانسانية الدائمة والمستمرة حول هذا المحور الالهي في التاريخ، وإنما ننظر من بعيد إلى حركة التاريخ، فنرى أن حركة التاريخ تجسد (التوحيد) في حياة الانسان، وأن الأنبياء (عليهم السلام) وأممهم — إلا في فترات قصيرة جداً — يجسدون هذه الحركة البشرية الدائمة حول محور الألوهية . ولكن عندما ندخل نحن ضمن هذه الحركة فسوف نواجه ألواناً من المضايقات والأذى والمشاكسات من الهوى في داخل أنفسنا، ومن الطاغوت في المجتمع، ومن شياطين الجن والإنس الذين يضايقون الناس في حركتهم إلى الله .

وحركة الطواف حول الكعبة تجسد هذا الواقع بالدقة ؛ فإذا نظرت من الأعلى إلى المطاف ترى حركة دائرة الجماهير الطائفين بصورة مستمرة، وكأن أرض المسجد الحرام تطوف بهم حول البيت في حركة منظمة وهادئة، أما إذا دخلت بنفسك في المطاف التقيت بالوجه الآخر لهذه الحركة الانسانية حول المحور الالهي، من المعاناة ومواجهة العقبات والمضايقات، وهو يختلف اختلافاً

كبيراً عن الوجه الأول الهادئ والمريح .

لماذا عبر الانصهار في الجماعة؟

في هذه المرحلة نحن نفهم المنطلق والغاية في حركة الانسان بصورة دقيقة، فالمنطلق الذي ينطلق منه الانسان هو تجاوز الأنا والذات ويعبر الاحرام في الميقات عن هذا المنطلق . والغاية هي الحركة إلى الله وتوحيده — تعالى —، ويرمز الطواف إلى هذه الغاية . ولكن الانسان في الحج يصل إلى هذه الغاية عبر الانصهار في الجماعة المسلمة، ومن دون الانصار في الأمة المسلمة لا يمكن الوصول إلى هذه الغاية . . .

إن التخطيط الاسلامي للحج يؤكد على حضور الأمة المسلمة وتواجدها في موسم الحج من كل فج عميق . {وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق} (١٠) .
إن هذا الأذان والإعلان والدعوة الإلهية العامة للحج، من قبل الله ورسوله، والاستجابة من قبل الناس من كل فج عميق، يشكل بالتأكيد بعداً هاماً من أبعاد الحج .

وعندما نستعرض آيات الحج ، والكعبة والبيت، في القرآن منذ أن رفع إبراهيم وإسماعيل القواعد من البيت، نجد اهتماماً كبيراً بحضور الناس في هذا البيت، وفي هذا الموسم، وابلغ ما في ذلك تعبير القرآن عن بيت الله بأنه بيت الناس {إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدي للعالمين . فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً . . .} (١١) .

ومن عجب أن الله تعالى يخص الناس — عباده — بأول بيت وأشرف بيت ويعلن عن أنه بيت للناس ثم يدعو الناس إليه {ولله على الناس حج البيت} .

وفي دعاء إبراهيم (عليه السلام) نجد أن إبراهيم خليل الرحمن، عندما أودع أهله وذريته بهذا الوادي القاحل غير ذي زرع، دعا الله تعالى أن يجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم {فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكروا} (١٢).

وأيضاً نجد في سورة البقرة {وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً} (١٣).

فالبيت مثابة للناس يجتمع الناس حوله، ويثوب إليه الناس، ويجتمع الناس من كل حذب وصوب، ثم إننا في سورة المائدة نقرأ {جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس} (١٤).

فالكعبة تقوم حياة الناس، وتقوم حياة الناس بها، وعند الإفاضة يأمر الله — تعالى — عباده أن لا ينفرد بعضهم عن بعض في الإفاضة، وإنما يفيض كلٌ منهم حيث أفاض الناس {ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله} (١٥).

إذاً حضور الناس حول البيت وتواجدهم في الموسم، وانصهار الفرد داخل البيت والحرم في الناس شيء أساس في الحج، في طريق حركة الانسان إلى الله تعالى .

ونتساءل بعد ذلك، لماذا ؟

وهو سؤال مهم يرتبط بسر من أسرار هذا الدين، فإن هذا الدين يحرك الانسان إلى الله — تعالى — ولكن من خلال الحضور في وسط الناس . فالحج حركة إلى الله، ولكن من خلال الانصهار في الناس، والصلاة معراج كل مؤمن، ولكن من خلال الجماعة، وحتى الاعتكاف الذي هو نحو من الاعتزال عن الناس يتم في المسجد الحرام ومسجد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) والمسجد الجامع في الكوفة، والمسجد الجامع في أي بلد، وليس في أي مسجد معزول متروك، فتتساءل مرة أخرى لماذا لا تتم حركة الانسان إلى الله

في الحج إلا من خلال الانصهار في الناس ومن خلال الحضور في وسط الناس؟.

والجواب:

إن من غير الممكن أن يتجاوز الإنسان الأنا في عزلة من الناس، وهو شرط أساس في الحركة إلى الله تعالى .

والإنسان قد يتصور إذا اعتزل الناس، وابتعد عن الحياة الاجتماعية، يتحرر من الأنا والهوى والشهوات والرغبات، ولكنه يخطئ كثيراً، فإن نزعات الأنانية تبقى مطوية في خبايا نفسه، وهو غير شاعر بها، فإذا دخل الحياة الاجتماعية واحتك بالناس، برزت هذه النزعات المخبوءة، على السطح الظاهر من شخصيته، ولكن يمكن اجتثاث هذه النزعات والقضاء عليها إلا في وسط الحياة الاجتماعية .

إن هذه النزعات لا يمكن استئصالها إلا من خلال صراع مرير مع النفس في وسط الحياة الاجتماعية، ولا شك أن هذه النزعات، تختفي في حياة العزلة والرهبانية، إلا أنها تبقى كامنة ومختفية في النفس، فإذا صادفت فرصة مناسبة وجواً مناسباً تبرز مرة واحدة .

ولذلك لا بدّ من هذا الوسط الاجتماعي و الحياة الاجتماعية، والحضور في وسط المغريات والمثيرات ليستطيع الإنسان أن يتجاوز الأنا بصورة كاملة .

وحقيقة أخرى لا تقل أهمية عن الأولى : أنّ حركة الإنسان إلى الله — تعالى — حركة شاقة عسيرة وصعبة، ولا يستطيع الإنسان أن يطوي هذا الطريق وحده، فإذا حضر نفسه في الجماعة المؤمنة، وانصهر في وسط الأمة هان عليه السير، واستطاع أن يطوي معهم هذا الطريق بكفاءة وجدارة ويسر. لذلك نقول في الصلاة ، ونكرر في كل يوم عشر مرات {إياك نعبد وإياك نستعين} بصيغة الجمع، وليس بصيغة المتكلم الواحد، فإن الطريق إلى الله

طريق صعب . وليس من شك أن سلوك هذا الطريق، وطى هذه المسافة مع الجماعة المؤمنة آمن وأسلم وأيسر.

ولذلك نجد أن الطريق إلى الله — تعالى — يتم في الاسلام، عبر الحضور في الجماعة المسلمة والانصهار فيها، وليس بمعزل عنها.

الأبعاد الثلاثة للحج :

تلك هي المراحل الثلاث التي يرسمها الحج بلغته الرمزية الخاصة :

١— مرحلة تجاوز الذات .

٢— مرحلة الانصهار في الجماعة .

٣— مرحلة الحركة إلى الله .

وهذه المراحل الثلاث هي الأطراف الثلاثة في علاقات الانسان ؛ فإن للانسان علاقة بالله تعالى، وعلاقة بالمجتمع والكون، وعلاقة بنفسه .

وهذه العلاقات منظورة جميعا في الحج . ومن عجب أن تكون علاقة الانسان بالجماعة وانصهاره فيها، هو الجسر الذي يربط الانسان بالله تعالى، وليس هو الحاجز والحاجب والعقبة كما في التصورات الرهبانية .

الهوامش :

- (١) العنكبوت : ٦٧.
- (٢) الانعام : ١٦٢.
- (٣) الحشر: ٩ — ١٠.
- (٤) البقرة : ١٢٦.
- (٥) البقرة : ١٢٥.
- (٦) العنكبوت : ٦٧.
- (٧) آل عمران : ٩٧.
- (٨) البقرة : ١٩٧.
- (٩) الأنعام : ١٦٢ — ١٦٣.
- (١٠) الحج : ٢٧.
- (١١) آل عمران : ٩٦ — ٩٧.
- (١٢) إبراهيم : ٣٧.
- (١٣) البقرة : ١٢٥.
- (١٤) المائدة : ٩٧.
- (١٥) البقرة : ١٩٩.

نبذة تاريخية عن القبلة في المسجد النبوي الشريف

تأليف: محمد هادي اليوسفي

من وظائف المسلمين معرفة القبلة، وهي الكعبة المعظمة في مكة المكرمة، في الحجاز، من شبه الجزيرة العربية . . فالتوجه إليها شرط في صحة صلواتهم، والتوجيه إليها شرط في حلية ذبائهم . وحسب اختلاف المناطق طولاً وعرضاً وشمالاً وجنوباً تختلف القبلة اختلافاً كبيراً، وتتوقف معرفته على علم الهيئة والفلك والجغرافية .

قبلة المسجد النبوي الشريف:

ومن المعلوم في تاريخ الاسلام أن رسول الله (صلى الله عليه وآله) إذ هاجر من مكة المكرمة إلى المدينة الطيبة كان يصلي إلى المسجد الأقصى في مدينة ايليا = القدس الشريف في فلسطين من أراضي الشام، واستمر على ذلك حتى منتصف السنة الثانية بعد هجرته، حيث نزل أمين الوحي جبرئيل (عليه السلام) فحوّل الرسول في منتصف الصلاة الوسطى (الزوال) من المسجد الأقصى إلى الكعبة المعظمة في المسجد الحرام، فحوّل الرسول قبلة مسجده كذلك إلى نقطة الجنوب تماماً، من دون أي انحراف عنها .

فساد الهيئة البطلمية:

وفي أوائل عهد الخلافة العباسية، حيث تُرجمت كتب العلوم اليونانية إلى العربية ومنها كتب الهيئة البطلمية، فسادت هذه الهيئة بين الأمة الإسلامية . وكانت نقطة البدء في تعيين خطوط طول البلاد في تلك الهيئة "جزيرة فرو" من "الجزر الخالدات" .

وعليها كانوا يرون طول مكة المكرمة ٧٧ درجة و ١٠ دقائق، وعرضها ٢١ درجة و ٤٠ دقيقة. وطول المدينة ٧٥ درجة و ٢٠ دقيقة وعرضها ٢٥ درجة فقط . وعليه فطول المدينة أقل من طول مكة المكرمة بدرجتين و ١٠ دقائق، بينما يزيد عرض المدينة على عرض مكة المكرمة بثلاث درجات و ٤٠ دقيقة . وحيث أن قانون الهيئة يقتضي أن أي مدينة كان طولها أقل من مكة وعرضها أكثر منها مثل المدينة المنورة، فلا تحصل مواجهة القبلة من تلك المدينة إلاّ إذا انحرفنا فيها عن نقطة الجنوب إلى جهة المشرق بازاء كل درجة من الطول ١٠ إلى ١٢ درجة بحسب اختلاف الأفق في المناطق، لهذا كانوا يحكمون بأن قبلة المدينة المنورة تنحرف عن نقطة الجنوب إلى جهة المشرق ٢٧ درجة . هذا في حين أن المحراب المبارك في المسجد النبوي الشريف كان ولا يزال مواجهاً لنقطة الجنوب تماماً من دون أي انحراف .

فالمحراب الذي عينه الرسول المعصوم وشيد تحت إشرافه، كان أمانة شرعية، وعلامة معتبرة لتعيين القبلة، دون أن يتصور فيها أي شبهة أو إشكال .

وعلى هذا فكيف يمكن لأصحاب الهيئة (البطلمية) من المسلمين أن يدعوا بانحراف قبلة المسجد النبوي؟ اللهم إلا أن يتخلوا عن عقيدتهم بعصمة الرسول الكريم !

تحقيق المحدث المجلسي في ذلك :

كانت هذه المشكلة عويصة كبرى في العصور السالفة بين علماء المسلمين، حتى إن المحدث المحقق المجلسي "رحمه الله" كان مما فرض على نفسه التحقيق في هذه المسألة : أي انحراف قبلة المدينة المنورة ومسجدها؟ وبعد تشرفه بما عمل كل ما بوسعه من التحقيق والدراسة حول الموضوع، ولكنه لم يصل إلى أي نتيجة، فلم يتمكن من أن يوفق أو يلائم فيما بين قبلة المسجد النبوي الشريف وبين قواعد الهيئة القديمة، التي كانوا يظنونها طليساً لا ينكسر! وبالتالي فإنه احتمل قوياً — ومضطراً — أن تكون يد متعمدة أو مخطئة قد عملت في العمارات المتعاقبة على المسجد في زمن الخلفاء العباسيين، فحرقت القبلة عن الموضع الأصلي على عهد النبي إلى ما هي عليه اليوم ويومئذٍ . من دون أن يتصور أو يحتمل الخطأ في قواعد الهيئة والجغرافية القديمة !.

الخطأ المكتشف :

في حين أن هذا — أي خطأ الهيئة القديمة — هو الواقع والحقيقة، وقد نشأ خطأ القدماء في هذا الحكم من حيث إنهم زعموا أن طول المدينة أقل من طول مكة المكرمة، وقد أخطأوا في زعمهم هذا لأنهم لم تكن لديهم مقاييس وأدوات دقيقة لتعيين طول البلدان وعرضها، بينما علماء الهيئة والجغرافيا اليوم قد حددوا أطوال البلدان وعرضها بمقاييس دقيقة حتى المتر ونصفه بل السانتييم والمليم، فعشروا ضمن ذلك على حقيقة تساوي البلدين مكة والمدينة تقريباً في خط الطول، وكان مبدأ الطول لدى القدماء "جزيرة فرو" من "الجزر الخالدات" كما مرّ ؛ بينما هو لدى المتأخرين مرصد "غرينويش" في لندن ، وقد حاسبوا ذلك على التقديرين، فكان طول البلدين متساوياً تقريباً كما يلي :

طولهما على مبدأ جزيرة فرو: ٥٧ درجة و ٥٧ دقيقة و ٥ ثواني .
وطولهما على مرصد غرينويش : ٣٩ درجة و ٥٠ دقيقة فقط .
فعلى أيّ تقدير يكون طول البلدين متساوياً تقريباً، وحسب قواعد الهيئة تكون القبلة كما هي عليه في المسجد النبوي الشريف ومحرا به (صلّى الله عليه وآله) فيه .
وبهذا علّم أن رأي القدماء بانحراف قبلة المسجد ومحرا به كان خطأً ووهماً! بل إن وجود هذا المسجد واخلراب أثر قيّم وشاهد كبير لاثبات علم المعصوم بالهيئة والفلك والجغرافيا والنجوم (*) .

(*) أفدنا في هذه النبذة التاريخية من كتاب: حاجة الأنام إلى النبي والامام بقلم المرحوم آية الله الموسوي اللاري، وتعريب كاتب البحث .

خواطر من الحجّ عند بيت المولى

تأليف: علي الكوراني

. . . كانت ليلة في السيارة إلى مكّة أين منها النهار . . .

فيها نقاط التفتيش . وفيها طعام المحرمين . وفيها بعض الأحاديث والأسئلة عن أحكام الإحرام،
ولكنها جميعا اكتست بجلال الخشوع ونور السكينة . . حتى ذكرهم للحسين عليه السلام صار من
جو التلبية والإحرام . فقد عاشوا معه محرما في طريقه إلى مكة . ثم محرما في كربلاء يلبي فيقول:

تركت الخلق طراً في هواكا وأيتمت العيال لكي أراكا

فلو قطعني في الحب إربا لما مال الفؤاد إلى سواكا

وحتى إغفاءات الحجاج في آخر الليل كانت هادئة ناعمة، تقول الروح للجسد فيها:

خذ راحتك، نم في هذه الطمأنينة الإلهية فأنا وملائكتك يقظي . . فيغفو الجسد مطمئنا حتى إذا

سمع التلبية أفاق، ولبي مع روحه ورفقائه والملائكة . .

هنا أول مكة . . ونظر الحجاج فرأوا شارعا ممتداً وأمامه جبال ينبعث من ورائها بهاء نور . .
فرفعوا أصواتهم بالصلاة على النبي وآله . . .
هدأت الأصوات حتى عن التلبية . فقد وصلوا إلى حرم المولى . وتطلعت إليه الأنظار والقلوب .
. تريد أن ترى كل شيء في مكة وتنحسسه . حتى المباني والشوارع والجبال والهواء . . .
بسم الله وبالله . ومن الله وإلى الله . ما شاء الله ، وعلى ملة رسول الله ، صلى الله عليه وآله .
وخير الأسماء لله . والحمد لله . .

السلام على رسول الله محمد بن عبد الله . .
السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته . .
السلام على أنبياء الله ورسله . .
السلام على إبراهيم خليل الرحمن . .
السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين . .
اللهم افتح لي أبواب رحمتك . واستعملني في طاعتك ومرضاتك . واحفظني بالإيمان أبداً ما
أبقيتني، جل ثناء وجهك . .

الحمد لله الذي جعلني من وفده وزواره، وجعلني ممن يعمر مساجده، وجعلني ممن ينجيه .
اللهم إني عبدك وزائر في بيتك، وعلى كل ماقي حق لمن أتاه وزاره، وأنت خير ماقي وأكرم
مزور . فأسألك يا الله يا رحمان بأنك أنت الله لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك وبأنك واحد أحد
صمد لم تلد ولم تولد ولم يكن له كفواً أحد . . وأن محمداً عبدك ورسولك صلواتك عليه وعلى أهل
بيته . .

يا جواد يا كريم أسألك أن تجعل تحفتك إياي بزيارتي إياك أول شيء تعطيني فكأك رقبتي من النار

وتقدم الحجاج في القسم المسقوف من الحرم، فنظر أكثرهم لأول مرة إلى الكعبة الشريفة تقوم في وسط ساحة المسجد، ويموج من حولها نهر الطائفين المقدس . . فقرأ لهم القارئ دعاء النظر إلى الكعبة وترجمه لهم .

" الحمد لله الذي عظمك وشرفك وكرمك وجعلك مثابة للناس وأمناً مباركاً وهدى للعالمين " .

وقال لهم اجلسوا، فجلسوا . . ثم قال ارفعوا أيديكم، وقرأ لهم :

اللهم إني أسألك في مقامي هذا في أول مناسكي أن تقبل توبتي، وأن تتجاوز عن خطيئتي وأن تضع عني وزري . الحمد لله الذي بلغني بيته الحرام . .

اللهم إني أشهد أن هذا بيتك الحرام الذي جعلته مثابة للناس وأمناً مباركاً وهدى للعالمين . .

اللهم العبد عبدك، والبلد بلدك، والبيت بيتك . . جئت أطلب رحمتك وأؤم طاعتك، مطيعاً لأمرك، راضياً بقدرك . . أسألك مسألة الفقير إليك الخائف من عقوبتك . .

اللهم افتح لي أبواب رحمتك، واستعملني بطاعتك ومرضاتك . .

بكى الحجاج لهذا الدعاء بنسب من البكاء، ثم قاموا الصلاة ركعتي تحية المسجد . .

أما الدكتور فقد اتصل بكأؤه وهو جاث على ركبتيه وقد نكس رأسه . وبقي أحمد إلى جانبه ينتظره فطال بكأؤه . . قام أحمد يصلي، وبقي الدكتور جالساً مطرقاً، ينظر حيناً إلى الكعبة والطائفين والمسجد، ثم يأوي إلى صمته الطويل . . ودموعه . .

أكمل أحمد صلاته ودعائه . والدكتور ما زال على حاله . . فذهب وجاء بأربعة أكواب ماء قدم

إلى الدكتور واحدا منها وقال:

هذا من ماء زمزم يادكتور.

شكراً لك يا أحمد، وهل يصح أن نشرب هنا؟
نعم، يا دكتور يستحب، ولكن اسمح لي قبل أن تشرب أن أقرأ لك الدعاء المستحب . وقرأ له:
"اللهم اجعله علماً نافعاً، ورزقاً واسعاً، وشفاءً من كل داء وسقم".
فقرأ الدكتور الدعاء وشرب وحمد الله، فقال له أحمد .
ونحن في بيت الله، أحب أن أهدي لك هدية يا دكتور.
شكراً، يا أحمد ما هي؟

وأخرج أحمد من محفظته ورقة وقال:
خطبة أمير المؤمنين عليه السلام حول الكعبة التي استشهد عالم القافلة بجزء منها . . رأيت الكعبة
الشريفة فهل تحب أن أقرأ لك بعضها ريثما يأتي الرفقاء . . ؟ .
شكراً، تفضل إقرأ .
وقرأ أحمد :

" ألا ترون أن الله سبحانه اختبر الأولين من لدن آدم صلوات الله عليه إلى الآخرين من هذا العالم،
بأحجار لا تضر ولا تنفع، ولا تبصر ولا تسمع، فجعلها بيته الحرام الذي جعله للناس قياماً، ثم وضعه
بأوعر بقاع الأرض حجراً وأقل نائق الدنيا مدرأً، وأضيق بطون الأودية قطراً . بين جبال خشنة،
ورمال دمثة، وعيون شلة، وقرى منقطعة، لا يركو بها خف ولا حافر ولا ظلف .
ثم أمر آدم عليه السلام وولده أن يثبوا أعطافهم نحوه، فصار مثابة لمنتجع أسفارهم، وغاية للملقى
رحالهم . تهوي إليه ثمار الأفئدة، من مفاوز قفار سحيقة، ومهاوي فجاج عميقة، وجزائر بحار منقطعة،
حتى يهزوا مناكبهم ذللاً يهللون لله حوله، ويرملون على أقدامهم شعناً غبراً له، قد نبذوا السراويل

وراء ظهورهم وشوّهوا بإعفاء الشعور محاسن خلقهم . . ابتلاء عظيمًا، وامتحانًا شديدًا، واختبارًا مبینًا، وتمحيصًا بليغًا، جعله الله سببًا لرحمته ووصلةً إلى جنته .

ولو أراد سبحانه أن يضع بيته الحرام، ومشاعره العظام، بين جنات وأثمار، وسهل وقرار، جمّ الأشجار، داني الثمار، ملتفّ البني، متصل القرى . بين بُرة سمراء وروضة خضراء، وأريافٍ محدقة، وعِراضٍ مغدقة، ورياض ناضرة، وطرق عامرة، لكان قد صغر قدرُ الجزء على حسب ضعف البلاء .
ولو كان الأساسُ اُحمولُ عليها، والأحجارُ المرفوعُ بها، بين زمردة خضراء، وياقوتة حمراء، ونور وضياء، لحفّف ذلك مصارعة الشكّ في الصدور، ولوضع مجاهدة إبليس عن القلوب، ولنفي معتلج الريب من الناس . .

ولكنّ الله يختبر عباده بأنواع الشدائد، ويتعبدهم بأنواع المجاهد، وبتبليهم بضروب المكار، إخراجاً للتكبر من قلوبهم، وإسكاناً للتدلل في نفوسهم . . وليجعل ذلك أبواباً فتُحاً إلى فضله، وأسباباً دُلاًّ لعفوه " .

أكمل أحمد قراءة النص والدكتور يستمع بإصغاء، فقال بصوت منخفض وهو يهز رأسه:
— أين كنا عن هذا الفكر، حقاً إن الثقافة الإسلامية مظلومة، كما يقول الشيخ الطبري . . يا أحمد لقد تأكّد لي أن أحدنا لا يكون إنساناً حتى يكون عبداً ذليلاً لله تعالى، متواضعاً للطيبين من عباده، وأن أكبر الأدوات التي يستعملها إبليس لمنعنا من ذلك هي ثقافة الغربيين المادية . . ساعدني يا أحمد لكي أخرج التكبر من قلبي وأكون عبداً لله ذليلاً، نعم ذليلاً . . برغم إبليس، فقد حاول بوساوسه عندما دخلنا إلى مكة والحرم أن يشغلني عن ربي سبحانه بجغرافية مكة وشوارعها وبنائها، وجدران الحرم وبنائه . . فقلت له: هذه الغرفة المربعة

هي بيت الله في الأرض، وسواء كانت في أقصى الشرق أو الغرب أو في مضيق جبلي يتسع لنفر واحد، أو جعلوها في سرداب تحت الأرض . . فالأمر لا يتغير منه شيء . . إنها بيت الله ومركز هذه الأرض، وأريد أن أطوف حولها وأتبرك بها، وأصنع كل ما أمرني به رسول الله صلى الله عليه وآله . أشكرك يا أحمد، فكأنك عرفت أنني بحاجة إلى هذه الكلمات العظيمة . . لقد قررت أن لا أشغل نفسي بشيء إلا بالأعمال المحددة الواجبة على . . أريد يا أحمد أن أكون واحداً منكم أتوجه إلى الله تعالى وأطوف حول بيته وأصلي، كما تفعلون . .

— نعم القرار يا عم، وأسأل الله أن يتقبل منك، فالوقت الآن لاداء المناسك، وعندنا عدة أيام لزيارة المسجد ومعالم مكة والتفكير والأحاديث . .

والتزم الدكتور بقراره، ودخل مع الموكب الخراساني في سبل الطائفين من شعوب العالم ، ولم يسمح للأفكار الطارئة أن تشغله . كان يقول في نفسه أنا الآن أطوف حول بيت الله . . إنها حقيقة عظيمة، يجب أن أعيشها . . كل شيء هنا غني بالمعاني والافكار، ولكني أنا فقير لأن أطوف حول بيت ربي وأناجيه . .

هل يمكن لانسان أن يمشي في سوق مزدحم بالناس وهو يرتجل قصيدة وجدانية . . ؟
أما إذا كان عاشقاً فنعم . .

دخلوا في خضم الطائفين حول البيت، وكانوا قسموهم إلى مجموعات مع كل واحدة منها مطوف . . ولكن الفراشة العاشقة تعرف كيف تحوم حول السراج، والخراساني يعرف متى يتابع دعاء المطوف، ومتى يدعو من ظهر قلبه بل من قلب قلبه، بكلمات بالعربية الفصحى، ودموع فوق اللغات..

المسلم في بلدنا يزور قبر الشهيد فيلقى له القصيدة . . وللإمام المعصوم يرتجل الشعر وينثر الدموع وللنبي يحمل المعلقة في يد والقلب في يد . .

أما وقد وصل إلى بيت المولى العظيم وبدأ طوافه، فهنا وقت كل القصائد ونثار الروح . . حتى لو
قصرنا في واجبهم فلم ينظموا المطاف، وحتى لو ازدحم الناس بمئات الألوف . . أو ليسوا يسمعون
له بأن يضع خطواته معهم ، فشكراً لهم . . وإذا دفعه الأفريقي واليماني والبدوي، فغفر الله لهم . .
كلهم ضيوف المولى يطوفون حول بيته . .

كل الأمور الأخرى ثانوية أمام قضية هذا المسلم القادم من بلاد نائية عند الكعبة . .

القضية أنه الآن حيث كل شيء . .

حيث آدم وحواء يطوفان ويتوبان . .

وحيث نوح يطوف بسفينته . .

وحيث إبراهيم وإسماعيل يجددان البناء . .

وحيث موسى وعيسى يحجان . .

وحيث محمد صلى الله عليه وآله يولد وينشأ، ويعث، ويظلم، ويهاجر، ثم يعود فاتحاً . . وحيث
خديجة والزهراء . . وعلي يكسر الأصنام . . والحسين يشد الرحال إلى كربلاء . . وكل الأئمة
والصحابة والعلماء .

وحيث المهدي يحج كل عام، وينتظر ذلك العام ليطلق ثورته من هنا، من عند هذا الركن، من
عند باب الكعبة . .

هنا يوجد الجميع، لأنه بيت رب الجميع . .

وهنا كل شيء من الماضي والحاضر والآتي . . لانه بيت رب الكل . .

الخطوة هنا بوزنها ذهباً . . والهواء بالثاقيل، لأنه أصلاً للروح قبل الرئين . . والكلمة لا تقدر
بشمن، لأنها تولد في الضوء وتلقاها ملائكة الكعبة حارة طازجة، فيصعدون بها إلى أعلى . .

ألا ترى عروجهم ونزولهم من عند أركان الكعبة الأربعة، بمحاذاة أعمدة النور الصاعدة إلى السماء السابعة، تصعد أفواجهم بكلماتنا وطلباتنا، وتعود محملة بالهدايا والبشائر . .
أما تراهم يجمعون دموع الطائفين في قوارير ليسقوا بها ورودا في حدائق عند العرش . . . وعلى نَعَم وحبيب قلوبنا ينظمون هيمنتهم . . وعلى نمط خفق أرواحنا يخفقون أجنحتهم . .
وانتظمت قافلتنا في نهر الطائفين . . تغتسل بالنور، وتستمطر النور، وتفجر قلوبها بالنور والدموع . . كل منهم قرأ مع المطوف، وقرأ من قصائده هو . .
وماذا أجيل في أدب الشعوب من شعر المحرمين الطائفين حول بيت ربهم، ومن إلقائهم . . وحدهم ملائكة الله جمعوا ديوانهم في مجلدات، ولم توزع نسخه على أهل الأرض، ولم يصلنا منه إلا القليل من كلمات آدم، ودعاء إبراهيم، وتلبية موسى وعيسى، ومناجاة النبي وأهل بيته صلى الله عليه وآله وكبار الصحابة والفقهاء والعارفين . .
في كل يوم للمسلمين مناجاة وأدعية هند الكعبة، ولكن موسم الحج هو موسم القصائد الحارة، تحمل ذوب الروح وعبرها . .
بدأ أحدهم بمناجاة زين العابدين عليه السلام .
إلهي عبيدك ببابك، سائلك ببابك فقيرك ببابك، مسكينك ببابك . . اللهم البيت بيتك، والحرم حرمك، والعبد عبدك . . " فلم يستطع أن يواصل قراءتها لأن لغة البكاء منعه من الاسترسال في التحدث بلغة الدعاء، لجلال الموقف وهيبته المشهد .
وتتابعت الأشواط السبعة وانتهت، وتواصلت فيها من الحجاج المناجاة

والدعوات . .

ولكنّ أحداً منهم لم يشعر بريّ ظمئه، فالقضية مع الله عند الكعبة لا يفي لها طواف يذهب نصفه في الزحام، وبعضه في الإنبهار بجلال المشهد لأول مرة . . فلا بد من العودة، ولا بد من ساعات طوال للطواف والدعاء والصلاة .

أنغام الرحيل

تأليف: الشهيدة بنت الهدى

فرصة العمر واغلى مطلب قلب الانسان احلى اكتوبر
* *

ايها الراحل عن اوطانه لاهيا عنها وعن اخوانه
لا يبالي بجوى تحنانه قاده الشوق الى ايمانه
سائرا نحو النعيم المرتجى في رحاب الله او قبر النبي
* * *

فرصة العمر واغلى مطلب قلب الانسان احلى الارب
* * *

ايها الراحل سر نحو النعيم نحو وادي زمزم نحو الحطيم
نحو بيت الله والركن العظيم في رحاب الله ذي العفو الكريم
نحو سعي الخلق أو نحو الصفا واذكر الله بقلب وجب
* * *

فرصة العمر واغلى مطلب قلب الانسان احلى الارب
* * *

ايها الراحل قف جنب المقام حيث ابراهيم قد صلى وصام
ثم صل في خشوع واحترام واتجه فيها الى رب الانام

واطلب العفو من الرب الذي جعل التوبة عتق المذنب

* * *

فرصة العمر واغلى مطلب تهب الانسان احلى الارب

* * *

ايها الراحل ان جئت الصفا فاسع للمروة تبغي شرفا

وابتهل فيها بقلب قد هفا نحو عفو الله اسمى من عفا

ثم قصر بعد سيع وانثنى شاكراً لله نيل الطلب

* * *

فرصة العمر واغلى مطلب تهب الانسان احلى الارب

* * *

ايها الراحل يهنيك المسير نحو وادي خير نحو الغدير

نحو بدر احد نحو البشير نحو غار في حراء مستنير

بضياء المرسل الهادي الذي شع نوراً في بلاد العرب

* * *

فرصة العمر واغلى مطلب تهب الانسان احلى الارب

* * *

ايها الراحل خذها فرصة لك واغنم في ذراها عبرة

ودع الروح لتمضي حرة في سماء الحق تبغي جنة

عرضها طولاً كأرض وسما وهي تحيا بشعور عذب

* * *

فرصة العمر واغلى مطلب تهب الانسان احلى الارب

* * *

ايها الراحل هذي عرفات فاغنمها فرصة قبل الفوات

واشغلن ساعتها بالدعوات واغسل الذنب بسيل العبرات
جبل الرحمة فيها فآته رحمة الله بقلب وجب

* * *

فرصة العمر واغلى مطلب تمب الانسان احلى الارب

* * *

ثم عند الظهر قفها وقفة تائباً لله فيها توبة
واسكب الروح عليها عبرة تغسل الذنب وتعطي جنة
لا يلقاها سوى قلب نقي واستقم فيها لوقت المغرب

* * *

فرصة العمر واغلى مطلب تمب الانسان احلى الارب

* * *

ايها الراحل ذي مزدلفه نحوها فاطر الدجى في عرفه
يذكر الله بها من عرفه تائباً عن كل ما اقترفه
ليس فيها غير ارض وسما وظلام وخشوع مرهب

* * *

فرصة العمر واغلى مطلب تمب الانسان احلى الارب

* * *

انها ليلة سعد وخشوع وابتهاال ودعاء ودموع
ومناجاة الى وقت الطلوع ما احياها اراض وربوع
يستميل القلب فيها راحة تزدهى من كل زهر طيب

* * *

فرصة العمر واغلى مطلب تمب الانسان احلى الارب

* * *

ايها الراحل قد نلت المنى اذ توجهت الى ارض منى
مسجد للخيف يعطيك الهنا فيه تنسى كل جهد وعنا
ايها الراحل وارم الجمرات في حصي معدودة للطلب

* * *

فرصة العمر واغلى مطلب تهب الانسان احلى الارب

* * *

وتوجه بعدها للكعبة طف وصل ابتهل للتوبة
ثم فأت للصفاء والمروة واشكر الله لهذي النعمة
ثم طف فيها طوافاً ثانياً ليس من جهد بما أو نصب

* * *

فرصة العمر واغلى مطلب تهب الانسان احلى الارب

* * *

ايها الراحل يهنيك الوصول في رحاب القدس في قبر الرسول
فيه تسمو نحو باريها العقول تنمحي الآلام والههم يزول
يهب الارواح اماناً ورضا وهو يروي كل قلب مجذب

* * *

فرصة العمر واغلى مطلب تهب الانسان احلى الارب

* * *

ايها الراحل زر تلك الرحاب وبقيعاً ما به غير التراب
فغدت جدرانته تحكي الخراب وانمحت آثاره فهي يباب
وبه اربعة يرجى بهم نيل عفو الله يوم التعب

* * *

فرصة العمر واغلى مطلب تهب الانسان احلى الارب